

Add to Basket

الرقص على طبول مصرية

ملحمة نصر أكتوبر في عيون محارب



رواية

فؤاد حجازي

t.me/qurssan

☐ Add to Basket

الزُّقَصُ عَلَى طُبُولِ مِصْرِيَّةٍ

ملحمة نصر أكتوبر في عيون محارب

رواية

فؤاد مجازي

دار الفيل

حجازي، فؤاد.

الرقص على طبول مصرية: رواية/ فؤاد حجازي.

طبعة القاهرة، دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

٣٦٨ ص: ١٠ سم.

تدليك ٣ ٦٥١ ٢٧٦ ١٧٧ ٩٧٨

١. القصص العربية

ب. العنوان.

رقم الإيداع: ١٩٧٧٣/٢٠١٠

التسجيل الدولي: 3-652-277-977-978

اللوحة مهداة من الفنان: محمد حجي

● جميع الحقوق محفوظة للنشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي مسبق من الناشر، وإية استفسارات تحلّل على عنوان الناشر.

تحلّل جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالملكة العربية السعودية

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص ب ٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٨ - ٤٣٥١٩٦١ - ٤٣٥١٩٦٠

فاكس: ٤٣٥١٤٥٠ جوال: ٥٥٠٦٧١٩٦ / ٥٥٠٦٧١٩٧

جمله: ٥٥٠٦٧١٩٧ - ٥٥٠٦٧١٩٨

E-mail: saay@bcn.net.sa

مطابع الصور الحديثة - القاهرة

تلفون: ١٣. ٤٦٦٥١. فاكس: ٤٦٦٥٩٩



للنشر والتوزيع والتصدير

١. نشر على أي إنشاء يفتقر للنشر.

مدينة نصر - القاهرة

تلفون: ٤٣٥٣٧٨ - ٤٣٥١٩٦١ - ٤٣٥١٩٦٠

فاكس: ٤٣٥١٤٥٠

E-mail: info@daralataa.com

Web site: www.daralataa.com



اِسْمُكَ

إِلَى الدَّمَاءِ الشَّهِيدَةِ

الَّتِي أَهَدَيْنَا مُعْجَزَةَ النِّصْرِ

مَنْ أَعْدَلَ الْحُرِّيَّةَ وَالْعَدْلَ

فؤاد مجازي

بعد ظهر السادس من أكتوبر البشير عام 1973، وبالتحديد في تمام الساعة الثانية وخمس دقائق، كان جندي الشرطة العسكرية، ينظم المرور المتجه من الضفة الغربية لقناة السويس، إلى الضفة الشرقية، مشيراً بيده ناحية الشرق.

وظل هذا الجندي، يؤدي عمله، رغم زفير الطائرات فوقه، وصفير دانات المدافع، تمرق بجانبه وفوقه، ودوي انفجارها، ورغم الغبار الذي تثيره الدبابات، وهي تدمدم في غضب مكثوم، حوله، بينما طلقات الرصاص تنطلق - حتى هذه الساعة - من الغرب بغزارة .

وحقيقة، لم أكن أدري، هل هو جندي واحد، ظل واقفاً على هذا النحو حتى بعد أن غابت الشمس، أم أن الجندي، كان يسقط، ويحل محله آخر، دون أن يلحظ أحد. تطلع من زجاج نافذة العرب . طائعت الرمال، بتموجاتها، حتى تماسها مع قوس الأفق، تنهد، وتساءل : هل حقاً، تخلت الرمال عن هدوئها، وماجت بالحركة والغليان.

انحدرت الطريق . صعدت ثانية . في المنخفض، إلى يساره، قبل مدخل العريش بقليل، طالعت مصاطب مقابر، ترتفع وتنخفض، تبعاً لتموجات الأرض الرملية . وقد نمت بينها أعشاب قليلة، داكنة، لم تنطفئ

على لون الرمال التي بدت صفراء، مشبعة بلون رمادي، ولفتت نظره كثرة المقابر، مع أن العريش مدينة صغيرة .

ارتفعت العربية مع الطريق .. لمح على البعد، مياه البحر، هادئة، ترفرف فوقها التوارس البيضاء، بأجنحتها، هاشة .

كانت الطائرات، تحرك أجنحتها يميناً وشمالاً، كأنها تحييهم، فصاح الجنود مهللين، وقد غادرهم لحظات القلق، التي عمتهم منذ دقائق، حين عبرت الطائرات القناة .. وسرعان ما دوت مدفعيتنا من الغرب .. باتجاه السائر الترابي والحصون الحجرية لخط بارليف.

لكزه جندي، ليختبئ في حفرة، أو خلف مصطبة، وهو المدني .. إلا أنه لم يفعل، وقد شدة المشهد .. آلاف من الجنود، لا يدري كيف انشقت عنهم المصاطب الرملية، يحملون قوارب مطاطية، ألغوا بها على صفحة مياه القناة . سرت قشعريرة لطيفة في الماء، وحين عملت المجاديف، زجف قلبه بفرحة مبهمة، وتعلقت عيناه، بقطرات الماء، تنساب من الحواف العريضة للمجاديف، كفراشات بيضاء شفيفة، ترقص وتتقاذف في الماء .

ألقاء أحدهم جانباً في قوة، وقع على ظهره، هالته السماء المغطاة بآلاف النقذائف الحمراء، وقد استدارت الشمس، وأصبحت في ظهر جنودنا، عندئذ قال في نفسه : الشمس في عين العدو .

دخلت العربية شارع العريش الرئيس، حيث مركز المدينة، وحيث تقوم بعد المنتصف تقريباً، بيان جديدة للمحافظة، وللمصالح الحكومية المختلفة، ويتعامد الشارع في نهايته مع الشارع الموازي للبحر .

قبل أن يصعدا في الشارع، وحيث المقاهى البلدية، قال السائق :
- نركن قليلا .

كان ذراعه مطوحا خلف مقعده، لامست أصابعه شتلات الخوخ، قال :
- لا وقت لدينا .

وأشار له، ليسلك الطريق الدائرة، حول العريش، طالعتهم أشجار الزيتون، بجذوعها التي تميل إلى القصر، وأوراقها النضرة، في لونها الأقرب، لما نسميه أخضر زيتي .

ضغط السائق بقوة على دواسة الوقود . ولكنه اضطر لتخفيف الضغط، فقد انتوت الطريق، وضافت . على جانبيها نهضت أشجار اللوز القصيرة، الكستائية، وأطول منها قليلا أشجار المانجو بأوراقها العريضة، واخضرارها البهيج، ولاحت على البعد أشجار البرقوق، وتفصل بين المساحات المزروعة بالأشجار، أسوجة من التين الشوكي، اختفت ثمراته الحمراء، بين أوراق غليظة، باهتة الاخضرار، تنفر منها أشواك متحذبة .

نكم اشتقنا إلى زرع، يرطب هواء الصحراء الجاف اللاهب وقت الظهيرة، فقط ثلة من أشجار الخروج، كانت بالقرب من شريط السكة الحديدية للعريش، رأفت بحائنا، حين كنا نهرع إليها، في أية فرصة نقتنصها ونسلل من معسكرنا القريب .

وفي هذا الصباح، من الخامس من يونيو 67، ولم نكن قد انتهينا من فطورنا، ولم تكن الشمس قد شحذت همتها، في تسليط أشعتها، فكر بعضنا، الخالي من الخدمة، في تدخين سيجارة عند الخروج، وحيث يحلو الكلام، ولم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة، حين لمح جندي

المدفعية المضادة للطائرات، من حفرة جوارنا، طائرتي مستير، تحومان،
استعد للضرب . عاجله ضابطه :

- لا تضرب

قال :

- إسرائيليتان

- لا توجد أوامر .

نقرت إحدى الطائرتين مخزن الوقود، والأخرى حملة السيارات .
وبينما تصاعد الدخان أسود ناعقا، عادت الطائرتان، ونقرتا حفر المدفعية.
التقطت جهازى اللاسلكى، وأسرعت إلى زملائي أفراد الإشارة، كان
ضابطنا، يسأل فى برق تليفونه الميداني :

- هل قامت الحرب .. ؟!

نزلت العربية بقوة، مع انحدار الطريق، حتى كادت جبهته تصطدم
بزجاج العربية الأمامى، انفتحت إلى السائق فى ضيق . سرعان ما صعدت
العربية، فأمسك كلماته الغاضبة.

تلقت إنى الخلف من نافذة العربية إلى يمينه . رأي أشجار الزيتون
تتباعد . أحس، ولا يدري كيف، أنهما غادرا وادي العريش، وتحقق من
صدق إحساسه، حين نبه السائق :

- الوادي الأخضر .. نفق .. ؟

لم يرد . وقد أدهشته كثافة الأشجار، خاصة المانجر والخوخ، ولاح
على البعد، سور عال من الأسلاك .

تفحص بعينه الأرض على الجانبين . جُرفت طبقة رملية بعمق متر،

وأحياناً بعمق مترين أو أكثر، ونمت فى الأغوار، المربعة، والمستطيلة أحياناً، أشجار اليوسفي والخوخ والمانجو، والبرقوق، وبين الأغوار نهضت تلال رملية . حمل الهواء لهما رائحة البحر . وطالعا صفحته الزرقاء الفيروزية حين صعدت العربة الطريق . استوت الطريق، فأبطأ السائق من سرعته، ليعطيه فرصة ليحدد وجهته، ولما لم يفعل، انحرف السائق بالعربة يمينا مع الطريق، متفادياً دخول رفح، ومبتعداً عن البحر . وكان ما زال يلوك فى ذهنه ما تعنيه كثافة الأشجار التى ازدادت .

فجأة توقف السائق، انتبه، فإذا هما لا تفصلهما عن السور سوى أمتار قليلة، تتبع بناظره امتداد السور، فاصلاً مصر عن فلسطين المحتلة . تأمل السور بأسلاكه الشبكية، كشباك العنكبوت، وعلره الذي قدره بما يزيد على ثلاثة أمتار . ولفت انتباهه، خلف الأسلاك، أشجار متناثرة، رجح أن تكون أكاسيا وسيسباناً .

كان برج المراقبة قريباً من هنا . لا يدري كيف وصل إلى هنا مع سرية الإشارة، بعد تدمير الحملة فى معسكره قرب العريش، كانت الأوامر أن تتقدم . تشعلق مع زملائه فى عربات «زل» مارة تارة، ومشواتارة أخرى . طلب جندي البرج ماء . حملته إليه . رأينا تجمعاً من العربات المدرعة . أسرع جندي المراقبة إلى تليفونه الميداني، وأبلغ عما يراه أمامه فى مستعمرة الدنجلور .

رأينا دبابات، يبدو أنها خرجت من مرايض، مختفية بين الأشجار، حمل الهواء إلينا دخانها.

أسرع الجندي يصرخ فى البوق :

- تشكيل من الدبابات فى وضع هجوم . الطابور يتجه ناحية الحدود .

نزلت مسرعًا . ضبطت جهازي اللاسلكي، على تردد قيادة اللواء،

وشرعت فى إبلاغ إشارة جندي المراقبة . صرخ بى ضابط الإشارة :

- هل هذا عملك .. ؟

أسقط فى يدي، فاستمر زاعقًا :

اترك جهازك الآن، واذهب مع زميلك، لتتبع سلك التليفون .. للكشف

عن أعطال .

أحضر زميلي بنسة وشريطًا لاصقًا، ولفه من السلك، ولم نكد نغادر،

حتى لاحظتنا القذائف . هرولنا وانبطحنا أرضًا، ثم نهضنا نبحث عن

ملجأ، وفي اللهوجة، اختفى زميلي، لا أدري هل أصيب، أم وجد ملجأ .

كل ما أدريه، حين رفعت رأسى ذات مرة، وقد خف القصف قليلاً، هو

تساؤلي فيما يتوجب على عمله، هل أنضم إلى الزملاء عند البرج، أم

أستمر فى تتبع سلك التليفون . لم تطل حيرتي .. وفيما أقترب من البرج،

لمحت جندي المراقبة معلقًا من قدمه، وجسده مدلى .. نظرت حولي .

حجرة منخفضة على طريق فرعى، إلى خروبة . أسرعت إليها، تلاحقني

القذائف، وأصوات المجنزرات .

التفت إلى السائق :

- استدر .

لماذا لم أتبع السلك . أليس من الجائر أن عطبت أصابه، تسبب فى

عدم وصول إشارة جندي المراقبة، وكيف أتبعه وسط قذائف الدبابات، وطلقات الرصاص، كان عليك العودة إلى موقع البرج . لقد قصف الموقع . ربما كان هناك من ظل حيًا، وفي حاجة إلى مساعدتك، وربما نقيت ضابط الإشارة، وعلمت منه الموقف . لا .. كان يجب أن أتبع السلك، وأكشف عليه .

وقف السائق فجأة . ارتجت العربة، وارتج معها، تطلع في غيظ إليه، فأشار أمامه . بوابة رفع، على بعد أمتار قليلة . طالع السور الممتد بحذائها من الجانبين، وقد علقت بأسلاكه، بعض طيور البلشون، أتراها لم تميز الأسلاك، بسبب سرعتها في الطيران، أم بسبب إزهاقها، فلم تستطع أن تحيد عنها حين رأتها في اللحظة الأخيرة ..؟!

كانت رقابها الطويلة، مائلة قليلاً إلى جانب . دون أن يفارقها كبريائها . وبانت ألوانها المتناغمة، التي تضاهي ألوان ريش الطاووس، أقل زهواً، ربما بفعل ما أصابها . وربما بفعل دكنة غير مرئية، تشع في الجو .

أشار للسائق، باتجاه مبني صغير، وسط الأغزار، بالقرب من البحر . بينما يلف السائق عجلة القيادة، نعلقت عيناه، بطيور البلشون . استشعر وخزات الأسلاك الشائكة في أجسادها، وقد تساقطت قطرات من دمها على الزوايا الحديدية المشدودة بينها الأسلاك . ومع ذلك بدت عفوية، وخيل إليه أنها من الممكن أن تطير في أية لحظة .



خرج من المبنى، يتبعه سيناويان . مشى باتجاه طريق ضيقة، موازية للبحر. تأمل التلال الرملية المرتفعة والمنخفضة، وقد نمت في الأغوار بينها، أشجار الموالح . أبصر غورا متسعاً، قصده، وربت يمينه، على ما يحمله من شتلات خوخ، وقد لفها في جريدة قديمة، حماية لجذورها من أشعة الشمس .

لحظ أن السائق يتبعه . التفت إليه، وأشار إلى المبنى قائلاً :
- تستطيع الانتظار هناك لو أردت .

نفي بهزة من رأسه . وفي مكان ظليل، جلسوا جميعاً . شرع السيناويان يعدان الشاي . طاف بنظرة على الأغوار من حوله . طالعته أشجار اليوسفي والمانجو والتفاح والخوخ، تلامس الساحل، كأنها تغار من النخيل، التي اقتربت بعض أشجارها منه، ولمح على البعد أكواماً خرسانية، بينها فجوات سوداء، كأنها رؤوس أشباح، ألهبتها سياط الشمس، وتجاهد في الإفلات من قبضة الأنقاض .

وتذكر كلمة الرئيس السادات، حين أراد الإسرائيليون الاحتفاظ بمستعمرة ياميت، مع أنها تقع داخل حدودنا، فقال «يحرثوها» فنشروا الكلمة في جرائدهم «يحرثوها» . استقرت عيناه على الغور الخالي من

الشجر، وأخذ يتصاعد ببصره على جوانبه، كأنه يقيس أطوالها . قال أحد
السيناويين :

- ستطول المياه الجوفية .

أوماً برأسه ناحية البحر، فاستمر الرجل :
- عذبة

لم يعلق، وتساءل في نفسه : قرية من الشاطئ ولا تتأثر بملوحة
مياه البحر ..!! ناوله الآخر، كوباً من الشاي، أمسكه بين راحتيه، لسعته
السخونة، وضعه بجانبه، وإذا امرأة في عباءة سوداء، فضفاضة، تخطو
نحوهم . ثقلت قدمها، تبسم موزع الشاي وقال :

- أقدمي .. لئسا غربيين .

بان عليها التردد، وهي تستطلعهما، فاستمر الرجل :

- الباشمهندس حمدي ..

توقف وقد تعلقت عيناه به، فأكمل حمدي :

- أبو زيد

ظلت عينا الرجل معلقتين به، فاستدرك :

- آد .. الأخ سعد الدري .. معنا على «الجيب» .

أخذت كوب الشاي من اليد الممدودة، وجلست على استحياء بالقرب

منهم . قال موزع الشاي :

- ندا ستساعد في أرض الخوخ .

تبسم سعد الدري، وهو يتفحصها . تفادت وخز النظرات، مشيرة إلى

الغور قائلة:

- الأرض جاهزة ..

رجع حمدي بضاضة جسدها، رغم عدم إفصاح العباءة . قال :
- المهم الجذور تعض في الأرض .

حانت منه التفاتة إلى سعد . وجده يضفر نظراته مع الخطوط الطولية
الحمراء، المشغولة على صدرها، وعند الوسط خطوط عرضية مضفرة
معها قتلة ذهبية . صعد بنظراته إلى أذنيها الدقيقتين، تدلى منهما قرط في
لون سن القيل، وتلكأت نظراته نازلة على رقبتها الطويلة، فاستوقفها عقد
من نفس اللون والخامة، عاقها عن التلكؤ فوق ما ظهر من نحرها العاجي
الأبيض .

طالته عيناها الواسعتان المتسائلتان، فسقط بصره على يدها الملتفة
حول الكوب. لحظ بضاضة عقل الأصابع، فتيقن من ترجيحه، وأكد
لنفسه أن العباءة؛ لن تحذعه عن حقيقتها . رفع رأسه ناحية سعد، فالتفت
عيونهما في ومضة خاطفة، أفصحته له عن إدراكه لحقيقتها مثله . نهض
حمدي فجأة وقال :

- شربنا الشاي وحمدنا الله .

حمل أحد السينائيين شتلات الخوخ، ووضع الآخر فأسًا على
كتفه، وفي أثرهما نداء، بينما مال على بجذعه على شجرة خلفه، يلاحقها
ببصره ..

خطا حمدي وهو يتساءل .. هل يصح الغرس .. وتنمو الشتلات ..
أم يصاب بالخزي ويكون مادة للتندر تلوكها أفواههم . الأفتدي المتعلم،
القادم من الوادي .. وهناك في محطة التجارب .. سوف تكون خيبته
بجلاجل .

كان السؤال الذي يتردد على الألسنة فى محطة التجارب الزراعية . لماذا خوخ سيناء طرى، ملئ بالماء . إذا أمسكت حبة منه نزعت نصفها بسهولة عن نواتها، كحبة المشمس الناضجة، ويسمونه «خوخ فرك». أما خوخ الرادي فناشف، متخشب، تنزع لحمه عن نواته، بصعوبة تتعب الأسنان أحياناً . ولكن رغم هذه الميزة المحببة فى خوخ سيناء، يفسد بسرعة ولا يتحمل النقل، أو الاحتفاظ به فى ثلاجة .

فكر حمدي أن يهجن الخوخ السيناوي مع الخوخ البلدي . يريد أن يحافظ على حلاوة السيناوي مع إكسابه شيئاً من صلابة البلدي، فيخف ماؤه، ولا يعطب بسرعة. عرض مذكرة بذلك على رئيسه، لتكون موضوع بحثه .

تصفح الرئيس المذكرة بسرعة، وقال متهمكماً :

- بعد أن ينقشع الضباب .. !!

نشعت النكتة التى أوما إليها رئيسه فى ذهنه .

كان السادات، قد وعد أن هذا العام عام تحرير سيناء من الإسرائيليين، وحين انقضى العام دون أن يفعل، تعلل فى حديث له، أن الضباب غطي قناة السويس فى موعد الهجوم، مما عاق قواتنا عن العمل، وشاعت على الألسنة نكتة تقول : ذهب السادات إلى منزله فسأل أحد أبنائه عن الذى حضر، فأجابه آخر : ضا بابا .

وحمدي ينصرف، حاول رئيسه التخفيف من وقع نهكمه .

- حتى لو وافقتك .. كيف نحضر خوخ سيناء .. !؟

لم ينبس حمدي، ربما الرجل عنده حق، كيف يحصلون على شجيرات، أو شتلات من سيناء، والجنود الإسرائيليون يدلون بالسنانير

فى مباء فناة السورس؁ لاصطفاء السمك. وقت الظهيرة؁ ىرتدى بعضهم
ألبسة الاستحمام؁ وىقفزون فى الماء؁ غير عابثىن بنا على الضفة الغربية .
وبىنما هو فى حىرته؁ طالعه عناوىن الجرائد؁ قوائنا عبرت فناة
السوس؁ على مستوى كتيبة. استولت على موقع فى الضفة الشرقىة؁ عدة
ساعات؁ ورفعت العلم المصرى . وأحضرت بعض الأسرى.
داخل محطة التجارب فى الیوم التالى . صاح فى زملائه :
- وحدثها .

أراهم مذكرة؁ ىطلب فىها من رثىسه؁ رفعها لرئاسة الجيش؁ لكى
تحضر القوات العابرة شتلات من الخوخ .
ضجوا ضاحكىن وقال أحدهم :
- قابلنى .. لوردة عليك أحد .
لم يأبه لكلامه؁ ودخل إلى رثىسه .
- ترید أن نضحك الناس علینا
- یا أفندم ..
- فكر فى بحث آخر .

ظل حمدى ساهما؁ طوال بعد الظهر فى بىته . نفسه عازقة عن الطعام .
ألحت علیه شقیقه حمدىة؁ حتى أخبرها . قالت :
- شقیق رثىستى فى الشغل؁ عبر مرة مع قوات الصاعقة .
- نعم .. !!
وبعد أن استوعب كلامها؁ قال :
- فكرك .. ؟
- أحاول

ود لو يتملص من مطاوعتها . لا شك تقصد الشاب الذي تحدثت عن زيارته، عرضاً، لرئيستها صفية صبور . اشتهت من أحاديثها رائحة إعجاب . ولم يخف نفوره، عندما علم أنه ليس حاصلًا على مؤهل عالٍ مثلها . هل تريد المذاكرة، أن تحدثه بما أريد، لتحل مشكلتي، أم لتوثق علاقتي به فأقع في حرج إذا ما طلب مني يدها .
بينما الأيام تمر وهو في تساؤلاته، فوجئ بزيارة رئيستها ومعها شقيقها.

- الأستاذ صفوت .

سلم بيد حذرة .. ولم ينتبه للفة ورق جرائد يحملها معه . عندما رأي ما حوته، جرفه الحماس، وسلم ثانية بحرارة، ودًا، معها لو يحتضنه، وسرعان ما ألجم نفسه .. وجلس غير مصدق .. على أية حال يشكر، ولكنني لم ألتزم بشيء .

وفي الصباح لم يكذب يخطو داخل المحطة، حتى صاح :

- أين أنتم يا أوغاد .. ١٩

تحلقوا جميعًا حوله، وذهبوا في زفة إلى المدير، ما أن رأى شتلات الخوخ، حتى قال :

- يشرع في التنفيذ فوراً

تأمل حمدي الشتلات وقد غرست في الغور، دعا الله في سره أن يشتد عودها . سأل :

- هل ما بقي يكفي غور خروبة .

ردت ندا :

- ويزيد

أشار إلى سعد الدري، ليحضر العربية، وقال :

- بنا

فى الطريق إلى غور خروية، وبالقرب من مدرسة على الطريق، استشعر حمدي، ولا يدري كيف، رهبة شملت كيانه، أشار لسعد بالتمهل.. ثم ما لبث أن طلب منه التوقف أمام المدرسة . فى باحة أمامها، طالعت زهور قرنفلية حمراء، زادت بها أشعة الشمس المسكوبة بناعة. رفع السلك العلوي الذى يحد الباحة، وانحنى بجذعه إلى الداخل، محاذراً أن يمس السلك، تحت قدمه المرفوعة وهو يعبر .

عدة فصول، هي كل المدرسة، نحظ من طريقة بنائها، وحدائث طلائها، أنها أضيفت لحجرة أقدم، منخفضة قليلا .

لم أكد أُلجأ إليها، حتى توافد بعض الزملاء من موقع برج المراقبة تلاحقهم دانات الدبابات، تنوقع انهيار الحجرة فى كل ثانية . خرج أحدها إلى الباحة، عاجلته شظية فرقده مكانه . هذه الحجرة تنع على رأس باحة خلفها مبنى، أطلقوا عليه مركز الإمداد بالرجال . كانت أول مرة أسمع فيها هذا التعبير، أخبرني ضابط صف، أنه عندما تبدأ المعارك، تفقد الوحدات بعضاً من مقاتليها، فيتم استعواضهم من هذا المركز . وهكذا تظل الوحدة بكامل قوتها طوال الحرب .

وعندما لاح تساؤل فى عيني، أردف، طبعاً فيه من كل الأسلحة، مدفعية وإشارة ومشاة .. تبادلت والزملاء، النظرات، وقد اقشعرت أجسادنا . ضابط الصف يتكلم، كأنهم يستغيثون ترائيزة بأخرى، أو كرسياً بآخر . بعد تدمير موقعنا القريب، أسرعنا نحتمي بالمركز، وجدنا الدبابات الإسرائيلية قد حاصرتنا بالقذائف من بعيد .

اقتربت أصوات الجنائزير . وقف أحدها بباب الحجرة، وأخذ يطلق الرصاص من رشاش بور سعيد، فجأة توقف عن إطلاق الرصاص . ظنت عطلا أصاب الرشاش، الذي كثيرا ما كنا نتندر عليه، ونسميه رشاش صيد العصافير، لقله مداه، وكثرة أعطاله، وسقوط خزانته .

وجدته يتزف، سحبته إلى الداخل . لكنني زميل، فرفعت رأسي . وجدت ثلة من الإسرائيليين في الطريق إلينا .

خرج بعضنا بالرشاشات . ومن كان تسليحهم بنادق، ساندوهم من الخلف .

انهال على زملائنا رصاص غزير، من مدافع مكنة سريعة الطلقات، فسقطوا في الباحة، وأخذنا نطلق الرصاص من داخل الحجرة، في مواجهة الأراجلين، حاملي رشاشات عوزي القصيرة .

سرعان ما انسحبوا ونحن لا نصدق عيوننا .. ولم نهنا لحظات .. حتى انهالت قذائف الدبابات . سقف الحجرة المتدني، وبعض النخيل المشور، عاقا وصول أى قذيفة مباشرة إلى مكمننا .

لم نكد نتنبه إلى حلول المساء، حتى سمعنا محركات الدبابات تدور . خمننا أنهم في طريقهم إلى السير .

وعندما سمعنا دوران الجنائزير، تنفسنا براحة، عزت علينا طوال النهار .

صمت بغلف المدرسة، حيث التلاميذ ومدرسوهم في إجازة الصيف، سارقاً منه الوقت، وعيناه لا تفارقان الزهور الحمراء . تسلفت إلى سطح الحجرة للتأكد، وجدت طابوراً من المدرعات، وانجنود يغدون ويروحون حولها . هاتني صغر سنهم، وتورد خدودهم، ولم يهتموا، حتى بوضع

المخوذات فوق رؤوسهم . وفي جانب من الطريق عربة تعيين ضخمة، وبعضهم يلتفون حولها ويتصايحون. وضابط سمين، أو مساعد، لم أفهم ما تعنيه علامنا كتفيه المعدنيتان، تشبهان قرعي شجرة . يهشهم عن العربية، ومجنذات بقتربن، أخذن علب «سفن آب» و «بسكويت» وشيكولاتة. كثر صباح الجنود وتزايد عددهم . خلع السمين قايشه، ولوح به مطارداً، فروا من جهة، وعادوا من جهة أخرى، وهم ينضاحكون ويتصايحون.

كان طابور مدرع بريطاني، قد اصطف بحذاء قناة السويس، ومدافعه في اتجاه بورسعيد . تقدمت دبابة ووقفت في مقدمة أحد الشوارع، التي تصب على القناة . أطلقت عدة قذائف، فتوقفت الحركة في الشارع كله .

كنا مجموعة من خمسة أفراد، تسللنا من بحيرة المنزل، إبان حرب 56، في زي الصيادين وبمعاونتهم، قال قائدنا .. لو أعطبنا واحدة في أول الطابور، وأخرى في نهايته لأصابهم الارتباك ونلنا منهم .

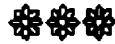
كانت معنا قنابل يدوية، وقنابل «أنارجه» إذا وضعتها بجوار أي جسم تلتصق به . اقترب أحدنا من الدبابة التي أطلقت القذائف، ونجح آخر، مستتراً بالبيوت، حتى اقترب من مؤخرة الطابور، وكمنّا بأحد البيوت المطلة على الشارع الموازي للقناة.

خرج بعضهم من الدبابات، وتجمعوا حول أحد محال البقالة في «الأفرنج» . تخاطفوا المشلجات والشيكولاتة والبسكويت. زحف زميلنا بحذاء الرصيف، وتمكن من لصق «أنارجه» بجنزير الدبابة . واستطاع الآخر القفز فوق دبابة المؤخرة وألقى قنبلة يدوية في فتحة البرج . دوت الانفجارات . تركوا المحل وهروا إلى الدبابات، ورصاصنا يلاحقهم،

حتى انضم زميلنا إلينا . أسرعنا نحتمي بحي المناخ، حيث البوص وعشش
الصيادين، ومياه بحيرة المنزلة .

ارتد ببطء، إلى الخلف يتأمل المكان . لأمس ظهره السلك الشائك
يحد الباحة .. آه .. ليتنى تتبعك سلك التلفون الميداني، وهل كانت هناك
جدوى .. ؟!

هبت ريح طرية، تمايلت معها أغصان الزهور . لم يتل حفيف الريح
من الصمت الذي يغلف المدرسة، وأحس بجلال يملك عليه كيانه، وهو
واقف تحف به الزهور الحمراء .



خطرت في عباؤها السوداء، انحنت على شجرة لوز . حين تمكن من تقدير عجيزتها طار لبه، وكأنما لسعتها نظراته، اعتدلت . قامه فارة، ممشوقة، أبرزت العباءة رغم أنها فضفاضة، حجم ثدييها المتوسطين . شعرها الأسود الغزير، حول رأسها كالحواية . عصيته بمتدليل أسود شفاف، تساقط منه ترتر ملون، يهزر مع جبينها عند كل لفظة . لم يطق صبرا:

- ردي يا بنت الحلال .

فرت من أمامه، وانحنت على شجيرات اللوز القصيرة، تجمع ثمراتها الطحينية اللون . في المساء كعادته، جلس في مقهاه، في آخر الشارع الرئيس بالعريش، ناحية السوق، في ركن بعد عن دوشة التليفزيون، حيث الرواد ملتفون، يشاهدون أحد المسلسلات الأجنبية . أحضر له العامل البوري، وحجرين عامرين بالمعسل . لوح بمصفاة النار، يميناً ويساراً . ثبت الحجر فوق فوهة البوري، كبس المعسل، وضع النار، ونفخ . - شد يا أسطى .

شد الأسطى، فتأججت النار، وسمعت طقطقتها . نظر إليه بعينه، ففهم عنه، وصاح :

- قهوة مضبوط، لزوم الأسطى سعد

مع أنه يسمعه كل يوم، لم يتبه إلى لهجته المملوطة من قبل، وكل ما يعرفه عنه اسمه، العايدي . وهو يضع صينية القهوة على ترابيزته، أمسكه من ذراعه.

- من أين ..؟!

استمهلته لحظات، لبّى طلباً، وعاد إليه .

- دمياط .. عزبة البرج .

لمح التساؤل على وجهه، ما الذى رماك هناك هنا؟! أسرع يلبي بعض النداءات . شد سعد نفساً عميقاً، اشتعلت معه الجمرات، وأطلق دخاناً أبيض، غزا المكان حوله . عاد إليه :

- كنت أعمل مع أبي على مركب صيد سردين، قل انطمي بعد اند العالي، فهرب السردين . باع أبي المركب سداداً للرهن، وسافر إلى اليونان . دنني أولاد الحلال على بحيرة البردويل . لمح العايدى الدهشة على وجه سعد . نزع الحجر، وضع آخر مكانه، نفخ فى الجمرات حتى تأججت .

- ما الذى أتى بي إلى المقهي . عملت فى البحيرة فترة .. سمك الدينس الممتاز، محصوله وفير، وثمنه معقول، ولا تنتظر الطريجة .. فى الحال يتم توزيعها .. حتى جاء الإسرائيليون .

- حضرت 67 .

- استولوا على البحيرة، كأنها ملك لهم من قديم الأزل . ومنعونا من الصيد إلا بتصاريع، وفي أوقات معينة، ومناطق معينة . أحضروا مراكب، وعملوا عبوات من سمك الدينس .. وطائرات كارتير، تنقلها يومياً إلى معانم فرنسا وإيطاليا .

ضحك سعد، وقد أدرك الخلط الذى حدث له . فقد وردت أمريكا لمصر أيام الرئيس كارتير، بعض الباصات، سارت فى شوارع الإسكندرية، وكانت تحدث فرقعات انزعج منها الناس، وكلما رأوا واحداً حذر بعضهم بعضاً : انتبهوا باص كارتير .

- تقصد شارتر .

- أنا عارف .. المهم .. لم أستطع العودة إلى دمياط بخيبتني .. فعملت في هذا المفهى .

تصاعد تصفيق من جوانب المفهى، أسرع العامل .. وسعد يشير إلى البوري.

ليحضر له حجرين . عاد إليه، وقد انشغل أغلب الرواد، بمتابعة المسلسل الأجنبي . جذب سعد نفسًا عميقًا، قضي به على ترده في مفاتحته، وقال :

- عاشرت السيناوية زمنًا ..

- أمرك .

- واحدة .. يعني ..

- سيناوية

أوما برأسه، وهو يتغلب على حيائه، بضبط الحجر على فم البوري .
تفحصه العايدي، وقال :

- ناي .

نظر إليه متعجبا، بينما أسرع يلبي طلبا، وهو يقول :

- ثوان

طلعت علينا الشمس ونحن نتحرك باتجاه القناة .. إذا انحرفنا إلى جانب لا نرى السفن . إذا سرنا في خط مستقيم برزت السفن، وكأنها تسير في الرمال . فلم تكن المياه، تبين للسائرين من الباب الرملية . ضحك أحدهم معلقًا، وقد خيل إليه أنه سمع صوت ناي .

- السفن تظهر على نغمات الناي

قال آخر :

- ثعابين يعني

استرحنا قليلا في حماية الباب الرملية، نمنا نومًا متقطعًا على فترات،

ليلة العاشر من رمضان . تحركنا بعد الإفطار بساعة تقريباً . عند الكيلو عشرة، أحسنا في الجو شيئاً . لكن .. لم يتوقع أحد أن تقوم الحرب . ظننا الأمر لن يعدو لإحدى العمليات . نعتبر لعمل كمين ثم نعود . كعادتنا قبل كل عملية، تصافينا . تركنا عناوين بيوتنا مع جندي في المؤخرة، وأكدنا عليه :

- إذا لم يعد أحدنا أبلغ أهله .

كنت سأقبض جمعية على العيد . تركت القسط مع الجندي، وكان يتولى الجمعية . قلت له :

- إذا مت لا تكون مديناً بشيء .. وإذا رجعت سلمني المبلغ .

نشعت عيناه بدمع خفيف، وعقب وقد هرب صوته :

- فاللله ولا فالك .

اتنابتنا حمى صرف ما بقي معنا من نقود . بعد قليل لن تصبح لها قيمة .

وتساوينا، من كان معه، مثل الذي لم يكن معه . هفت نفسى لبلح رطب .

- ما رأيكم يا أولاد؟

- موافقون .

لبس كل منا سترة الحرب الواسعة، ذات الجيوب الكثيرة، لوضع القنابل والرصاص والسلاح والألغام .

في الصباح مر علينا قائد القطاع، وكان يركب عربة التعيين المحملة بالطعام، حتى لا يشك أحد في شيء .

وكانت التعليمات ألا يظهر في موقع المشاة، أكثر من العدد العادي، وأن يمارس المشاة حياتهم اليومية المعتادة، حتى لا يلحظ الإسرائيليون شيئاً .

في الحادية عشرة، علمنا أن الطائرات ستعبر في الثانية إلا خمس دقائق. بعدها ستقوم المدفعية بثلاث قصفات حتى الثانية وعشرين دقيقة . بعد ذلك نعبّر . خلعنا سترات الحرب، ولبسنا سترات المياه، الفضفاضة، جيوبها محشوة بالفلين . لمحنا القوارب المطاطية مموهة، وشددوا علينا بمنع ظهورها قبل الساعة الثانية . قبل الموعد بساعة، اقترح زميل لنا أن نفتحها، وتساءل .. ماذا يكون الحل إذا فتحناها وقت الضرب، ووجدنا أحدها مخرومًا، وبالفعل وجدنا واحدًا مخرومًا . استبعنا، وأمرني القائد، بإعداد قارب احتياطي كان معنا .

تطلع ناحية النصب، وبه شوق لسماع باقي كلامه . وتعجب لتأخره، خاصة، وقد غرق الجميع تمامًا في مشاهدة المسلسل .
وتساءل : هل سيكون له حظ مع ندا .. وهل من الأوفق إخبارها أنه اقرب من الأربعين أي في مفترق طرق، أم أن هذا بدلا أن يقرب بينهما، يصلها عنه .

أخبرنا القائد بواجبنا القتالي : سنعبّر القناة بسرّيتين من الصاعقة، نمر بجوار نقطة إسرائيلية في الكيلو عشرة ونتفادها نسير مسافة تسعة كيلو مترات، حيث سنبجد مفترقًا للطرق، يؤدي إلى الموقع الإسرائيلي خلفنا .

علمنا من الاستطلاع، أن لهم خمس دبابات وثمانى عربات مجنزرة في الاحتياطي، تهب لنجدة هذا الموقع، إذا تعرض للخطر، واجبتنا احتلال مفترق الطرق، وتدمير هذه الدبابات . هذا المفترق يؤدي إلى الكيلو التاسع عشر، ونقطة التينة والكيلو عشرة . وهذه الطرق مدقات عملتها إسرائيل بعد عام 1971 .

أوما العايدي برأسه أنه حاضر .. هل سيفيد كلامه حقًا .. أم أنه يضعيف وقته؟ هو جالس على أية حال . ولاحت له ندا بوجهها الصبوح، كلما

راها، أحس برجفة، وأن الهواء الذي يتنسمه في وجودها، يجعله خفيفاً، قادراً على الطيران .

ما أن عبرنا، حتى أحسست بالهواء الداخل إلى صدري، يجعلني في خفة الريشة، لم يستمر هذا معي طويلاً .

لمحت قبلة مضادة للدبابات، ملقاة بالقرب من القناة . تلفت حولي، لم أجد من انتبه لي أو لها . تجاوزتها وأنا في عجب من هذا الجندي منعدم الضمير . تجاوزنا المكان . وقفت متردداً، وزملائي ينظرون إليّ غير فاهمين . عدت مسرعاً، التفتتها ووضعنها في حزامي . أم تري زواجي من نداء، يغرزني هنا، ويجعل من الصعوبة الرحيل لو أردت العمل في مكان آخر .

سرنا عدة كيلو مترات، غررنا في منطقة طينية . ظللنا نعاقر في طينة صفراء، مشبعة بالماء، وصلت حتى صدورنا . لم نكد نستقبل الطريق، حتى رأينا الدبابات الخمسة . وزعنا أنفسنا بحيث نحترض الطريق .

أطلقنا مدافع ال - آر - ب - ج . دمرنا أربع دبابات . أصيبت الخامسة في قطاعي في الجزير . رشقنا مدفعها نصف البوصة بالرصاص . احتمينا في جانب من الطريق . انهالت علينا قذائف مدفع البرج . درجة ميل المدفع فوق الدبابة؛ جعلت القذائف تحيد عنا . حاولنا إعطاب جزيرها تماماً . استدارت الدبابة للخلف، لكن مدفعيها موجهان ناحية مجموعتي . مات أحدها وجرح آخر .

زحفت لأحاول نسفها عن قرب . هممت باعتلائها وقد جهزت في يدي قبلة يدوية، فوجئت بمن يطل من فتحة البرج . ألقيت القبلة وفزت بعيداً، انبطحت، وطلقات الرصاص تلاحقني، لا أدري من أين . أحسست بتمزق في وسطي من الخلف، وثلث إحدي يدي . أطل الإسرائيلي

برأسه، ألقيت عليه قبيله بيدي السليمة، يبدو أنها أخطأته، أحسست بعجزتي تماما عن الحركة . كلما أطل ألقى عليه أحد الزملاء قبيلة يدوية . وفي كل مرة يختفي داخل الدبابة، التي بدا أنها عاجزة عن الحركة . تذكرت القبيلة في حزامي، الآن وأنا أجلس هادئا أتساءل : هل كان الجندي معدوم الضمير، أم أنها سقطت منه في اللهوجة ولم يتمكن أثناء الزحف من التقاطها . ناولتها لزميلي الذي زحف إليّ. أخبرته أنني سأشغلهم من الأمام، وعليه أن يقفز على الدبابة من الخلف ويلقيها من فتحة البرج، وهو على وشك القفز، سقط تسريح منه الدماء، لكن القبيلة أصابت الجنزير من ناحيته، ناداني أحد الزملاء، في اللاسلكي، شرحت له الموقف، تقدم، وتمكن من القفز على الدبابة، جاءني صوته يصيح من عزم ما به، وهو يلوح بقبيلة في يده :

- سلموا يا أولاد الكلب .

خرج إسرائيليان، وقد وضعاً أيديهما فوق رأسيهما، لم يكذب يخطو بهما عدة خطوات، حتى زمجرت طائرات إسرائيلية فوقنا، حاولا الفرار، عاجلتهما الزملاء بطلقات الرصاص، فخرا على الأرض . لففت رباط الميدان حول جرحي، بمساعدة أحد الزملاء، لوقف النزيف . حملني زميلان إلى المؤخرة .

نادي أحدهما على الزملاء في الضفة الغربية، حتى لا يطلقوا علينا النار . فالتعليمات المبلغة لنا ونحن نركب القوارب : لا رجوع للوراء على الإطلاق. ومهما حدث فسوف نركب القوارب . إذا انفجر لغم في أحدنا . ولو اضطورنا سندوسه، لكي يستمر العبور . لو طال الرصاص أحدنا في القارب، ستركه ونعبر .. لا رجوع للوراء مهما حدث.

تركاني على الأرض . أتحنس بيدي السليمة، خلف جنبي الأيسر، بعد أن تيقنت من مكان الجرح، أخذت أقدر حجم الإصابة، فتعثرت

أصابني في دم متخثر، أخذت أتخلص منه، بفرك يدي بحبات الرمال .
غادر المقهي، وقد حط الليل .. هل يأخذ بنصيحة العايدي بشأن
النأي. وإذا لم يفلح هل ستكون فضيحة بجلاجل .

طافت البقرة في شوارع الحي، قبل ذبحها، وقد، زينوها بأزهار حمراء
في جانبي رأسها، ووضعوا حول رقبتها عقداً من الفل، تتدلى منه أجراس
صغيرة، ومشى صبيان المعلم بطبول في أيديهم . وأحدهم يصيح على
قرع الطبول :

- بكم يا أولاد ..

فيرد الأولاد، الذين تجمعوا على الزينة :

- بعشرة قروش

وغلب على ظنه أن ما رآه منقوشاً على حجارة معبد فرعوني قريب من
بلدته، هو نفس الزفة، أبدى ملاحظته لمعلمه في التأهيل المهني، حيث
كان يدرس ميكانيكا السيارات، فأخبره أن ما رآه ليس زفة .. لكنهم كانوا
يقدمونها . وإزاء دهشته، قال المعلم :

- ألا تقرأ الجرائد .. منذ أيام نشروا أن بقرة كانت تمر في وسط
عاصمة الهند نيودلهي، وتعطل المرور، ولم يجرؤ أحد على سحبها،
حتى تعطفت، وتحركت بجلالة قدرها .



واربت حمدية باب الشرفة، وتطلعت إلى الأفق . سحاب رقيق أبيض، يفصح عن مساحات زرقاء حيناً بعد حين، سرعان ما تخللته أشعة شمس واهنة فأخذ يشف ويرق، سابحاً ببطء، تعلوه زرقاة لبنية . وبان سموق برج كنيسة مارجرجس، ويدت في موازاتها، غير بعيدة عنها، مثذنة جامع السنين، مع أنها خلفها بشارع عريض .

تلاشت أصداء جرس الكنيسة، وهو ما جعلها تنهض مبكرة، وهي تتساءل.. ياماتر.. ليس اليوم يوم الأحد.. فلماذا دق الجرس . هل مات أحد.. وهل يفعلها أحد في هذا الجو البارد؟!

جاءتها أصوات عربات أجرة مبكرة، من شارع سندوب، الذي تري جزءاً منه، من فوق البيوت غير العالية. هل تستقل عربية، وتقف بعد كوبري سندوب، على الطريق الزراعية، وتستلقط عربية متجهة إلى الشرقية . وربما صادفها الحظ، ولحقت بباص العريش . المحادثة مع حمدي تليفونيا لم تعد تجدي . لابد من مواجهته، ليفهم أنني لست متعلقة بصديقه الراحل عبد السلام، ولن أستبدله بـ «صفوت» .

حاتت منها التفاتة إلى البرج . بدا لها أن الجرس يترنج في هواده، مستهلكاً ما بقي من حركته، ورجحت أن يكون الدق إعلاناً عن عيد أحد القديسين . كثيراً ما لعبت في الباحة أمام الكنيسة، بين الأشجار، يحدها سور كانت بجواره طريق ترابية في جانب منها، عند اقترابها من الشارع المسفلت مقام شيخ، خلفه مقابر المسنين . الآن نقلوا المقابر في آخر شارع سندوب، وتوارت قبة المقام، حيث نهض جامع كبير لجماعة

المنيين . وعجبت من أدب مدني، هل هو حقاً شقيقها الذي تعرفه . ولماذا
أراد أن يسخر، وهو يحكي لها عن مساعدته له في مشروعه،
أنها قدرته، وعندما التقته، أعجبته شخصيته . لكن هذا شيء، وذلك
شيء . عزمه حمدي، بعد حرب 73، وأخذوا يستعيدان ذكرياتهما، كأنهما
يمحوان الأيام التي فصلت بينهما . أوصاها أخوها بإعداد كعكة بالبرتقال
التي تجيدها، وكانت تضحك بينما وبين نفسها من حماس أخيها، كأنه
أحد المشاركين في العبور، مع أنه بقي في الخلف، بل واضطر إلى التقهقر
حين حدثت «الثغرة» .
قال أخوها:

- كان القائد موفقاً، حين عبر بقواته من مرقع فيه أكثر من خمس
مئة حفرة، أحدثها الذنات الإسرائيلية، زنة ألف رطل، ردّاً على إحدى
عمليات العبور، قبل الحرب، ورغم صعوبة تحرك الأفراد والمعدات
والمركبات بين الحفر، أصر القائد، فالإسرائيليون لن يتوقعوا العبور من
هذه المكان بالذات . وهكذا عبرت قوات الفرقة الثامنة عشرة دون خسائر
تقريباً .

- لا تنس، موقعنا في أرض زراعية منخفضة، وموقع العدو مرتفع
فوق منصات رملية، تطولنا نيرانه بسهولة، وحصونه في هذه الجهة من
أقوى تحصيناته .

كادت تغلت منها ضحكة مدوية، وهي تغلق باب الفرن، للهجة التي
يتكلم بها، وكأنه القائد الذي فتح القنطرة غرب .

- هاجم القائد المصري معظم التحصينات من الأمام، والتحصينات
البعيدة من الخلف والأجناب، وبنى خطته، كما لا حظت، على مواجهة
سريعة جداً، بكل القوة الضاربة دفعة واحدة، مع محاصرة المدينة بنفس
السرعة، وباندفاع بقوته الرئيسية .

قاطعها آخرها :

- بالتأكيد كان مشكل القائد المدنيين فى القنطرة .

- بالضبط ..

قالها مطوطة، ثم وهو يضحك :

- كما كان مشكلى تأمين مزرعتك .

وانفجرا ضاحكين .

- وهذا صعب من مهمته، كيف يقتحم المدينة، دون أن يمس سكانها بسوء، وكان أمامه كما تعلم سبعة حصون من خط بارليف، ومسافة المواجهة حوالي أربعين كيلو متراً، ركز قواته وهجومه على حوالي عشرين كيلو متراً، أمام الحصون الأربعة الرئيسية، واقتصر بضرب النيران على النقاط المتطرفة شمالاً وجنوباً .

بدا لحمدي أن نضج الكعكة ميتاً آخر، فأجلت صنع الشاي، واعتزمت أن تقدم لهما القهوة أولاً . دخلت بالصينية، لحظت صديقه منفعلاً، وقد اشتعلت عيناه ببريق، كأنه يرى ما يتكلم عنه .

- هاجم النقطة الأولى والرابعة، وأحاطهما بدرع من قواته خلفهما، حتى يكون فى وضع يتصدى فيه لاحتياطات العدو . وجدت نفسها تهتف :

- شاطر .

- وجعل لدعمه، أعماقاً متتالية، يصعب اختراقها .

أومات لأخيها، ليقدم القهوة . لكنه كان مشغولاً عنها، فأمسكت الطبق بيد، وسندت بالأخرى الفئجان فوقه، وناولت الضيف . حلق فى عينيها برهة، ولا تدري لماذا أحست برعشة .

- تم احتلال النقطة الأولى والنقطة الرابعة، بعد خمس وعشرين دقيقة بالضبط، من العبور بالمشاة والأسلحة الخفيفة . ورفعت الأعلام المصرية .

انطلق أخوها، وقد نألت عينا :

- هذا هو الكلام .

- وبدأ حصار القنطرة بعد خمس وثلاثين دقيقة بالضبط .

تطلعت إليه، وقد عجبت من دقته في تذكر ما تم بالدقيقة . تفهم نظرتها، وعقب :

- لأن بعدها بخمس وعشرين دقيقة، يحين دوري في العبور، وبعد أن كنت مع وحدتي مقدمة لقواتنا بالقرب من القناة، سأكون نظراً لمعرفتي الجيدة بالمنطقة، مؤخرة لقواتنا العابرة لتأمين عودة الجرحى، وتأمين عبور المهمات والإمدادات، والتفت إلى أخيها، بينما يحدث في عينيها :
- وتأمين المزرعة .

أفلتت منها ضحكة خافتة، جاوبها بابتسامة، ووجدت نفسها مشدودة، ولا تريد أن تطاوعها خشية احتراق الكعكة .

-هاجم النقطة الثانية واحتلها، وفي الثامنة من مساء نفس اليوم، السادس من أكتوبر بعد مقاومة شديدة، امتد الحصار من منطقة الشمال، وكان الجانب الأيسر منطقة الحرش .

تناول فنجانه، ورشف رشفات سريعة، قدرت معها أن القهوة بردت، انتبه أخوها فتناول فنجانه، بينما سرحت عيناه إلى بعيد، فخمنت أنه لاشك، يستكمل ما نقص من الصورة، التي رآها، ولم يكن يستطيع أن يلم بكل أبعادها، من موقعه في الخلف، وجاءهما صوته، بطيئاً، متهدجاً :

- بدأ الهجوم الإسرائيلي في الثالثة إلا ربعاً، واستمرت الهجمات المضادة، حتى الغروب في السادسة مساء تقريباً .

هاجم العدو من اليمين واليسار والمنتصف لفك الحصار، وركز ضربة شديدة في السادسة إلا ربعاً على الجانب الأيمن، واخترق الحصار بالفعل .

وضع الطبق بيد متوترة، والفنجان يهتز فوقه . نهضت مسرعة وقد خيل إليها أنها شممت رائحة شياطين، وصوته يلاحقها :

تراجعت القوة المصرية، حوالى ثلاثة كيلو مترات، نظم القائد دفاعاته بسرعة، وعلى أعماق متتالية، حتى إذا اخترق العدو، وقع فى مصيدة نيران فى مساحة عمليات تقرب من ثمانية كيلو مترات .

استمرت المعارك طوال الليل ، عطل الاختراق قدرتنا على عبور الدبابات، وركز العدو على ضرب المعديات، فكان عدد محدود من الدبابات يعبر كل ساعة تقريباً.

أحسّت بصهد حارق وهي تفتح باب الفرن، وكادت تنسى وتمد يدها دون بطاقة لتسحب الصينية .

- لم يفلح الاختراق من الجانب الأيمن، لكن الإسرائيليين استعادوا حصن شمال البلاح، ثم استعدناه، واستمر الموقع مناصفة بيننا طوال الليل. وفي السادسة من صباح اليوم التالي، هجمة مصرية مضادة، واستعادت قواتنا المواقع تمامًا، وتقدمت ثلاثة كيلو مترات بعد أن دمرت ما يقرب من أربعين دبابة، وهرب بعض الناجين بأربع دبابات، لكن القذائف لحقت بها، وفجرتها . لم نكد نهناً، حتى وجهوا ضربة للجانب الأيمن لقواتنا من اتجاه حوض «أبو سمادة» جنوب رمانة.

- آى ..

نهض حمدي مسرعاً . وقف بباب المطبخ . بنظرة سريعة أدرك ما حدث . انفلتت منها البطانة، فلسعتها صينية الكعكة . عاد يهدوء وأوماً له برأسه أن يستمر.

-- وعند الظهر تمكن العدو من اختراق جزء من مواقعنا، لكن الدبابات

التي عبرت طوال الليل أمكنها استعادة الموقف، حتى صباح اليوم التالي، ولم أكن نمت بالمعنى.

قال حمدي :

- ولا أنا

وقال في صوت بجاهد في الوصول :

- ولا نحن

وجاءتها ضحكاتهما . وقد فهمت ما تبطنه، ففرق بين نوم ونوم .

- وجه الإسرائيلون ضربة في خطين . وحذر قائد الجيش الثاني قائد القنطرة: لواء مدرع إسرائيلي يتقدم إليك مع أول ضوء . وجونا أن يكون الاستطلاع قد تمكن حقا من معرفة نوايا العدو . على أية حال انتظرناه عند نقطة معينة، بحيث نفاجئه بقصفة نيران مركزة. وطلب منى القائد أن أكون مع جنودي بالقرب من القناة، متوقعًا ترحيل جرحي كثيرين، وأن أكون مستعدًا بنقطة إسعاف سريعة . واختار القائد موقع قيادته في مكان مرتفع يطل منه على الجبهة . ويستطيع أن يراقب الموقف، ويقدر المسافات .

دخلت حمدي، وهي تؤكد، أن الشاي والكعك، في طريقه إليهما حالاً، بينما كان يؤكد لأخيها :

- آه .. المعركة الناجحة تقدير مسافات مع تقدير موقف .

افتر فمه عن ابتسامة، وركز عينيه على وجهها، كأنه يخصها بها، وقال:

- فوجئ اللواء المدرع بالقصف الشديد فارتبك . ظهرت الطائرات المصرية، وأعتقد تم تدمير ثلثي المدرعات، وكنت من موقعي على حافة القناة، أرى الطيار المصري، بدور ثلاث مرات، كأنما يتأكد من مواقعهم، ويقصف: ويقصف. علق أخوها :

- طبعاً طائرااتهم لم تشترك بفاعلية فى هذه المعركة للخسائر العالية فى بداية الهجوم.

أوماً برأسه وهو يقول :

- بالتأكيد . فشل الهجوم على الجانب الأيمن، ولكن العدو ما زال يهاجم الجانب الأيسر ونجح فى تحقيق اختراق جزلى .
رفع ناظره إليها واستمر :

- وحياتك .. ماهى إلا خمس وأربعون دقيقة، حتى طهرنا هذا الاختراق .

تنهد، كأنه عائد من مشوار، وأخذ راحته فى الجلسة، وشملهما بعينه، وعاد صوته هادئاً رزينا :

- بعدها، يش العدو من استعادة القنطرة، وفي مساء الثامن من أكتوبر، كان جنودنا يسرون بين الأهالى فى الشوارع، يتبادلون الأحضان، وقد اطمأنوا إلى سلامة الناس .

أسرعت إلى المطبخ، أخرجت الصينية . تأملت وجه الكعكة المضىء، وتمتمت :

- صنعة يدي وحياة عيني .



اضطجع صفوت بظهره على كرسي الشاطئ، ومدد رجله . أحس بعدم راحة. نهض ونزع عارضة الكرسي الخلفية، من تعشيقها في قائمي ظهر الكرسي، ووضعها في تعشيقين آخرين إلى أسفل . وجرب الاضطجاع . استراح ظهره مع تقوس قماش الكرسي ذي الخطوط الطولية العريضة، زرقاء وحمراء . مدد رجله في استرخاء، وتطلع إلى مياه بحيرة التمساح الوادعة، الممتدة، عن يمين وشمال، وفي الأمام، تمسح صفحاتها موجات، كقطيقات، لطيفة، مداعة . وتساءل : هل ستأتي حمديّة ١٩٠٠

على البعد، زورق منساب من طرفه، يشبه انسياب خرطة المعوجة من طرفيها. وعكس لونه الأبيض، شمس الضحى، فرأى من خلال زغللة عينيه، فتى وفتاة، والزورق ينزلق في خفة، فهو بالكاد، شريحة من الخشب، لا بطن تذكر لها. وضحك في نفسه، حين تخيل منظره، وهو يسقط من القارب المطاطي، فوق بحيرة قارون. كانت الشدة تعوقه، لكن لا بد من التدريب على العبور بها، وإلا بماذا سيلقى العدو . كان يحمل حزامين، واحد به زمزمتان وقنبلتان يدويتان دفاعيتان، وأخرى بهجوميتان، الدفاعية مقسمة إلى مربعات، تتحول إلى شظايا، كأنها طلقات الرصاص. والأخرى ملساء، ويمكن للمرء أن يلقيها وهو يجري، أو من خلف ساتر. وكان معه كوريك ، وأزميل لزوم جماعته.

قالت حمديّة :

- ليتني كنت معك .

أغرق في الضحك، ولم يستطع أن يتصورها، تحمل حقيقة المهمات،
بقامتها المتوسطة، تميل إلى القصر، مع استعداد للسمنة . وهذا عيها،
كما يرى. فإذا تزوجت وجاءت لوازم الزواج من حمل وخلافه، هل
تبعجر .. ؟!

كانت الحقيقية محملة بالذخيرة . فذائف مدفع آر - ب - ج . وهذا
المدفع

أسطوانتان، تركيب الواحدة في الأخرى، وتوضعان على ما يشبه
مجري، ويوجد تلك لإطلاق المقذوف . وفي الحقيقية ذخيرة رشاش
خفيف، وطلقات بندقية آلية، وطلقات لمسدس يعلقه في أحد جانبيه .
هل كان جذعها البسيط، ينديها الرهيفين، يتحمل هذا الثقل . أم كانت
تضعها فوق عجيزتها وتسندها إلى ظهرها بيديها، وأين عجيزتها .. ؟!
كانت المصالح الحكومية، وطلبة الجامعات والمدارس، يقومون
برحلات لمشاهدة خط بارليف، بعد الحرب .

انندبته وحدته ليرافق بعض الرحلات، التي تزور قطاع السويس،
لخبرته في هذه المنطقة . وعندما أخبرته شقيقته، أن مصلحتها، في طريقها
للزيارة، استأذن قائده، ليكون في رفقتهم، مع أنها لم تكن ورديته . فصفية
قالت للزملاء والزميلات: إنه سيكون معهم، وتوقعوا أن يأخذوا راحتهم
في التجول والمشاهدة .

أخذهم إلى موقع أبي جاموس . هذا المدفع الضخم، الذي كان يقذف
حممه على مدينة السويس .

تحلقوا حول المدفع وتطلّعوا إلى ماسورته .. ونقلوا أنظارهم إلى
صفوت .. في ضعف قامته الطويلة .. وهو الذي من فرط إحساسه بها،
قد انحنت رأسه قليلا إلى الأمام، وبانت رقبته منحنية بين كتفيه البارزتين.
وقاعدة المدفع ضخمة تتحرك على عجلات .

- كيف لم يستطيعوا اصطياذه .. ؟!

أشار صفوت إلى باب ضخيم من الفولاذ، انبعجت إحدى ضلعتيه، من قذيفة مباشرة على ما يبدو . ووجه نظرهم إلى أسفل حيث مجرى حديدي، يسمح بحركة الباب، يمينا وشمالا، وقال :

- حين يطلق المدفع، وقذيفته ضخمة، تشع نارا، من السهل أن نلمحها على بعد عدة كيلو مترات، ونحدد موقعه، وندمره . لكن الذي كان يحدث أنه فور الإطلاق، تنغلق ضلفتا الفولاذ ذاتيا بالكهرباء فلا يلمح أحد وهج القذيفة، ونفس الأسلوب تقريرا اتبعوه معنا في حرب الاستنزاف .

علقت حمديّة :

- بوابات أيضا .

أمسك، وقد أخذته التفشّة، وخفة الدم، والعفوية في الكلام، ضحكوا جميعا .

كشفت الملاحظة عدة مصاطب ترابية، على ارتفاعات مختلفة، مختفية خلف المصطبة الترابية العالية، المواجهة لنا على شط القناة . تطلق الدبابة، وسرعان ما تهرب على منحدر إلى المستوي الأقل ارتفاعا، وتخفي عن أعيننا .

أشار لهم بيده، ليشاهدوا الأجزاء الأخرى من الحصن . كاد يخطئ في حمديّة، وقد انشنت، تتفحص مجرى الباب الفولاذي، كأنما تتأكد من كيفية غلقه بسرعة البرق، وقد التوت فوقها ماسورة المدفع الضخمة، طالعت مؤخرتها، قال: «ياما هنا ياما هناك» وعندما رآها معتدلة، حدث نفسه ضاحكا : خُذعت، أم خُذعني القستان المحبوك .

صعد بنظره إلى أعلى .. شعرها قصير، خفيف، ملتف في أنصاف دوائر للخارج، حول رقبتها القمحية، وقد تسرب نمل من الزغب، من طوق فستانها. رفعت ناظرها إلى ماسورة المدفع الضخمة، المعوجة، التفت إليه فجاء، فلاقي عينيها الدهشتين .

قالت أوبالاجرى، دارت ارتباكاً خفيفاً، وهي فى مشروع ضحك :
- أبو جاموس ..!

أسرع صفوت يمسك إحدى يديها، حيث كادت تتعثر فى الرمال غير
المستوية والحجارة، وهي لا تمكنه منها، وقد علا وجهها عبوس خفيف،
لم يحدث أثره، لإطلالة خفة الدم من عينيها العسليتين الصغيرتين .
قال :

- هذا المدفع، كاد يصيب أهل السويس بالجنون، كان يطلق قذائفه
طوال حرب الاستنزاف قبل حرب 73 فتسقط فوق البيوت، وفى الشوارع،
لذلك أسموه أبا جاموس .

قالت ضاحكة من حنجرة حشوها ملبن :
- أبو جاموس فعلا .

وهي تعبر، مجرى بوابة المدفع، تركت له يدها، وقد أخذه صوتها،
المبطن بحنان مستتر، لا يدري من أين ظهرت صفة . أخذت يدها من
يده، وقالت :

- أبو جاموس .. ولا أبو جلامبو .. !
سرح ببصره فوق الماء، أخذاً فى عمق شهيقة أنعشه .
ينظرون حولهم، فلا يجدون غير الماء . عبروا خليج السويس . لحظ
قائد الطائرة صمتهم . فتح باب قمرة القيادة، وقال :
- لماذا الوجود .. قواتنا التى اقتحمت القناة، حققت انتصارات
كثيرة .

زال عنهم الخوف، بعض الشيء، لكن لم يتبادلوا أي كلام .
خلال الباب المفتوح رأوا الملاح الذى يساعده . تقدم فني الطائرة
عدة خطوات، كانوا قبل آخر ضوء من يوم السادس من أكتوبر، وقال :
- هيا يا رجال

وفتح باباً فى مؤخرة الطائرة . وقف الرقيب متردداً . صاح الفنى :

- هيا يا رجل .. هل تخاف .. ؟

قفز الرقيب، وكان صفوت التالي له، لتأمين مكان الإنزال .
سمع حقيفاً، تلفت . وجد فتى وفتاة يتقافزان، وبينهما لوح خشبي
أبيض، مطوى الشراع . تنهد .. قالت حمدي بصوت مندى بالأنوثة :
- لو كنت في الطائرة .. ؟!

غاص في عينيها، عميقتي الغور . هل هذا الغور هو الذي أغرقه في
بحورها . أم هي النظرة الدهشة التي طالعها في عينيها ، عندما أخبرها،
أنه قبل أن يقفز من الطائرة سمعوا جميعاً صدمة في طائرة على يمينهم،
لكنها كانت دهشة معززة بالإشفاق . كانت الطائرة فوق الخليج، وسرعان
ما اختفت عن أعينهم، ولمحوا في الأفق طائرتين إسرائيليتين . أغلب
الظن من طراز مستير ٦٧ . أغلق الفني باب الطائرة . اقتربت إحداهما
وأطلقت قذيفة، تفادها الطيار بالانحراف قليلاً، ثم ارتفع بسرعة، فلم
تصبنا طلقات الفيكروز، التي أطلقتها الطائرة الأخرى .

امتلأنا ثقة بقائد الطائرة، وشعرنا أننا في مأمن معه . كدنا نتخطى مكان
الإنزال بالقرب من جبال سدر متوسطة الارتفاع، أعلى قمة فيها في ارتفاع
عمارة من أربعة أو خمسة طوابق . توقفت الطائرتان عن ملاحقتنا، طرنا
إلى نقطة التجمع، وبينما عجالات الطائرة تلامس الأرض، فوجئنا بخمس
طائرات تطلق القذائف، وتصيب بالفيكروز الأفراد الذين قفزوا .

قالت حمدي في جزع :

- كنت قفزت .

- لا .. سبقتنا عدة طائرات، كنا كتيبة صاعقة من أربعمائة فرد، وكل
ثمانية في طائرة هليكوبتر .

استردت أنفاسها .. تسير بخطوات وثيدة . فصل الزحام بينهما . تنفست
حولها وقد انعقد جبينها، اقتربت منها إحدى الزميلات :
- مال القمر ماله ..

رفعت حاجبيها الرفيعين، وعلقت :

- بلاهيم

ضحكت زميلتها، وقالت في دلال:

- اتركه لى

عقصت ما بين حاجبيها وعاجلتها :

- «أتلئى» يا بنت

أوصلتهم أقدامهم، وقد تعبوا من التجوال في الحصن وما حوله، إلى كشك قريب في وسط الصحراء . وجدت صفوت في انتظارها وقد أمسك في يده زجاجة مياه غازية، وإلى جواره على حافة الكشك علبتان من البسكويت، تطلعت بامتنان إلى عينييه السوداوين، جفناهما العلويان متنفخان قليلا، في وجهه المذبذب الذقن، والذي يشبه وجه تحتمس الثالث، كما يقول شقيقها حمدي . ويعطي سواد عينييه مع شعره القصير الغزير، الأسود، المتدرج في الانخفاض من الجبهة حتى الخلف .. إحساساً بالألفة لمن يراه . تناولت الزجاجة بأسعة :

- جاءت في وقتها .

تناول زجاجة أخرى من فتحة في الكشك، يقف فيها جندي، يلبي طلبات من تكاثروا عليه . نضحت حبات من العرق على شفتها العليا، جففتها بمنديل ورقي وقالت :

- وعدتني بالغداء عند عيون موسى .

سمعها جندي المقصف، وقال :

- لا تذهبا .. فالإسرائيليون ليسوا بعيدين .

أحسن صفوت بقلقها، وهي تتململ في وقفتها، طمأنها بصوته الخفيض المتأنى، وقد حدثت عليها قامته النحيقة .

أترأها، أخفقت في الحضور .. ؟! لا يدري لماذا وافقها على الذهاب إلى شقتهم في اعرايشية مصر .

حقاً، الشارع واسع، لكن منظر البيوت على جانيه، بألوانها الكالحة، يشبه منظر المساكن الشعبية، فى مداخل المدن، بوحى بالفقر، ولا يخلو الأمر من امرأة تفرش مدخل سلم بيت تنقى أرزاً، أو أخرى تبيع حلوي رخيصة، وأطفال فى حال لا يسر، يصخبون حولها، أو بالقرب منها. هل استخف حمدي بحجتها، عرض بعض الأوراق على رئيسها المريضة، ومنعها، وقد استشف أنها تسعى للقائى، أو أن هذا سيحدث لا محالة .

لو علمت ما بي .. لركبت طائرة .

كانت الطائرة لا تقف تماماً. ما أن تمس عجلاتها الأرض، أو تقترب منها، حتى يسارع بعضهم إلى القفز، وتحلق الطائرة ثانية وتعود، سقطت عدة طائرات على الأرض، كأنما رشقها عملاق بقوة . علموا أن قائد التشكيل مات . كان مصاباً بانزلاق غضروفي، وممنوع من القيادة الميدانية، لكنه أصر على الاشتراك .

وحين حطت الطائرة بقوة، تأثر عموده الفقري، حيث كان فى المقدمة، يشجع الأفراد على القفز .

فتح باب الطوارئ، فى جانب بالقرب من المقدمة، وظل الطيار محتفظاً بمسافة بسيطة بينه وبين الأرض، لا يطمسها ولا يرتفع عنها. بعيل يميناً وشمالاً، حتى يفوت على الطائرات المهاجمة دقة الإصابة . ترددت وأنا قرب الباب . صاح الفني :

- اقفز يا وحش .

لم أدر بنفسى إلا وأنا فى الهواء .

يبدو أن الطائرة كانت فى حالة تحليق بسيط، فاختل توازنى، لست أعى بالضبط ما حدث .. كل ما أعيه، سقطت بقوة على أحد جنبي، وشيئاً، انفجر تحتى بصوت مكتوم، وإحساسى بالبلل .

ضحكت حمدي، وقد مالت زجاجتها، فساقط بعض الشراب على

البنطلون. كان فخذاهما ملتصقين، تقريبًا، وهو يستمرى، إحساساً بالدفء والاحتان، وقد استندا بظهريهما إلى خلفية الكشك، وبحث بعينه عن صفية، فحمد الله أنها غائبة وسط أفراد الرحلة .
- قم يا رجل الماء سال من زمزميتك .

ومد يده لي .

- ظننت ضلعًا كُسر .

نهضت حمدية، وقد احمر وجهها، حين لاح وجه صفية تبحث عنهما، وترددت في شدة من يده الممدودة .

تجمعت فصيلتنا، وسرنا لناخذ أماكننا .

نجا نصف القوة تقريبًا، وتولت أقدم رتبة القيادة، وكان رقيبنا قد أصيب، فتوليت مكانه . وأعيد تشكيل الكتيبة من جديد، احتللتنا قمة جبال سدر، وقسمنا إلى مجموعات، تحتل طوال الليل، وتذهب للراحة نهارًا، مع ترك نقطة ملاحظة. وكان معنا تعيين يومين فقط . وظللنا على هذه الحال ستة أيام .

نظر وراءه، لم يلمح أحداً، وحجب عنه الشارع المبنى ذو الطابقين، حيث تؤجر حجراته للمصطافين، والطلبات تخرج من مقصف على يمين الداخل، وقد بدأت تتوافد بعض العائلات إلى الشاطئ .

هل وقع حادث في الطريق؟ طلبت منها ركوب الباص، ولا داعي لاستخدام البيجو، التي تغرى سائقها بسرعة غير مأمونة . طبعاً نفذت ما في رأسها، ركبت الأسرع، وغير المقيدة بمواعيد .

أم تراها صفية، وهي تعرف بحسها، ولا بد، أنني في انتظارها، قد آخرتها، تشفيًا بي، لأنني لم أصارحها .

هل تستعذب الآن رؤيتها لحمدية، تغلفص، وتبالغ في إكرامها، مدعية عدم الفهم لتعبيراتها غير المفصحة، عقاباً لها هي الأخرى، لأنها لم تخبرها بموعدنا، وإحساسها أن شيئاً يتم من خلف ظهرها .

أم نرى حمدية أخبرتھا، فلا أحد يستطيع أن يتكهن بالضبط ما يدور بين امرأتين، وأن الأمر لا يعدو، قيام صفية بواجب الضيافة، مستكثرة، أن تكون رئيستها، ولا تحتفي بها كما يجب .

هل علاقة صفية، غير المستببة مع حمدي، قد انعكست علينا، وهي نعلم ما بيننا . لا .. لا أظنها تتصرف بوحى من ذلك .
هل أذهب إلى البيت .

لن تتركنا صفية، نعم بالحديث فى خلوة، ليس تطفلاً منها . سوف تجد من غير اللائق أن تترك مضيفتها .

وإذا طلبت منها إعداد طعام الغداء، ستغضب، لأنى لم أطلب مبكراً . وساعتها سأذهب .. وأشتري من أى مطعم، ونكون النتيجة أن تختلى هى بها .

اصبر .. لعلها فى الطريق ..

صبرنا، وفى اليوم السابع، بعد الفجر بقليل، لم نكد نذهب إلى مغارتنا، حتى أنبأت الملاحظة، بقدوم تشكيل إسرائيلى، عربية جيب وعربتان مدرعتان، محملتان بالجنود ودبابتان .

صاح القائد :

- كما كنت .

رجعوا جميعاً، وأخذوا مواقعهم أعلى الجبال، واستعدوا بالرشاشات طويلة المدى، ومدافع الب آر - ب - ج، المضادة للدبابات، ومدافع الهاون .

قال رئيس العمليات :

- تشكيل لجس النبض، لا داعى للتعامل معه .

قال القائد :

- الأوامر، ألا تمر نملة من المضيق .

- نحن في انتظار طابور مدرع من الاحتياطي الشعبي، لنجدة حصون
بارليف على شط القناة .

- استعد .

- أمر سعادتك .

جلس كل منهم خلف مدفعه، وأصابهم على الزناد، في انتظار الأمر
بالضرب. كانت الأوامر تقضي، أن يتركوا التشكيل يمر دون أن تغرق أول
عربة مدي مرمى سلاح أول جندي في المقدمة، وأن يكون آخر جندي،
في متناوله آخر التشكيل، وأن يضرب هو على المقدمة، ويضرب جندي
المقدمة على المؤخرة، وهكذا يحاصرون التشكيل فلا يستطيع أن يتقدم
أو ينسحب .

تسرع جندي المؤخرة، وضرب أول عربة مارة . فتحوا علينا النار،
ففتحنا عليهم نيران جميع الأسلحة . تمكنا منهم، عدا الدبابة الأخيرة،
استدارت هاربة .

أحس بجوع خفيف، وسئم رواح ومجىء عامل المقصف أمامه .
أحد الضباط يمر على موقعنا، يختلس من الطعام، ويشرب مما بقي
من الماء، تدبرت الأمر، وقسمت التعيين على أكبر فترة ممكنة، وكنا قبل
المهمة، نعرف بوجود بشر على بعد ستة كيلو مترات من موقعنا . نجتمع
الزمزميات، وأذهب لملئها يوميًا. عاتبت الضابط فمنعني في اليوم التالي
من الذهاب إلى البئر . ذهبت فاشتكاني للقائد. صارحته بما حدث، فلم
يجازني، وعلمت فيما بعد أنه وبخه، وكلفه بمهمة لا يتحرك فيها من
مكانه .

الثفت، حين خيل إليه أنه سمع وقع كعب حذائها العالي، على بلاط
المشاية، المؤدية إلى الشاطئ .. مدد ساقيه في استرخاء . لم نكد نهنا
بانتصارنا، حتى فوجئنا بالطائرات تدك موقعنا بكثافة . ليست معنا مدفعية

مضادة للطائرات . تكفلت نوء الصخور بحمايتنا، ولم يصب منا سوى
فردين . كنا نحس بالقذائف تنز في الصخور، ثم نخمد كمدا . أما قنابل
الطائرات، فكانت الجبال تمتص عنفوانها، وتفتت النوءات شظاياها .
أنباء الملاحظة عن تشكيل من الدبابات الإسرائيلية قادم من بعيد.
وسرعان ما زامت طائراتهم وألقت ما في جعبتها من قنابل، وأمطرتنا
بطلقات مدافع الفيكرز .

أتراهم يريدون العبور، أثناء انشغالنا بالطائرات . حددنا مواقعنا
وموقع دبابات الإسرائيليين، ونوع الطائرات المغيرة . هلل الجنود، عندما
حضرت مقاتلاتنا، معرضين أنفسهم للقتل . نهرهم القائد .

انتظرنا إفادة الملاحظة، التي جاءت، بعد أن التهمنا القلق . دُمرت
بعض الدبابات، وهربت بعضها، واشتبكت طائرانا مع طائراتهم، ظللنا
في انتظار نتيجة المعركة، حتى خلت السماء من جميع الطائرات .

أمر القائد بسرعة إخلاء مواقعنا، فلا شك أنهم رصدوها بدقة . وأن
نحتل في سلسلة الجبال من الجانب الثاني للمر . جهزنا مواقع جديدة
في الصخر بالأزاميل . خلقت هيلكوبتر إسرائيلية على ارتفاع منخفض .
طلب قائد فصيلتنا التعامل معها، رفض القائد حتى لا نكشف أماكننا
الجديدة . ألقت الطائرة قنابل دخان فوق مواقعنا القديمة، وانشقت
السماء عن مقاتلات إسرائيلية، قصفت المواقع القديمة بالقنابل، وبعد
قليل حومت طائرات أخرى وألقت بالمظليين فوق المواقع، وأخذوا
يطهرونها بالرشاشات . أنباء الملاحظة أن مظليين آخرين سقطوا عن
يمينا . أيقن القائد أنهم يريدون تطويقنا .

هل أخطأت لأنني تركت حمديّة تقابل صفية أولاً . أردت أن تخلص
من مهمتها، ويروق لنا الجو .. وهامى آخرتها .

أغارت الطائرات على مواقعنا الجديدة، ولم تلتفت إلى أمكنة

قنابل الدخان. أحسنا من مرارة صوت القائد فى اللاسلكي وهو يلقي بتعليمات جديدة، إحساسه بالخطأ لعدم مطاوعتنا فى ضرب الهليكوبتر، وأنها خدعتنا بقنابل الدخان، ورصدت مواقعنا وأبلغتها لقيادتها. أمر القائد بتركيز نيراننا على من يميننا، حتى لا ينجح التطويق. وحين تراجعوا، وجهنا نيراننا إلى من احتلوا مواقعنا القديمة. أخبرت الملاحظة عن مدرعتين آتيتين من الشمال.. آه.. فشلوا فى تطويقنا بالمظليين، يحاولون بالمدرعات. أمر قائد فصيلة ال آر - ب - ج بالتسلل إلى أسفل والتعامل مع الدبابات. وأخذ يؤكد على ما سبق أن تعلموه:

تذكروا.. مدى ثلاثمئة متر تكون القذيفة مؤثرة، وخمسمئة متر تبقى طوية.

كان القائد، يخشى لو تعاملوا مع الدبابات من أعلى، أن تنكشف مصادر النيران للمظليين فى المواقع القديمة فى مواجهتهم. فوجئت الفصيلة المتسللة بثلاث دبابات أخرى، تسير بحذر فى جانب من الوادي. دمرت العربتين المدرعتين ودباباتين، وفرت الثالثة، تتعرج فى مشيتها، ولا تبعد عن الحد الصخري فى جانب الوادي، حتى لا تطولها قذائفنا.

أمر القائد، باللاسلكي، وحدة رشاشات، أن تبعد قليلا عن باقي المواقع، حتى لا تكشفها عندما تفتح نيرانها. وأمرها بالتدخل، إذا أطلق المظليون النار لنجدة زملائهم، وأمر الفصيلة المتسللة أن تبقى فى أماكنها بعض الوقت، حتى يتأكدوا من عدم ورود دبابات أخرى. وعندما يتأكد لهم ذلك، يثون ألغاماً مضادة للدبابات فى الجانب الأيسر، الذي أتوا منه، حتى لا يستطيعون التطويق ثانية. فتحنا النار على المظليين أمامنا. وأمرت فصيلتنا بالتسلل إلى مواقعهم.

عندما اقتربنا من نقطة ملاحظتهم، لاح لنا جنديان فى متناول اليد . أطبقنا عليهما فجأة. وأمرني قائد الفصيلة أن أعود بالأسيرين .

زعى قائد الكتيبة :

- من أين أطعمهما .. ؟!

وفجأة صاح :

- أنت .. ؟!

عندما سقط زميلٌ من فصيلتنا جريحًا، عند الهبوط، لم أتركه كما تقضي الأوامر، كان زميلي الذي أنهضني حين تعثرت . وكانت النتيجة أن تأخرت فصيلتنا عن باقي الكتيبة، ولولا أننى تذكرت السبورة الرملية، والمواقع مجسمة عليها، ما أمكننا الوصول . لكنهم حين رأونا نتقدم نحوهم أطلقوا النار باتجاهنا . صاح قائد الفصيلة:

- يا أولاد الكلب .. نحن مصريون ..

استمر إطلاق الرصاص .

- نحن مصريون ..

وظل يزعى حتى تبهم، قائد الكتيبة، كما علمنا فيما بعد: فكفوا عن الإطلاق، ولحظنا لم يصب أحد .

صاح قائد الكتيبة :

- اسمع ..

تطلعت إليه، متوقفاً توبيخًا، لكنه استمر :

- أمن عليهما فى إحدى المغارات .

هبط المساء فوضعوا أجهزة الرؤية الليلية، فى مقدمة البنادق الآلية . وأفادت الملاحظة بانسحاب المظليين . تعجبوا . هل يريدونهم فى مكان آخر .. هل حدثت خسائر عالية بينهم، فأثروا سحب من بقى حيًا؟ على أية حال، لم يضيّع القائد وقته، وأمر بيث الألغام المضادة للدبابات فى الجانب الأيمن من وادي سدر .

لابد من تصيرة، منك لله يا حمدية، أو يا صفية، التفت ناحية المقصص..

حضرت هليكوتر مصرية، وألقت بالطعام . وأخبروهم لاسلكيًا، أن عربية محملة بالطعام والذخائر، كانت في الطريق إليهم، تعاملت معها طائرة إسرائيلية، فدفنوا الطعام والذخائر في مكان حددوه لهم .

مرت عدة أيام، دون أن يروا أية دبابة إسرائيلية . استخفهم شعور بالفرح، لنجاح مهمتهم، وأن القوات التي تتقدم في عمق سيناء برؤوس كبار، لا تهددها أي هجمات إسرائيلية مضادة، من ناحية مضيق سدر . ومع ذلك .. كانت عيونهم طوال الوقت تمسح الوادي ومدخله الشرقي، والجبال حوله خشية أية مباغته .

انبعثت نظرات حمدية، قلقه، وإن نظاهرت بالاطمئنان، عندما احتدم النقاش مع أخيها.

فجأة ضحك حمدي مسترسلًا، فأشعت عيناها بالرضا، قال حمدي :
- وهل ننسى ما قاله بيجن .

جاراه صفوت في الضحك، وقد تذكر ما نشرته الجرائد، عن عرض الرئيس السادات بفتح قناة السويس، خدمة للملاحة العالمية، نظير انسحاب جزئي من سيناء . وصرح عضو الكنيست وقتها بيجن : الأفضل له أن يأخذ « ذكرى »، ونطق اللفظ الأخير بالبولندية، لغته .

همس حمدي في أذنه :

- أعطاهم السادات « ذكره » .

انفجرا ضاحكين، وعيونهما على حمدية.

واسترسل صفوت في الضحك، فقد كان بيجن، رئيس الوزراء، هو

الذي وافق على الانسحاب من سيناء كلها .

أحس بعرق يتخلل الهواء . نفس الرائحة التي أسكرته في موقع أبي جاموس.

عطر الفل الممزوج برائحة عرقها، ماذا في رائحة عرق الأنثى يجذب المرء..؟! وأحس بيديها المنداتين، فأدرك أنها أسرعت في المشي لتلحق به . أحاطت براحتيها جانبي جبهته، وامتدت الأصابع المضمومة جوار عينيه، حتى لا تتحول نظرتة، وأحس بجذعها اللدن خلف رأسه .. والرائحة تدخله أكثر فأكثر .. يحاول التملص دون جدية .. فلا تمكنه يداها .



صعد حمدي الطريق المؤدية إلى البحر، لتفقد بعض الأغوار . عند التقاطع، إلى يمينه حيث الشارع المؤدي إلى بوابة رفح الحدودية. طالعت عربات محملة بالبطيخ وجوز الهند واللوز . من أحجام البطيخ الصغيرة، قدر أنه بطيخ سيناوى . وحين تذكر أن نداء، استأذنت ولن تحضر اليوم، عرج إلى مقهى فى بداية الشارع ليشرّب الشاي . ويستريح قليلا. لفت نظره، أرضية المقهى المنخفضة. وخشب تراييزاته وكراسيه وبابه ونوافذه، تشي بالقدم، تقشر عنها طلاؤها، وحبب فى بعض المواضع، وتغير لونه، بفعل الشمس.

أحضر له رجل عجوز «معم» ما طلب من شاي، قلب بملعقة رفيعة متأكلة الحواف فى كفها . لم يخرط الشاي، وبقي الماء عكرا، أوّما للعجوز، وحين اقترب منه سأله :

- ألا يوجد شاي أكياس ؟

نفى الشيخ بهزة من رأسه .

- أي نوع هذا

- سوزكى

- نعم .. ؟

- من إسرائيل

- أعوذ بالله .. هات قهوة أحسن .

ضحك العجوز، وانفجرت شفتاه عن أسنان مهشمة، سود ما بقي منها

دخان المعسل.

- بورسعيد ملاهى بالبضاعة .. وهناك شاي جيد .

- رد العجوز، وهو يتحاشي عينيه :

- الأولاد يستقربون .

وأشار ناحية البوابة ..

خمن حمدي ما يحدث . فهذه البوابة لا تعبر منها العربات . يعبر منها
الراجلون من أبناء رفح سيناء خاصة، إلى رفح فلسطين .. حيث يعملون
هناك نهاراً، ويبيتون عندنا ليلاً .. وكثير من العائلات مقسمة بين الجانبين ..
وأثناء عودتهم .. يكونون محملين ببضائع مختلفة .

أدار ظهره للشارع، ولم يكذ يخطو في الطريق الرئيسية، حتى مرت
به عربة جيب كالسهم، فوقف مكانه مرعوباً، وكاد يفقد توازنه . لحظه
صاحب عربة يد بالقرب منه، فقال :

- أمريكان .. دائماً هكذا ..

لم يعلق، ولاك في خاطره .. الجيب غالباً تابعة لمحطة الإنذار
المبكر .. يندرون الإسرائيليين من ماذا .. ؟!

وطفا إلى ذهنه، ما سمعه من أولاد، في إحدى حارات شبرا، حين كان
في زيارة لصديق له :

«كنت ماشى فى شارع النجاشي قابلت بنت حلوة، قالت لى :

رايح فين ..

قلت لها :

رايح سينا .. أحرر أراضينا» .

صعد فى الشارع، إلى يساره، بيوت من دور واحد، ترتفع وتنخفض،
تبعاً لارتفاع التباب الرملية، التى تحف بالطريق . وعبقته روائح أشجار
الكروم والنخيل الطالة من أحواشها، والمعرشة على بعض جدرانها .

مختلطة بهواء البحر الرطب، وأحس ناحية هذه البيوت بدفء وحنان غريب .. آه .. لو توافقنى صفية، وتأنى لنعيش هنا.

طالعته صفحة مياه البحر، شديدة الزرقة، أحس لها عمقا ورهبة، وكلما أوغل النظر فى البحر، خال صفحة المياه ترتفع . وأخذ شاطئ البحر زاوية قائمة، ضلعها الأيمن شاطئ فلسطين .

لاحت رُبى عالية، أُقيمت فوقها، وعلى المنحدرات، بيوت متناثرة، تقترب فى خطي وثيدة حتى تكاد تلامس خط حدودنا . وانتصبت أشجار فى المناطق الخالية . فروعها ملتفة حول بعضها بعضاً . أقتننا الإنجليز ردحاً من الزمن، أن سيناء لانصح فيها سوى أشجار الخروج ؟ أين هم الآن ليروا البرقوق والمانجو واللوز والتفاح وما تبعته من شذا، أنعش جو سيناء الجاف . وتساءل : ترى .. هل هذه بيوت إسرائيليين أم فلسطينيين .. ولماذا تقترب حتى تكاد تقتحم حدودنا .. بينما بيوتنا تبعد .. ١٩

وأحس بالألفة نحو البيوت إلى يساره، مع أنه لم ير إنساناً يطل منها، فليست لها نوافذ على الطريق، وأبواب الأحواش، لم ير أحداً يخرج أو يدخل منها . فقط فروع أشجار تطل من فوق حافة باب، أو جدار . لو يلبى دعوة تلك الأشجار الطالة، ويطلق أحد الأبواب .

سار بحذاء البحر، ارتقى ربوة، مظلة على غور إلى يساره . تمنع فى شتلات الخوخ جيداً .. أكثر نضارة .. وفى طريقها لأن يشتد عودها .. عمت نفسه بهجة . ود لو يشاركه فيها أحد .. وتلقائية تحسس بإيهامه موضع الدبلة فى إصبعه .. عندما جاءته دفعة أخرى من شتلات الخوخ، قبل حرب 73، أخبره محمد عايش، أنها مهجنة على برقوق .

- ولماذا برقوق وهو ناعم مثل الخوخ، وملىء بالماء مثله .. ؟
رد عايش :

- جذور البرقوق أطول، حتى يطول الخوخ المياه الجوفية .
لكن حمدي خشى، إذا هجن، هذه الشتلة على خوخ الوادي، أن يفقد

بعض مميزات الخوخ السيناوي، التي يود الاحتفاظ بها . لذلك طلب شتلات غير مهجنة . وقام بزرع شتلة لوز ووضع عليها فرع خوخ سيناوي غير مهجن . وحينما نمت الشتلة، قص باقي الفروع، وترك العود السيناوي على الساق اللوزي، وبعدها، أخذ فرعاً من الناتج الجديد، ووضعه على شتلة من خوخ الوادي، وحين نما، فعل الشيء نفسه وأخذ الجديد، وأكثر منه، وهكذا أفاد من الجذور الطويلة لشجرة اللوز، وخشونة ثمرها .

وكثيراً ما تسأل .. متى تعبر قواتنا القناة .. بطول الانتظار .. هل يذهب تعب هباء .. تستخدم مظاهرات طلبة الجامعة .. تتعجل طرد الإسرائيليين من سيناء . فتتعمش نفسه بالأمل .. آه .. طول العمر يبلغ الأمل .. هل يجدي هذا مع صفة .. أم أن طول العمر في حالتنا .. يوهن العزم ويضعف القدرة والرغبة ..

أيام الأسر، كان يحلوه ساعة العصاري، أن يسحب صفيحة قديمة من المطبخ .. يضعها مقلوبة، بالقرب من الخط الأبيض، المحظور عليهم تجاوزه، في حذاء الأسلاك الشائكة التي تسور المعسكر . ويسرح فيما وراء الثباب الصخرية، التي نمت بينها حشاش ونباتات برية . ومع الوقت مهد قطعة أرض بحذاء الخط الأبيض، وقسمها إلى أحواض صغيرة، وضع فيها هياكل من عيدان الكبريت والورق، تمثل فلاحين .

من يركب حماراً .. ومن يضع غبيطاً فوق ظهر الحمار .. ومن انحنى وقد أمسك بفأس .. وشق ترعة رفيعة حول الأرض . صب فيها الماء بكوب بلاستيكي . تعود الحراس منه رعاية الأرض كل يوم فتركوه . واعتاد زملاؤه أن يسألوه :

- كيف حال الزراعة .. ؟

- متى الربة الشتوية .. ؟

يرد عليهم، بما يريحهم، وعيناه لا تغفلان عن الخبثاء منهم، خشية أن

يخافله أحدهم ويلقي بماء مضمضة الأسنان، المخلوط بالمعجون، في قناته، فيتلف الزرع. كان الصليب الأحمر، بعد طول غياب، قد أحضر هدية من مصر، لكل أسير حربية ورقية، بها غيارات داخلية، وعطرو، وصابون، ومعجون أسنان وفرشاة. وكان من المألوف أن ترى الأسرى، وقد انتشروا في باحة أمام العنابر الخشبية، وإلى جوار سور الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر، مزهزين أمام الحراس بالغيارات الجديدة، وقد أمسك كل منهم كوبا بلاستيكيًا مملوءًا بالماء وفرشاة أسنان، محاولاً إزالة ما تراكم طوال عدة شهور. لم يتخلف عن ملاحظة المزرعة إلا يوم أذاعوا في مكبرات الصوت تسجيلًا، التقطوه، لمحادثة هاتفية بين الرئيس المصري عبد الناصر والملك الأردني حسين. يقول عبد الناصر: أنت تعمل بيانًا.. ونحن سنذيع بيانًا أن الطائرات الأمريكية قصفت مطاراتنا. ظلوا يذيعون التسجيل عدة مرات في اليوم الواحد.. لما يقرب من أسبوع.

ولم يفارق الطنين آذاننا، حتى عند النوم «أنت تعمل بيانًا.. ونحن سنذيع بيانًا» كانت إسرائيل قد دفعت بكل طائراتها، لمهاجمة المطارات المصرية على الأرض، في المطارات شمالاً وجنوباً في وقت واحد. ولم يصدق أحد أن تدفع إسرائيل بكل طائراتها، تاركة مجالها الجوي دون حماية. لكن حاملات الطائرات الأمريكية كانت على مقربة، وأعلنت حالة الاستعداد القصوي في القاعدة البريطانية في قبرص.

تلقت أعصابنا، وأهملت الأرض والزراعة.. ثم وجدت نفسي، ولا أدري كيف، أعاود العناية بهما.

عاد حمدي ثانية، ولحظ أن عينيه لا تفارقان البيوت على يمينه. وخيل إليه أنه سبر كنه ما يشده نحوها. يحس على نحو ما، أنها موعلة في الزمن، وأنها تصله على نحو ما بالقدم.

تجاوز الشارع المؤدي إلى البوابة .. واقترب من ميدان تعاملت عليه طريقان. أحدهما يؤدي إلى العريش، والآخر يؤدي إلى منفذ رفع البري، حيث تعبر السيارات والمسافرون إلى غزة .

هنا في هذا الميدان، أو بالقرب منه، كان مقهى فوقه برج خشبي، وكانت أمامه تلك الباحة . أقام الإسرائيليون فيها معسكراً مؤقتاً لتجمع الأسرى، أو تفوهم ووجوههم لصق الحائط، وشرعوا يفتشون عن أسلحة في طيات ملابسهم، بينما تدوي طلقات الرصاص .

اقترب منه أحد العسكر . جرده من ساعتة وحافظته، وحين حاول سلت دبلة زميل بجواره عصلجت، دق قلبه بعنف . منذ قليل فعلت دبلة خطوبة الشيء نفسه مع عسكري آخر، فما كان منه إلا أن أحضر السونكي وأطار الإصبع بما حملت . انبثق الدم غزيراً . أخذوه بعيداً وسمعنا دوي رصاص .

طلبوا منهم الانبطاح على بطونهم، بينما طلقات الرصاص تدوي فوق رؤوسهم. طارت الحمام من البرج الخشبي مذعورة . أطلق بعضهم النار عليها. تهاوت إحداها، فتعالى صخبهم، وهم يרטنون بالعبرية .



ما ذنبى .. ١٩

أظل واقفاً، حتى ينتهي من فحص الشتلات. ألم يفعل قبل أن يأتي بها،
وكأنما قرأ حمدي ما جال في خاطره: قال :
- حالاً .

واستمر في فحص جذور الشتلات، ذات الجذر الضعيف يستبعدا .
ويضع الشتلات المتجانسة معاً .

لاحت ندا من بعيد، أشار لها حمدي، فقدمت لمساعدته .
لاحظها حمدي برهة، وحين ارتاح لسلامة عملها، تركها وانصرف
يفحص التربة، ويتحقق من وجود ماء، أو رطوبة، من عمق ثلاثين إلى
خمسین ستيماً .
- قعدت .. ٢٠

لم يعلق سعد . وأخذ يتأمل ندا وهي تمسك الشتلات في رقة . وضعت
بعضها في التربة، وضغطت في رفق الرمال حولها .

أحسن بنفسه تهفو لها، وأخذ يتأكد من صدق شعوره، وهو يعجب من
أمره، من فترة وجيزة، كان سيذهب إلى السعودية برفقة امرأة، حصلت
على عمل هناك، ولما كان يلزمها رجل، يعصمها من الفتنة كما يقضى
قانونهم، لتحصل على تأشيرة الدخول، فتد اقترحت عليه الزواج . وإزاء
تردده، لحداثة معرفته بها، سهلت له الأمر.. ليكن زواجاً صورياً، أنا
أشوف شغلي، وأنت ربنا يسهل لك .

حين أخذ رأي حمدي، فزع .

- ليكن سوريا ..

عجز عن كبح غضبه، وقال :

- أما كفانا من السوري ..

لم يفهم سعد سر اشتعال غضبه بهذه الصورة . قال حمدي :

- الفلسطينيون باعوا أرضهم .

رد سعد بتلقائية :

- يستأهلوا ما جرى لهم .

كأنما داس له على طرف، انتفض :

- ها أنت قتلها .. أيام العثمانيين، كان الفلاحون الفلسطينيون، تهربًا

من الضرائب الباهظة، ينسبون أراضيهم إلى أسماء عائلات مشهورة مثل

سرسق وسلام، وحين جاء الصهاينة إلى فلسطين وجدوا الأرض مقيدة

في السجلات باسم هذه العائلات .. وأغلبها مقيم في لبنان، ولا يعلمون

شيئًا عن هذه الأراضي .. فاشتروها .. صوريًا .

ثم ساخرًا :

- ماذا لو قرطستك هذه المرأة .. ؟!

انصرف إلى عمله، بينما أطرق سعد صامتًا، وهو يقول في نفسه : لا

تخف يا باشمهندس .. لن يعطش النبات .

كان أمام القناة، وقد شعر بالعطش . في الحقيقة ليس عطشًا، لكن

جفافًا في الحلق . فجأة عرف أنهم على وشك الاقتحام . جرعة واحدة من

الزمنمية، ولم تمتد يده إلى حزامه الممتلئ بالأدوات والقنابل وطلقات

الرصاص، فقد انطلق الصوت فجأة، في مكبرات الصوت، دون أي اتفاق أو تعليمات :

- الله أكبر .

طغت على صوت تحرك المركبات، وأزيز الطائرات .

- الله أكبر .

و كأن قوى سحرية، قد ركبت الجنود والمعدات، يفتحون، غير عابئين بشيء، كأنهم يحملون رقيات ضد الموت ..

- الله أكبر ..

وفي اليوم الثاني أو الثالث، لم يكن أحد منهم قد أدرك حقيقة ما حدث .

- الله أكبر ..

قال له حمدي مرة :

اقشعر جسدي، ونسيت، زرعى وسنيته .. مليون جندي .. أكثر .. على طول القناة من السويس إلى بورسعيد .

- الله أكبر ..

وبعد أن أفقت، تعجبت، فلم يصب زرعى بسوء .

فعلاً، لحظات غريبة . كنت أنتظر مع كتيبتى دورنا في العبور . جندي، بعلامة حمراء على ذراعه ينظم مرور المركبات إلى المعابر . يشير بهدوء إلى هذا الطابور أن انتظر، ولهذا أن اعبر، ولذلك أن تنحى إلى جانب، بينما القذائف تحول مياه القناة إلى نافورات في الهواء، وعندما عبرت إلى الضفة الغربية، وجدت زميلاً له ينظم المرور، أيضاً، أمام فتحة في الساتر الترابي، والطائرات تحوم من حوله، وطلقات الرصاص تنثر في الهواء .

واختلط عليّ الأمر . هل هو نفس الجندي الذي كان ينظم المرور في الضفة الغربية .

اعتدلت نداء، وذهبت لتأخذ حزمة أخرى من الشتلات. تعثرت، وقد لاحظت أن هناك من يرقبها . أفلتت منها بعض الشتلات. انحنيت في لهوجة، تلتقطها، قبل أن تصل إلى الأرض . وفي لهوجتها، كادت تسقط باقي الشتلات .

نظرت إلى سعد، الذي لم يسقط عينيه عنها . تصاعد الدم إلى وجنتيها، والتفتت إلى الناحية الأخرى .

وتشاغل سعد بالنظر إلى بعض السناوية، على مقربة، وقد شمروا عن سيقانهم وسواعدهم، وانحنوا على الأرض .

على الطرق الزراعية في بحري، خاصة في الشرقية والدقهلية، رآهم بملابسهم الفضفاضة فوق أجسادهم، سوداء وحمراء، تتدلى أقراط مستديرة، كبيرة الحجم من آذان نسائهم، وتحيط رقابهن مشغولات نحاسية شبكية، تحدها أهلة صغيرة متجاورة، تتدلى منها حبات من الخرز اللبني، في الغالب. ويعلقن في خرم من أحد جانبي أنوفهن أقراطاً نحاسية صغيرة . يتسولون حبات من البرتقال والخوخ، رآهم يبيعونها في بعض الأسواق. وفي مداخل المنصورة والزقاريق، كثيراً ما اعترضت سيارته، قطعان أغنامهم ومعيزهم، وهم آحاد في وسطها، يحفزونها على الإسراع، اتقاءً لأصوات أبواق السيارات.

عاد بناظره إليها .. أتراها عشتت داخله .

أمسكت الشتلات بيد، وبالأخرى تحبك طرحة، سوداء حول رأسها . شئ ما علق بكمها الواسع . رفعت يدها إلى أعلى، وهزتها لتخلص مما علق .

رفعت يدي في جنبي السليم إلى أعلى . في محاولة لدفع الدم إلى قلبي . هل أغمي على فترة . لم أنتبه إلا على صوت دبابة تقترب . لابد أن يقترب منها أحدها لمسافة عشرة أمتار . وإلا فإن طلقة ال آر - ب - ج ، ستزلق عن درعها (تعمل سكتوما) .

لم تصبني الدبابة لأنها كانت في المنخفض من جانب الطريق، وأنا في المنخفض من الناحية الأخرى . اقترب أحدها، وألقي عليها قنبلة مضادة للدبابات، لم تنفجر، فمن لهوجته لم ينزع صمام الأمان . زعقت عليه . التقطها وأعاد المحاولة، أصاب الجنزير، وظللنا نضرب بالأسلحة الخفيفة التي معنا للمناوشة، حتى لا يخرج أحد لإصلاح الجنزير، خاصة وموتورها ما زال يعمل .

أشار حمدي له، ليمضيا . وأخذ يعطي تعليماته للعمال بخصوص التسميد وكيفية وضعه، وكان قد أوصي به بلدياً قديماً، وطمانهم أنه قد مضى ما يقرب من العام على تزيير الشئلة (تطعيمها) وأن هذا الجو البارد، يقلل جريان العصارة في النبات وهذا أصلح للغرس .

أعطوني محلولاً ملحيًا ودمًا، وإبرة مصل، وكورامين ونوفالجين . ولم أشعر بشيء حتى صباح اليوم التالي . عندما فتحت عيني، أحاط بي بعض الجنود وهم يضحكون، زادوا من ضحكهم، وتريقتهم . وتعطف على أحدهم :

- كنت مهووساً في نومك .

الساتر الترابي ارتفاعه عشرون متراً . هاتوا المجاديف لنوسع الفتحة . الإسرائيليون هربوا . الإسرائيليون أغلقوا عليهم أبواب الحصون . القنبلة دم د، لم تنفجر .

الدبابة الباتون عاطلة . لا .. ستدوستنا .. حاسب .. ما زالت تدور . لا ..
نحن في رمضان .

يا بنى هذا أمر . الإفطار في الحادية عشرة صباحاً، والضابط أول من
يفطر، الافتحام في الثانية وعشرين دقيقة، القوارب تُفتح في الواحدة
 وخمس وأربعين دقيقة؛ الطائرات في الواحدة وخمس وخمسين دقيقة،
 المدفعية في الثانية وخمس دقائق . لا .. لم نشاهد الطائرات وهي ذاهبة .
 شاهدناها فقط وهي عائدة . ثمانية في القارب ثلاثة في كل جانب، واحد
 بالرشاش حراسة من الأمام، وواحد في الخلف. كل واحد يعرف مكانه.
 وانفجر الجندي ضاحكاً .

- ما الذي يضحكك .. ؟!

- في هوسك لم تنس المواعيد .

وحين انتبه إلى أنه في مستشفى ميداني بالغرب، تلفت حوله باضطراب،
 لا يدري كيف يلحق بوحدته في الشرق . وانتهاز فرصة استشهاد سائق
 دبابة، وتأخر وصول الاستعواض، وقد حان موعد العبور . شفعت له
 خبرته كسائق جرار، وركب معهم.



فى غبشة المساء، تذكر حمدي أنه على لحم بطنه، مر بجوار الجامع العباسى . خُيل إليه أنه لمع سعداً عند الأعمدة القصيرة . أترأه فى انتظار ندا؟ هم بالاستدارة ليتيقن، لكنه خشي أن يفسد عليه أمراً، يكون قد دبره، وأكد لنفسه، أنه لا يمكن أن يخطئه بوقفته المتراخية وقد تقوس ظهره قليلاً فبدأ أكثر نحافة مما هو، وأكثر طولاً مما هو، وأومات رأسه المائلة إلى الأمام بالانكسار . ولكن .. لماذا الانكسار..؟! .. أترأها كعادة البنات اللعوب فى الحضر، لا ترسيه على بر، فأصبح لا يعرف رأسه من قدميه؟

لا .. هى بدوية .. وأغلب الظن صريحة، ومباشرة . والانكسار من داخله هو، لأنه غير واثق بما هو مقدم عليه، أو غير واثق بحبها له .
أياً ما كان، لم يكن هناك داع، لتلك الوقفة الضائعة، عند تلك الأعمدة من قلعة سليمان . وآين يواعدها إذن ..؟! على أحد المقاهى السباحية على شاطئ العريش، ذات النفقة العالية، وتعرض نفسها لأن يراها أحد يعرفها، ويلوك سيرتها العرايشية . وربما منعوها من العمل .

لا ينقصه فى وقفته هذه، إلا أن يمسك عريضة، أو التماساً، ويقدمه لها حين حضورها . قدم فيثاغورث طلباً إلى كهنة معبد عين شمس، ليتعلم فى معبدهم، تركوه عدة أيام أمام الباب . وفى كل يوم يكرر المحاولة، دون أن يأس، حتى سمحوا له بالدخول .

لماذا تركوه واقفاً طوال هذه الأيام، وهم يعلمون أنهم سيوافقون في النهاية؟!

هل أرادوا إعلامه أن الأمر ليس سهلاً، وأن عليه أن يعرف قيمة ما هو مقبل عليه، فإذا عانى من الدل والرجاء، لن يفرط بسهولة فيما يحصل عليه .

أم أرادوا اختبار درجة احتماله جو الصحراء، شديد الحرارة نهاراً، شديد البرودة ليلاً . أتراهم أرادوا تلقينه أول درس، وهو التعود على إيقاع الصحراء الهادئ، وتعلم التأمل . فلا شك أن من بيت وحده في الصحراء عدة ليالٍ، سوف يتعلم التأمل وروية الفكر، وهذا ما يريده المعلمون في الداخل، حتى إذا ما استوي على دكة الدرس، استخدم عقله، وقد اعتاد على الإيقاع الهادئ المتأن، فيفكر جيداً وينتج الحكمة .

لقد أثمر التعليم مع فيثاغورث، فلم يكده يعود إلى بلاده اليونان، حتى أبدع نظريته الهندسية الشهيرة .

وأنت يا نداء، ماذا تريد أن تعلميه؟ إنه رغم وضوحك، وتلقائيتك، لست سهلة .

ولماذا لا تصدقينه على الفور؟ نيتك الصادقة تنطق بها سمرة دقيق السن في وجهه المتناسق الملامح وشعره القصير المفلفل، ونظراته الهادئة من عينيه السوداوين..

زادت زقزقة عصافير بطنه، فعرج على أول مطعم صادفه . فول وطعمية . وراءنا وراءنا . يارب أين المفر ..؟! المهم أن تكون الطعمية ساخنة . جس قرصاً ولا حتى هذه «لا» لن أصبر على هذا وإلا انتهيت . غداً آخذ «الجيب» وأذهب إلى البردويل وأحضر أكلة سمك معتبرة .

وقفت أضراسه عن المضغ، وقد صك أذنيه بيان مهم . قامت مجموعة إسلامية متطرفة، بتفجير عبوة ناسفة فى مقهى بميدان التحرير بالقاهرة . وقد ظهر من التحريات الأولى وجود عناصر أجنبية وراءه .. جلاتك تصدرون بياناً، ونحن سنصدر بياناً . فعلها عبد الناصر، ولكن لم نسمع أن الحسين بن طلال فعلها، أترأه استحي، وقد علم أن الإسرائيليين التقطوا محادثته مع عبد الناصر .

سار صاعداً باتجاه الشاطئ، حيث أغلب الشوارع تصب عليه. وقبل أن يصل إلى الشارع المحاذي للشاطئ الممتلىء بالفنادق السياحية، ذات الشواطئ الخاصة، عرج بيميناً حيث تفرعة مسفلتة، تؤدي إلى ثلة حديثة من البيوت ذات الدور والدورين، أقيمت في مدخل العريش الشرقي، على جزء من الشاطئ العريض في هذه الناحية . استأجر حمدي شقة مفروشة، مع أنها خالية من أي فرش . راغباً في خصوصية . لا تتيحها له الإقامة في استراحة الزراعة، ومقتنياً شعاعات مرتعة لشمعة صغيرة فى أحد دهااليز نفسه .. ها .. من بدري .. ربما تخلت صفيه عن عنادها .. وتحول الإيجار المفروش إلى دائم .. وهو على أي حال، حتى وهو مفروش، أرخص من الإيجار العادي فى أى مدينة أخرى.

مشى بين أشجار الكافور الباسقة بين البيوت، وقد أطلت من بعض أحواشها أشجار النخيل .

يتزل المنحدر المؤدي إلى بيته، فى آخر البيوت، وبعدها مساحة تمرح فيها الخيل تفصله عن البحر .

هل هذه بقع داكنة، أم خاننى النظر، أولى بيته ظهره ولوح بإحدى يديه، لم يلحظ حركة ولم يسمع صوتاً . دق أكثر .

طيور نائمة فيما أحسب، من تعب الرحلة . وهو يدلف من الباب، انبثق في ذهنه.. خيبة أن تكون طيور العجاج .

عليه أن يقوم مبكراً، ويحضر أنفارا الحراسة الأغوار، حقا العجاج ليس له في الزرع، ولكن .. من يدري .. ماذا سيفعل، وهو الجائع بعد طول السفر من أوربا، حين يجد البردويل خالية من السمك ..؟! بالطبع لن يجلس على الشاطئ، مثل الصيادين، وقواربهم، إما مقلوبة على الرمال، أو ساكنة، تترك نفسها، لتلاعب الموج بها، وهو لن يذهب مثلهم إلى المستولين في العريش، للبحث عن حل .. والمستولون ينهونهم عن صيد الزريعة الصغيرة.. ولا بد من الانتظار.. وهل سيستظر العجاج ..؟!

فتح حمدي النافذة المواجهة للبحر، طالعه مياه البحر المعتمعة على البعد، وظلمة مبهمة . صبحا مبكراً أكثر مما أراد . ولكنه لم يركن إلى الكسل ويعاود النوم، وقرر أن يستقبل النهار في جلسته أمام الشباك .. وحتى يقتل الوقت صنع لنفسه كوباً من الشاي، أخذ يرتشفه على مهل .. وفي غفلة منه تسلل الضياء .. وحين لم يجد أثراً لأي طائر، أدرك مدى إجهاده، كيف لعبت به الهواجس . وأي عجاج والشتاء لم يهل بعد .

لم يكد أول ضوء يفرش شعاعه على الدنيا . على قناة السويس وأشجار الكافور والأكاسيا والنخيل، والأرض الرملية الرطبة يفعل ندي الليل . وبور فؤاد الساجية في أحضان الرمال، الممتدة خلفها على مدى الشوف . ولا تكاد تظهر، ملاحاتها البيضاء، التي جفت مياهها بفعل التهاب الحرارة نهاراً، وتلك التي لم تزل المياه تشف عن بلوراتها .

وما زال الضباب القادم من الشمال يتصل بالبحر المتوسط، فيما أطلت رؤوس الأشجار المتناثرة، من طيات الضباب، تنفض عنها نعاسها،

وينحسر الضباب رويداً رويداً، وتظهر الأشجار بجذوعها وأغصانها المورقة عند التقاء المدينة بخط القناة، وتتسرب شعاعات الصباح. تأمل حمدي مياه القناة الزرقاء، خط رفيع في الملكوت حولها.

وتابع بعينه أسراب العجاج الرمادية، المائلة إلى السواد. لا يزعج طيراتها شيء. وما زالت حركة الملاحه في القناة هادئة والمراكب تنتظر في اتساع البحر أمام بورسعيد. وكلما أسفرت الشمس عن وجودها، برزت من البعد والضباب، أكثر فأكثر، ملامح السفن. وظهرت أخرى لم تشاهد من قبل، ويصبح من الممكن، ملاحظة موجات الماء الخضراء الرمادية، يضرب زيدها حواف السفن القريبة من مدخل القناة.

أحس حمدي رعشة غير محسوسة. لماذا لم يذهب العجاج إلى البردويل وهي قرية منه، والسماك يتقاذف فوق الماء. هل تحط تلك الأسراب فوق الشلالات بالقرب من الإسماعيلية. عليه أن يسرع إليها، ويؤجل التسوق من بورسعيد إلى وقت آخر.

طرد الخاطر المزعج، حاول إقناع نفسه أن العجاج في طريقه إلى المزارع السمكية في العبايدة وأم خلف، جنوب الحمينية. لو كنت مكانه.. فلماذا أترك وجبة سهلة، في متناول اليد، كأنما أعدت خصيصاً له. فالمياه في المزارع ضحلة، ويمكن رؤية السمك سابحاً بسهولة، وبأعداد وفيرة.

أم أن هذه الأسراب، غيرت خط سيرها، وفي طريقها لبحيرة المنزلة، بعد أن سهلنا لها مأموريتها، والتي لمستها بأنفسها في أعوام سابقة. لقد أزلنا الحامول، وكثيراً من النباتات المائية، كان يختبئ بينها السمك. وجففنا أجزاء من البحيرة، وعملنا مزارع سمكية عند بحر البقر شمال

القنطرة غرب، حتى لا يعاني العجاج من الجوع وهو فى طريقه إلى بحيرة
المنزلة .

وعاودته قشعريرة .. هل بعد أن يشبع من السمك يحلّى بالخوخ
والموالح فى طريق عودته للمبيت فى سيناء .. ١٩
والشتاء يغري بالسكريات .

لا .. فهى لا تزهر ولا تثمر إلا فى الربيع، وبالتالي لن تجذبه
رائحتها .

ولكن .. لعل بعضها لم تسد جوعتها، فما المانع أن تحط على الزرع .
دارى قلقه، فهى عند عودتها، سيكون الليل قد شمل الكون وطبور العجاج
لا ترى فى الليل .

وماذا بعد أن يقضى على أسماك المزارع السمكية، وهذا أغلب الظن
سيتم بسرعة، تحدثنى نفسى أنه لن يستريح لسمك بحيرة المنزلة . وإذا
صدق هذا فلن تفوته الأشجار من تحته . كان حمدي يعتزم، بعد التسوق،
الذهاب إلى العريش، للاتفاق على الأرض التى ستخصص للشتلات
الجديدة . ما فائدة أن يذهب، ولا تكون هناك شتلات .

احتمال بعيد .. ولكنه قائم .. عليه بالإسراع إلى الإسماعيلية، وتكليف
العمال بإحداث ضجيج عند أرض الشتلات، إذا طار العجاج فوقها .
أحتاج بنادق صوت . أكتب مذكرة . وحتى نكتب، وحتى يوافقوا،
يكون العجاج قد قضى على الزرع .

استخدم ما لديك . الدق على قعور الصفائح القديمة . تشغيل عربات
الجيب، وعمل دوريات فى غُدو ورواح .
فُتِح أجهزة الراديو على الآخر .

فى الطريق إلى الاسماعيلية، استشعر ضيقًا . سيقابل بسخرية، واتهام أنه يحبكها أكثر من اللازم. عليه أن يتحمل .

فى مديرية الزراعة فوجئ بما لم يكن فى حسبانته :

- هذا عمل المعتمين بالبحيرات والسملك، أنت مهندس زراعى .

تذرع بما وطن عليه النفس من هدوء . ولحظه وجد استجابة من العمال، فأوصاهم بما ينبغي عمله، وقرر أن يذهب إلى العريش قبل انتهاء النهار، حتى لو تأخر عن الموعد الذى حدده لهم فى الإشارة التليفونية . فضل عبور القناة من المعبر، عند الصالحية اختصاراً للوقت . وجد صفًا من العربات أمام المعدية . نزل، ليشرب شيئًا مثلجًا، يطري على معدته . رفع الزجاجاة إلى فمه . طالحته سماء لبنية صافية، سرعان ما ظهرت عليها بقع رمادية وسوداء .

أسراب من العجاج . تحركت المعدية، وقد أخذت كفايتها من العربات. خمن أن الدور سيصيب عربته فى المرة القادمة . أبطأت المعدية فى عرض القناة، متيحة لناقلة نفط قادمة من الجنوب، المرور، أطلقت الناقلة صفارتها، تنبيهًا وتحيةً .

أسقط سرب من العجاج، كان يعبر فوق القناة، أكياساً جوار معدته يخزن فيها السمك . سقطت قذائف العجاج، فوق المعدية، وحولها فى الماء، والناس يتصايحون. تساءل حمدي . هل سقطت الأكياس، وقد انزعج السرب من صفارة الناقلة، أم أن طعم السمك فى بحيرة المنزلة لم يعجبه، حيث يصرفون فيها ماء المجاري . وتطلع السرب إلى وجبة نقية من بحيرة البردويل، حيث لا صرف صحي، أو زراعى .

أم أن الحمل الزائد يعوقه عن الطيران بسرعة، وخشى أن يدهمه

الظلام، قبل أن يصل إلى يغبته . لكن .. لماذا عادت طيور المعجاج مبكراً،
ولماذا لم تلق باقى الأسراب حملتها. لعل الأسراب الأخرى لم تقرب
أسماك بحيرة المنزلة، وهنأت بأسماك المزارع السمكية .
مرقت الناقلة باتجاه البحر الواسع . وانسابت المعديّة فوق الماء إلى
الشط الآخر.

أكمل حمدي زجاجته . وأنعشت وجهه نسيمات طرية، من فوق مياه
القناة، بها نقاء، لاشك قادمة من فوق رمال سيناء .

صعد الباص الذى يستقله حمدي إلى المعديّة . هل يلتزم العمال
بوعدهم، ولا يغادرون الأرض حتى أعود .

على أية حال، لا داعى للانزعاج، المعجاج أدى مهمته، وفى طريقه إلى
سيناء. ولكن .. إذا لم يفعلها اليوم .. قد يفعلها غداً .. مع أول ضوء، يطير
عائداً، إذا كانت المزارع السمكية قد نفذ ما بها، وسمك بحيرة المنزلة لا
يروقه ..

أزاح ستارة النافذة، التماساً لضوء الأشعة الغاربة، لمع أسراب
المعجاج. تسابق العربية .



عزمه على الغداء .

هل حدث منها شيء، أعطاه انطباعاً باهتمامها بهذا الشاب . هل صدر عنها ما لم تتب له . هل تمادت بحسن نية، وظن أحدهما، أو كلاهما، أنها نعتى شيئاً .

بنت .. تلعين على من .. ؟! .. لا والله .. لا يكون قصدي . ربما .. جزء في النفس عابث، و لا يعني أكثر من التذلل . ربما يحكم المزاح، وأتمادي .. ولكن .. هل يصدقني أحد .. دون تعمد مني، فإذا ما لمحت ظلاً، يوحى أن الآخر، أخذ الأمر على محمل الجد، يتوقف، تلقائياً، كل شيء . وكثيراً ما لمت نفسي، ووعدتها بعدم الرجوع إلى ذلك ثانية .. لكن، يحدث، أن أجدني متلبسة، مرة بعد أخرى .

قال : رفعتا العلم . تلاقى كفى بكفه، انتشاءً، لكنني لم أقصد .. لا تقصدين . هل لمس الكف الدافئ، وإزالة الكلفة بسرعة، تركاً أثراً في نفسه . أم هي نظراتي دون أن أعني . عندما سمعت الإطراء، فور رؤيته للكمكة، عرفت مما انعكس في عينيه، تجاوبه مع نظراتي الفرحة، المتشبهة، لكن هذه النظرات، شيء طبيعي بالنسبة لي، حين يمتدح أحد عملاً لي . فإذا كان هو، أو أخي، قد فهم شيئاً لا أعنيه، فهذا شأن كل منهما .

لكن .. لماذا عزمه على الغداء .. ؟ .. هل ليتيح لهما فرصة تكرار اللقاء، أم توثيقاً لعلاقته به . وأين ذهب كرهه للضباط . كثيراً ما صرح لها أن الغباء أنواع، أشده ضرراً: غباء العسكر .

وفجأة أنبثق خاطر في ذهنها، وقد استعادت لون الكمكة النحاسي، المضيء، يشبه ما يحدث لجسد الإنسان في المصيف، حين يتعري للشمس، ويلفحه الهواء النقي المشبع باليود، وقد تحرر من الرداء، وانطلق على سجيته فوق الرمال، وقد تفتحت المسام للنشوة . ولعل هذا سبب قصص الحب الكثيرة، التي تنشأ في المصيف، وتنتهي بانتهائه، وقد زال الأثر الساحر . وما هو بالحب لكنه الإعجاب، وتوق الجسد للتماس في رحاب الطبيعة . هل يكون ما حدث في حرب 73، ترك أثراً مشابهاً في النفوس . الإعجاب بما صنعه الجنود، يجعل النفس تتوق لحب أي شخص تلاقيه منهم، فما بالها وهي التي تابعت ما فعله هذا الضابط لأخيها، وسماعها من شخصه لما فعله في المعركة . ولعل هذا ما جعل أخاها، يتناسى رأيه القديم في العسكر، ويدعوه إلى بيته . أم تراه غرض الطرف عما يعتقد، وقد وجد فيه عريساً لقطعة، خاصة وهو لا يميل إلى صفوت . أو لعل حقاوتها به، فعلت فعلها في نفسه، وأمل أن تتطور لما هو أكثر .

كانا، ما زالاً، يتحدثان عما حدث في القنطرة . وتساءلت في نفسها.. هل كلما تقابلا لا تغادرهما هذه السيرة . وهل سيحكم عليها بسماعها (عمّال على بطل)، دون الحديث في أمور أخرى.

قال عبد السلام :

- لم يتركنا الإسرائيليون نستريح لحظة واحدة بعد فتح القنطرة، كما تعلم، شنوا هجوماً في الشمال من الإسماعيلية . هاجموا من اليمين واليسار، واخترقوا من الوسط، وحدث تنوء أمام كوبري الفردان، وتمكنت دبابة من الوصول إلى مسافة كيلو متر واحد منه . وجد قائد الجيش الثاني الموقف خطيراً . لو نجحوا سيصلون إلى الإسماعيلية.

دفع بقوات جديدة من الغرب وطلب من قوات القنطرة شرق التقدم وتوجيه ضربة إلى جنب وظهر الدبابات التي تقوم بالهجوم على الجانب الأيسر للفرقة الثانية. ثلاثة أيام كاملة .. كادت أرواحنا فيها تطلع .. حتى أمكن رفقهم .

قال حمدي :

- هم استردوا أرواحهم، وأنت بدأت تفقد روحك .
- تقول فيها .. أعطيت جنودي طباشير أبيض، وأمرتهم بوضع علامة X على الدبابة التي يفرغوها من الجثث، وطلبت قوارب إضافية لنقل المصابين إلى الغرب، وكنت أمسك قلبي بيدي، خشية مزيد من الجرحى.

- لماذا وقد توقفت المعركة .

- ياسيدي .. دمروا موقع القيادة في القنطرة، ورفض القائد تغييره، رغم أنه خطأ عسكري . وأصر على الوجود به، لرفع روح الجنود المعنوية، غير أنه لظهور صواريخ جديدة، لم نرها من بداية القتال . صواريخ سمات، ومافريك جو أرض، والصاروخ الأخير، لم يستخدم، من قبل، ويخترق دروع الدبابة مهما كان سمكها .

ضحك حمدي .. واسترسل في الضحك .. ولم تجد إشارات عبد السلام بيديه لإيقافه .. ولكن زغرات حمدي قطعت استرساله .. ووجد نفسه، ملزماً، بالتوضيح :

- في الوقت الذي لم تخفت فيه أصدقاء المعمارك، والأمريكيون يزودونهم بآخر جيل من الصواريخ، خرج السادات بعد أول لقاء مع كسينجر، إلى المؤتمر الصحفي، مبتسماً بادناً كلامه بـ « صديقي هنري » فأصاب الناس بالدهشة والذهول .

ضحك عبد السلام، واسترسلت معه حمدي، وقالت منيظة أخاها :
- هو صديقه .. لماذا أنت زعلان .. ؟!

تجاهل عبد السلام ملاحظتها، واستمر :

- ورغم ذلك تمكنا من الوصول إلى الطالية، وطوقناها، وسيطرنا
على ثلاثة مواقع، والتحمتا مع قوات الفرقة الثانية، وكونا رأس كوبري
الجيش .

قال حمدي بنبرة تقريرية :

- وحق عليكم التقاط أنفاسكم .

- أبدأ .. فمعركة الطالية ظلت تتجدد حتى يوم اثنين وعشرين
من أكتوبر . هل تتصور أن قائد القنطرة كان يقوم بجولات استطلاعية
بنفسه، ومعه طواقم صواريخ، ولا يترك ذلك لضابط صغير، وفي إحدى
هذه الجولات، استولى على دبابة أمريكية المصنع، اتضح من عدادها أن
المسافة التي قطعتها، لا تتجاوز المسافة من العريش إلى القنطرة غرب ..
ومعنى ذلك أن الأمريكيين أحضروها من إحدى قواعدهم وأسقطوها
مباشرة في أرض المعركة .

جهم وجه حمدي .. لماذا لم تتجدد معركة العريش .

وصلت القوات الإسرائيلية بسرعة إلى العريش في أول أيام الحرب ..
منتهزة ما ساد من هرجلة في الأيام الأولى من يونيو 67 .. قوات تتقدم إلى
الأمام .. مدرعات تنسحب إلى الخلف .. إقامة حفر، تم تركها والتقدم
إلى مواقع أخرى، تحميل المعدات وفك أجزاء المدافع ووضعها على
العربات، وصعود الجنود في لهوجة معها .

كان المعتقد أن إسرائيل ستضع مجهودها الرئيسي على المحور
الجنوبي، الكونتيتلا العريش، فحشدت مصر أغلب قواتها على هذا

المحور. ثم جاءت معلومات أن إسرائيل ستركز مجهودها الرئيسي على المحور الأوسط، الحسنة سدر الحيطان، حتى لا تكرر ما فعلته في عام 56. وكانت تقارير المخابرات تؤكد اهتمام إسرائيل بمنطقة إيلات والجنوب. وتوالت تقارير تفيد عن نشاط إسرائيلي في النقب الجنوبي. وأكدت مخابرات العريش، عزم العدو على الهجوم من الاتجاه الجنوبي. ارتبكت القيادة المصرية .

وفي الخامس من يونيو، كانت أرتال الدبابات تقتحم المحور الشمالي، وتزحف على الطريق الساحلي إلى العريش، غير ملقية بالآ تصريح الرئيس الأمريكي بضرورة ضبط النفس .
- ها .. أين سرحت ..

قال بصوت مفعم بالمرارة :

- دباباتنا حملناها على قطار العريش من رفع إلى الخلف قبل بداية الحرب مباشرة. وبعد قليل، كأنه يحدث نفسه :
- لو احتفظنا بالمرات، حيث الطريق ضيقة، ملتوية، تحيط بها جبال صخرية وعرة .

قال عبد السلام :

- تقصد لو وصلنا إلى الممرات .. طبعاً لتغير الوضع .. من يسيطر عليها، تنفتح أمامه الطريق حتى تركيا .
سمعوا دمدمة جرافة . أسرع حمدية إلى الشرفة، وعادت :
- يبدو أن عساكر شرطة المرور يزيحون عربات من ميدان الشيخ حسين ..

غطى حمدي وشقيقته آذانهما بأكفهما، وحين أصبح ممكناً الكلام، قال عبد السلام ضاحكاً :

- لا صوت أحلى من صوت الدبابات العابرة .

وقال حمدي :

- لماذا لا يحضرون ونشأ بدلاً من هذه الجرافة المزعجة .

ضحكت حمدي :

- قال يعنى الونش أخف

رد حمدي :

- على الأقل .. صوته مكتوم .

قال عبد السلام :

- لعنة الله على الصوت المكتوم . دبابتان برمائيتان غرقتا في الماء،

لم نتبه لارتطامهما المكتوم، لولا أن نبيها أحد جنود الحراسة على حافة

القناة، فأسرعنا نبحث عن ونش ينشلهما .

قالت حمدي :

- ارفع .. يكون ونش البلدية .

ضحكوا جميعاً، واستمر عبد السلام :

- لم يكذ الونش يعبر فوق الكوبري، حتى أصابت الوصلة أمامه، قذيفة

مباشرة، حمدنا الله أن الونش عدى منها، لكن .. لا بد من تبديل الوصلة .

احتياطي قطع الكوبري مخبأ على الشاطئ الغربى . أرسلت إشارة لتحويل

سير الونش إلى الكوبري الخاص بالفرقة، بينهما خمسة كيلو مترات .

واستدعيت المهندسين لإصلاح مرسة الكوبري المعطوب، عند

شاطئ سيناء، حيث غرقت الدبابتان . وكان قائد القنطرة، قد طلب

جنوداً من الفلاحين، لتسوية الأرض أمام المرسة، وأن يكونوا تحت

مباشرتى .

رد عليه قائد الفرقة :

- تريد عمل تنظيم خاص بك، يتولاه النقيب عبد السلام فاروق ..
نلقها ونظر إلى حمدي، وعلت ضحكاتها، وشاركت حمدي
مناخرة.

قال حمدي :

- الحمد لله .. ليست لي صلة بقائد القنطرة .

رد عبد السلام :

- ولكن .. لك صلة بي

أغرق حمدي في الضحك، وهو يقول :

-وسرعان ما يربطون المسألة .

قال عبد السلام :

- خبرهم قائد القنطرة بنفسه . كنت معه أثناء حرب الاستنزاف «ملازم

أول» مرة استمر الضرب على مواقعنا أسبوعين متواصلين، ومرت معه
تفقد الجنود. سأل أحدهم :

- ألسنت خائفًا؟!

- الرب واحد والعمر واحد .

وعند اقتحام أحد الحصون، انفجر لغم في فرد من المهندسين، لو
تراجعوا سيكونون هدفًا سهلاً لمدافع الحصن . فوجئ بالجنود الفلاحين
ينامون على الأسلاك الشائكة، وزملاؤهم يعبرون فوقهم، ويقتحمون
حقول الألغام، والقذائف تسقط حولهم.

خرجت حمدي، في خفة، لتطمئن على أمها في الشرفة، وهي ترد
في خاطرها سيفلان يقولان ويعيدان . تطلعت إلى الأفق . لاح لها برج
كنيسة مارجرجس المخروطي، المضلع في انسياب، وتلاشت ملامح
قمة الصليب المعدني في وهج ضوء الضحى، وبانت شرفة مثذنة جامع

السنين متكئة عليها، وقد علتها شرفة ثانية، والمثدنة، عودها يستدق، كأنها مسلة فرعونية، كلما ارتفعت، حتى أصبحت قممتها نقطة، فوقها هلال أخضر كاد لونه يضيع في الزرقة خلفه .

- جهزت الأكل .

لم تلتفت إليها .

- اسمعي يا ست ماما، حمدي يجلس مثل الباشا يسمع حكايات، وأنا

يطلع عيني في المطبخ .

- يا بنت خلّي عندك خشية .. عندنا ضيف

ردت في عصبية:

- ضيفه هو .

وتركتها، دون أن تلتفت . نزلت إلى الشارع . تحطت ميدان الشيخ حسنين، وتركت سوق الخضراوات عن يمينها، وسارت قدماً .

لن أقرف نفسي بإحضار لحم وخضراوات، وأظل طوال النهار، أجهز .. كفتة، ومحشياً من ورق العنب والكوسة والفلفل .. لا .. كيلوان من السمك، أشويهما في أي فرن، ويتغض المولود . وسبق أن نهت أخي إلى ذلك، استنكر، لأن ضيفه مقيم الآن في بورسعيد، والسمك أسهل أكلة عندهم، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا . ولتكن بورسعيد، والسمك أسهل أكلة عندهم، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا . ولتكن هذه رسالة إلى أخي، حتى لا يعزمه ثانية .. وإذا أراد .. فعنده المطاعم . ورسالة له، حتى يعرف أنني لست مهتمة به بشكل شخصي .

وصلت إلى شارع بورسعيد، حيث المحال التجارية، تراجعه كنيسة مارجرجس، وتجاوز جامع السنين، بامتداد الشارع، وتعرض مقتنياتها من الملابس الرجالي والحريمي وأدوات الزينة والأقمشة .

ماريوكا .. أراهن بديني وأيماني، أن يدلني أحد على معني لهذا الاسم، ربما كانت مايوركا .. يخیل إلى أنها اسم مدينة أو ما شابه . فري ستیل .. ستیل وعرفناها .. أسلوب .. وفري .. هل بمعني حر .. الأسلوب الحر يعني .. أم أن المقصود بمعني جداً .. فتكون تجاوزاً الأسلوب الذي على آخر طراز .. أي طراز هذا وكلها من ألياف صناعية، تسبب حساسية للجلد، وتصفر كلما نزعها الإنسان عن جسده .

نوفوتيه .. بوتيك . هل سينشكون في ألسنتهم لو قالوا .. محل كذا ومحل كذا .. ستر آسيا .. يعني .. لو قالوا مركز آسيا .. ماذا سيجري . وهل اختفت الحروف العربية، أو عز الحصول عليها حتى يكتبوها بحروف إنجليزية . وحل في استطاعة كل العابرين قراءتها .. حکم ... ترى جولييه .. خلاص .. أصبحنا فرنسيين .. كم سائراً في الطريق سيعرف أن معناها حلو جداً، أم أن المعنى ليس مهماً، المهم وقع الكلمة الأجنبية، عند ترديدها .. لا .. لا يصحح .. ستكون العزومة في وجوهنا غير لائقة .

عرجت إلى شارع ترابي بجوار الكنيسة، يفضي إلى سوق الخضراوات من الخلف، وعلى ناصية السوق جزار . سارت عدة خطوات .. رجعت أن تكون فري بمعني حر . وعادت، لتلف خلف عمارة الشيخ حسنين، في وسط الميدان، في طريقها إلى سوق السمك .
وضحكت وهي تردد .. خيبة لو كان يحب السمك .

عندها تكون الرسالة موجهة إلى أخي، ويستطيع هو أن يفهمه بصنعة لطافة . تريد محشياً . حاضر، عندنا باق منذ أمس محشي كرنب . يا خبر . لقد نسيته في حلته على البوتاجاز، ولم تسك عليه في النملية . وخشيت أن تكون أمها عثرت عليه، وبدأت البلبة غير عابئة بنظامها

الغذائي . وتذكرت يوم صنعت الكعكة، وكان هذا الضيف موجوداً أيضاً، ونزلت لشراء فاكهة، وحين عادت أحست بجو غريب في المطبخ، وفجأة انتهت.. الكعكة .. أسرع إلى الشرفة، حيث جلست أمها في الشمس ترمم عظمها، وحين هربت بعينها منها، تيقنت من صدق ما توقعته .

- هات

وكانها لم تسمعها، سرحت بعينها إلى الأفق.

بلهجة منذرة :

- ماما ..

بنصف ضحكة :

- مالك يابنت .

- لا تعملها عليّ

كانها تنفض ملابسها :

- فتشيني .

تطلعت حولها في الشرفة، لا أثر لشيء، ومع ذلك هي متأكدة من فعلتها. فجأة صاح بائع جوال :

- الله أكبر .

نظرت، فوجدت الرجل قد أمسك بكيس بلاستيكي، وفي يده قطعة من الكعك. تجمع حوله بعض المارة، أخذ قسمة، وأعطى كلاً منهم على قدر ما قسم، وهم يضحكون.

أدركت حمدي ما حدث، أخذت الأم قطعة من الصينية، وتسلفت إلى مكانها في الشرفة، وحين أحست بوقع قدميها، ألفت المشابك من كيسها البلاستيكي ووضعت فيه ما بقي منها. وفي لهوحتها وهي تعلقه، على حبل الغسيل، ألفت من المشبك.

تطلعت أسفل كرسيتها فوجدت المشابك، تداريها بقدميها . أرادت أن تزعق فيها حتى لا تكررهما . ولكنها توقفت أمام نظراتها المنكسرة . محرومة من معظم الأطعمة .. هذا للسكر .. وهذا للضغط، وهذا لا تتحمله المعدة . حتى أصبحت جلدأ على عظم، اكتفت بإنذارها .
- أنت حرة .. مضاعفات السكر .. صعبة .

- يا ستى ..

اغناظت، وأردفت، ملمحة إلى شغفها بالمسلسلات التليفزيونية :

- تؤدي إلى العمى .

تحيرت حمدية .. هل تسرع إلى البيت لتلحق بأمها، خشية وقوع المحشى بين يديها، أم تذهب لشراء السمك وشيه أولاً؟ تطلعت إلى ساعة يدها، وأسرعت لتلحق بالسمك طازجاً، وهي تدعو الله أن يسترها مع هذه الست المتعبة .



اقتعد حمدي الأرض . وركن بظهره على جذع شجرة أكاسيا، ومدد
ساقيه . سرح يبصره إلى زرقة البحر العميقة . هل يزرع باقي الأغوار
المخصصة للخوخ الآن. أم ينتظر نتيجة ما غرسه . فضل الانتظار .

وضع أحدهم حمارًا من طين، في حوض من مزرعته، التي أسموها
مزرعة ديدي، تدليلاً لاسم حمدي، أو تشبهاً بأسماء الحرامس التي
يتنادون بها، دون أن يعوا، وسأله لماذا لم تزرع باقي الأحواض، كان قد
أحضر أعشابًا وجدها جوار الأسلاك الشائكة، زرع بعضها، وتريث حتى
يرى النتيجة، فأجابه : لو صبرت لرأيت .

فوجئ بسعد الدري جواره . أخذ قليلاً . قال :

- مئة مرة قلت لك .. اجعلني أحسن بك .. تحمحم .. اعمل أي
صوت .

رد سعد وقد اعتراه الخجل :

- صدقني .. لا أقصد ..

قال حمدي :

- لا جدوى من الكلام معك .

لمح ندا على البعد، أوماً برأسه ناحيتها وقال :

- عربن لنا على شاي .

- لا يوجد شاي ناشف .

- أليست قادمًا لتوك من العريش .

- لم أكن أعلم .

اطلع على رفح أقرب .. وأسأل الجماعة إذا كانوا فى حاجة إلى شىء .

تردد سعد وهو يسير .. ابتلع ريقه وقال :

- موضوع .. أود الحديث معك عنه .

سرح حمدي ببصره .. اصطدم بمستعمرة ياميت، لم يبق فيها حجر فوق حجر . لم يتركوا منتصبًا سوى المعبد، كشاهد على تلك الخربة وسط الصحراء، وتساءل فى نفسه ما الذي يجعل الإنسان يدمر بهذه الطريقة .

- عندما تعود

إذن ما رأيك بالأمس، له ما وراءه . حاول أن يقنع نفسه، أنه استلطف ونسلى لقطع الوقت، لا يدري لماذا أسرعت دقات قلبه . أراد أن يعطى نفسه مهلة للتفكير . غادر سعد بثناقل، وكلمات حمدي تشيعه :

- على الله تحضر كل شىء، وتنسى الشاي .

وأتبع بضحكة ممطوطة، لم تجد استجابة من سعد، فباخ، وطوح بذراعيه إلى الخلف، محيطًا جذع الشجرة، وضامًا ظهره لها . كان يجلس عند الأسلاك الشائكة، بالقرب من مزرعة ديدي يسمع وشوشة البحر ولا يراه . فرش أمامه ورقة مأخوذة من شيكارة أسمنت . فرد فوقها ثفل الشاي، المتبقي فى القزان، بعد توزيع شاي الصباح . أملا عندما يجف أن يستخدمه مرة أخرى فى ليل العنبر الطويل، وضع ثقلات من الحجارة الصغيرة على أطراف الورقة الأربعة، مخافة أن يعبث بها الهواء، وعيناه لا تغفلان عن حركة الزملاء، حتى لا يغافله أحدهم، ويأخذ حفته من الشاي .

خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَمِعَ دَبِييَا، تَلَقَّتْ حَوَالِيَهُ، وَاسْتَغْيَبَ سَعْدًا.
أَمْسَ، فِي الظَّهِيرَةِ، يَمْنًا يَسْتَرِيحُ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، سَمِعَ صَوْتًا لِنَايٍ
يَعْزِفُ لَحْنًا شَجِيًّا . اقْتَرَبَ مِنْ مَصْدَرِ الصَّوْتِ، لَدَهْشَتَهُ، لَمَحَ سَعْدًا خَلْفَ
سُورٍ مِنْ فُرُوعِ الْأَشْجَارِ الْمُتَشَابِكَةِ يَعْزِفُ عَلَى النَّايِ . مَتَى .. وَأَيْنَ تَعْلَمُ
هَذَا السَّعْدَ، هَذَا اللَّحْنَ الْجَمِيلَ .

هَلْ اخْتَلَطَ بِالنَّاسِ هُنَا، وَتَعْلَمُ مِنْهُمْ عَادَةَ الْمَغَازَلَةِ بَيْنَ السِّينَاوِيَّةِ، وَأَنَا
الَّذِي ظَنَنْتُهُ يَعِيشُ عَلَى الْهَامِشِ .

لَمْ يَظْهَرْ حَمْدِي نَفْسَهُ، وَسَرَّعَانَ مَا سَمِعَ مِنْ خَصِّ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى،
لَحْنًا، كَأَنَّمَا هُوَ رَجَعَ الصَّدَى لِلْحَنِ سَعْدَ، وَلَمْ يَصْغُبْ عَلَيْهِ التَّخْمِينَ . فَنَظَرْتُ
هَذَا الْخَصَّ تَسْتَرِيحُ نَدَا سَاعَةَ الْقِيلُولَةِ .

ظَنَنْتُهَا مَدَاعِبَةً مِنْ نَدَا وَلَا تَقْصِدُ شَيْئًا . وَلَكِنْ عِنْدَمَا زَغَطَلْتُ عَيْنِيهِ
شُعَاعًا، عَكَسَتْهُ مِرَاةٌ صَغِيرَةٌ، أَدْرَكَ أَنَّ سَعْدًا حَازَ رِضَا نَدَا، وَهِيَ تَرْسِلُ
إِشَارَةً كَالْمَأْلُوفِ عَنِ الْفَتَاةِ هُنَا، لِيَحْضُرَ إِلَيْهَا، لَوْ صَدَّقَ ظَنِّي فَقَدْ تَحَادَثَا،
وَاتَّفَقَا، وَهِيَ هِيَ سَعْدٌ يُوَدِّ مَفَاتِحِي فِي الْأَمْرِ . إِذْنًا فَالْأَمْرُ جَادَ . كَيْفَ بِاللَّهِ
فَاتَ عَلَيْكَ يَا سَعْدَ، أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ لِلْفَتَاةِ بِالزَّوْجِ مِنْ خَارِجِ قَبِيلَتِهَا، فَمَا
بِالْكُ وَأَنْتَ صَعِيدِي مِنَ الْمَنِيَا ..؟!

وَكَيْفَ طَاوَعْتَ نَدَا نَفْسَهَا، وَدَعْتَهُ لِلْقَائِمَا، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَهَا لَا
يَأْمَنُونَ غَرِيبًا عَلَى بَنَاتِهِمْ . هَلْ سَيَطْرُقُ عَلَيْهِمَا الْحُبُّ، فَضْرِبَا عَرْضَ الْبَحْرِ،
بِأَيِّ مُحْظُورٍ ..؟!

وَلِمَاذَا صَغَيْتِي، لَمْ تَسْتَجِبْ لِي، وَهِيَ تَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ، صَدَقَ مِشَاعِرِي
نَحْرَهَا ..؟

أَتَرَاهَا، تَغْيِظُنِي لِأَنِّي لَمْ أَوْفَقْ، عَلَى زَوْاجِ شَقِيقَتِهَا صَفْوَتٍ مِنْ شَقِيقَتِي

حمدية. كثيرا ما أوضحت لها : هذه نقرة .. وهذه نقرة . أترأه الكهرياء
يمنعها من الموافقة على الاقتراح بمن يعترض على شقيقتها .
- الشاي .

انتفض حمدي .. وحين رآه، تكلم وهو يصطنع البكاء :
- نفسي .. أحس بك .. ؟!

مد يده بكيس شاي .
أترأه، معذورا هذه المرة . استمر في تصنعه، وإن تصدعت سخريته،
وأطل حنان كان مستترا :
- لي .. أنا .. ؟!

استدار سعد، ليعطيه ندا . استوقفه حمدي بإشارة من يده، وغطس في
عينيه:

- اوع .. تكون ندا ..
ظل سعد محتفظا به في عينيه، وأومأت رأسه بالإيجاب .
آه .. لا بد من مخرج، قبل أن تصبح سيرتهما على السنة السيئانية .
ومن نظرات سعد، وضح له أنه لن يمكن إثناؤه عن الفتاة . تذكر صديقه
محمد عايش، ودعا الله أن تكون ندا من قبيلة الفواخرة مثله .
حمل إليه سعد صينية، عليها كوبان من الشاي، وحين رأى كوب ماء
أيضا، أدرك أنها لمسة من ندا . سأله بغتة :

- فواخرة

- نعم

هدأ وجيب صدره . تناول كوب شاي، ونفخ سطحه مبردا، ومتحاشيا
نظراته المتسائلة.

اقتربت ندا . هل لتأخذ الصينية، أم متلهفة لتسمع ما يقولان .
أحس حمدي أن الفتاة الواقفة أمامه، لم يرها من قبل، أو لم يتمكن
من رؤيتها جيداً كما تلوح له الآن . خداها خوخة وانشطرت نصفين .
بياضهما مورد، واحمرارهما فى نعومة وسخونة الزغب تحت جناح
الطائر . شفاتها نصفاً يرفوقة .. احمرارهما من احمرار العقيق مشعتان،
متقدتان . نظرت إلى سعد، وانبعث ابتسامة . أحس حمدي أن الابتسامة
تكاثرت إلى مئات الابتسامات، تماماً، كما يحدث حين تلامس ريح
الصباح الهادئة، صفحة ماء البحر الزرقاء الهائلة بملاطفة شمس هينة،
فترتش صفحة البحر بابتسامة، سرعان ما تتولد عنها آلاف الابتسامات،
تومض أشعة ذهبية، يمس سناها أغوار النفس فنسبح فى حلم يقظة ..
آملة .. واعدة .. طفولية .

أحس بحنين طاغ إلى صفية . وتعجب لأمرها معه . لماذا كانت تضيق
عليه الخناق إذا ضبطته ينظر لامرأة عابرة، أو تلكأ نظره فى المقهى، عند
فتاة جالسة . مع أنه كلما تملأ الفتنة، امتلأت نفسه بالوجد، وهاجت
جراحه، وأقبل عليها بشوق لا يصد .
آه .. لو تعرفين يا صفية ..!!



تردد صفوت .. هل يتبع نصيحة حمدي، ولا يذهب إلى حمدي، أم يجازف ويذهب إليه . لاحت له نظرة الخوف في عينيها، خشية أن يتطور النقاش بينهما، وتحدث جفوة . جره حمدي في الكلام . قال صفوت :
- بعد التاسع من أكتوبر، جاءت الأوامر أن مهمتنا انتهت، وعلينا العودة . انتفض حمدي :

- بعد أن سيطرتم على الجبال والمضيقي .. ؟!

خفض صفوت نظراته، فتابع حمدي :

- السادات في حسابه حرب محدودة فقط، ليبدأ التفاوض .

رد صفوت :

- ربما قدراتنا، لم تسمح بأكثر مما فعلنا .

قال حمدي :

- لتكن حرباً محدودة، ولكن كخطوة على الطريق إلى فلسطين عربية،

ومما أتضح فإنها الخطوة الأولى والأخيرة .

أفصحت نظرات صفوت عدم استيعابه لكلماته، فتابع :

- قوات الثغرة كانت في أيدينا، فلماذا تركناها تفلت .. ؟!

- أمريكا ستدخل .

- كسينجر ضحك عليه .

ضحك صفوت، وردد في نفسه : كان معجبا بالسادات .. خدعهم

وأعطاهم ..

- سأجاريك .. أكلها السادات بمزاجه، لأن عينيهِ على المفاوضات .

حتى لو كانت عيناى على التفاوض، فلماذا لا أقوي موقفى، وأضعف العدو مستقبلاً. أدمر ثلاث فرق مدرعة، قلب الجيش الإسرائيلى، كانت فى غرب القناة، وأكسر نفوسهم.

رافق بعض حاخامات اليهود، ومعهم بعض الجنود الإسرائيليون وعدة كلاب، جاءوا بعد الحرب للبحث عن قتلاهم. كانت معهم صور لدباباتهم المدمرة التقطت جواً. حددوا لهم مئة متر حول الدبابة المدمرة، ليفتشوا فيها. تشمم الكلاب الدبابة، وتنطلق.. إذا توقفت ونبشت، أسرع الجنود إلى الحفر، وأخرجوا الجثث.

وقف أحد الحاخامات مصعوقاً: جثة ضابط وذكره فى فمه..!!
جاء القائد للأطعمتان على سير العمل. أخبره صفوت أن المهمة كان ممكن الانتهاء منها فى ساعة زمن، ويحملون قتلاهم ويتصرفون. لكنهم جلسوا، وتناولوا الطعام والمثلجات. وأقاموا احتفالاً، وعزفوا موسيقى جنائزية.

جاء أحدهم إلى القائد، وأبدى رغبته فى التقاط صور له معهم. تأملهم القائد ملياً، وقال:

- مع الكلاب نقط.

قال صفوت:

- كانوا على وشك محاصرة السويس والجيش الثالث.

قال حمدي:

- وكنا نحاصرهم أيضاً.. أنت نفسك قلت لى أن الكتيبة 143، احتلت جبل عناق ل تمنع القوات الإسرائيلية من الاتجاه إلى محور السويس القاهرة.

قال صفوت فى صوت خفيض، كأنه يفكر بصوت مسموع:

- من يحاصر من .. ١٩ !
- حين يندلع القتال .. يُحسم الأمر .

جاء صوت حمدية :

- ألم تجوعا .. ١٩ !

قال حمدي :

- تأخرت رئيسك ..

أطرق صفوت، وقد عضه الجوع بغثة . أحضروا لنا علب خضراوات
باللحم . وكلما ظننا أننا شعبنا، عاودنا الجوع ثانية . أمرنا القائد، أن
نكف، وإلا انفجرت بطوننا . طلبنا ماء، وكنا قد طرحنا من الشدة أناييب
بلاستيكية، بها ماء معقم .

لمح على وجه حمدي، نفس السؤال، الذي كاد ينطلق من ألسنتهم،
وهم في طريق العودة، إلى رأس كوبري الجيش الثالث عند عيون موسى،
يسيطر عليهم الأسى : لماذا لم نستمر .. ١٩ !

لا بد من الذهاب إلى العرش وحسم الأمر . يعلم أنها مهمة بغیضة،
خاصة وقد عرف رأيه فيه، مما انتثر من كلام حمدية . أخذ عليه أنه
عسكري مستبقي . هذا العسكري المستبقي وصل إلى رتبة رقيب، وهذا
نادر الحدوث بين المجندين . لا ألومك، فالمجنّد الذي يتطوع بعد انتهاء
فترة تجنيده، ينظر له المجندون، على أنه لا أهل له، وإلا ما قبل المرار
وتطوع في الجيش، وهم ما يصدقون أن تنتهي مدة خدمتهم . كان يعمل
في ورشة لحام أكسجين، بعد حصوله على الدبلوم، حتى طلب للتجنيد،
ظل ست سنوات كاملة مجنّداً قبل الحرب . وفي أثنائها توفيت أمه . هل
كان يترك نفسه عالية على صفيّة، بعد تركه الجيش، حتى يوفق إلى عمل،
خاصة والتعيين في الحكومة موقوف، وكانت صفيّة خارجة وقتها من

زيجة فاشلة، ولم يرد أن يحملها هم . هل كان يذهب إلى أخيهما الأكبر، المقيم في بورسعيد، وعنده أولاد في الجامعة .

على أية حال، ها هي السبعة سنوات، مدة النطوع، فاريت النفاذ . ولعله بالمكافأة، وبما أدخره، يستقل بنفسه، ويفتح ورشة للحام بالأكسجين، في المنصورة، حيث علم من حمدي أن صناعة قطع غيار السيارات، مزدهرة منذ توقف الاستيراد أيام الحرب العالمية الثانية، والآن ازدهرت بجوارها صناعة ماكينات ضرب الأرز وعصارات القصب، ومناشير الخشب، وكل هذا يحتاج لحامًا بالأكسجين .

لا يحق لك أن تعابرنى، ولا يحق لصفية، التى تعابرنى لأنى لم أنتهز فرصة وجودي في الجيش وأذاكر ثانوية عامة، كما فعل كثير من زملائى، وألتحق بالجامعة، وأكون جامعياً مثلها ومثل أخى الأكبر .

ماذا ستجدينى الشهادة الجامعية، وأنا أرى أخى يستجدي طوب الأرض ليكمل تعليم أولاده .. ؟! عدة أيام عمل فى أية ورشة تساوي مرتب السيد خريج الجامعة . ولماذا أجبر نفسى على دراسة نظرية وأنا لا أحب إلا الأشياء العملية .

فعلا يا سيد حمدي، تليق بك هذه الصفية، كلا كما قلبه حجر، وهل أنسى موقفها فى أيام أمى الأخيرة، وهي فى حاجة لمن يسندها إلى الحمام، ولمن يطعمها، وهى تصر على إرسالها إلى أخى فى بورسعيد، ليتحمل نصيبه من تعبها، كما تقول .

- البنت أولى بأمتها

- هو أيضا ابنها

- تكشف على غريبة .. زوجته ..

هزت كتفيها، وخرجت .

ولست أدري، هل سمعتها أمنا أم لا . لكنني وجدتها ولم تملك نفسها، هل تعرف هذه الغبية ماذا ألم بي، وماذا أحست به الأم، وأنا أنظف عورتها، بينما تهرب بعينيها. يجب المواجهة، دون أن تهرب عباي من عيني، ويجب أن يسمع كلامي .. ربما غير رأيه .. حتى الآن لم أعلن فكري بوضوح عن الشقة، فلن أتزوج في شقتهم المتداعية.

قبل تركه الجيش، قدم طلباً للحصول على شقة في المنصورة، مكافأة من الجيش، وما ادخره أثناء تطوعه، طبعاً لن يكفي للحصول على شقة ومحل في وقت واحد . كانوا حاجزين في مجلس المدينة عمارتين للقوات المسلحة . أعطوا الضباط، ولم يصب ضباط الصف من الحب جانباً . على أية حال . المحل يحضر عشرين شقة . سوف تدبر، المهم أن يكون لي عمود أرتكز إليه .

أيام حرب الاستنزاف، جاء فريق من الصاعقة على طريق أبي عمود، إلى موقعنا . عبروا القناة ورفعوا العلم . التقت الإسرائيلون، تهليلهم بعد عودتهم. في الصباح بدأت المدفعية الإسرائيلية في القصف . كانوا قد احتاطوا للأمر، بعمل حفر أسطوانية . وحفروا تحت الدبابات خنادق صغيرة، غطست فيها أثناء القصف، الذي استمر طوال النهار . وفي اليوم التالي أشعلت الطائرات الموقع كله بالنابالم. غطوا الفتحات الأسطوانية حتى لا تطولهم النيران . استمر القصف عدة أيام . فقرر القائد تغيير الموقع، مع عدم إغفال حراسة العلم المعروف قبالتهم على الضفة الشرقية، أحاطته النيران المصرية كالسياح طوال أسبوعين، دون أن يتمكن الإسرائيلون من إنزاله . تقدمت وحدة من الدبابات إلى موقع العلم . ركزوا القصف عليها من الضفة الغربية . قصفهم الإسرائيلون بمدافع الهاون ذات الأعيرة

الثقيلة. أصبح قضاؤهم لحاجتهم لا يتم إلا كل بضعة أيام . بين غارة وأخرى للطائرات أو خلال هدوء نسبي لقصف المدفعية، يتسلل بعضهم إلى الجبل، والغريب أنهم أثناء اشتداد القصف، لم يشعروا برغبة في ذلك . حاول القائد عمل أدبخانة (مراحيض) في الموقع، لكن نوالى القصف، لم يمكنهم من ذلك .

أغلب طعامهم جاف . معهم أقراص من كحول بيضاء، لتسخين الطعام. ومعهم أكياس لبن جاف .

مرة اشترى أحدهم موقد كيروسي، ولكن القصف لم يمكنهم من استخدامه .

رأوا الدبابات، تكاد تطبق على العلم . تقدمت وحدة إلى موقع قرب مياه القناة، وقصفتهم . سرعان ما حومت الطائرات الإسرائيلية، وأحرقت الموقع بالنابالم . خلع قائد المجموعة سترته، وعبأها بالرمال، وعمل به ممرا وسط النار، سار عليه جنوده.

لا داعي لذهابي، لتذهب حمدي، لعلها تمهد لي الطريق، وأخطف رجلي، لمنطقة الورش بحي الحسينية بالمنصورة، أنفق محلا يصلح، وأسأل عن الأسعار .

حضرت طواقم من الورش المختلفة، تمت على المعدات، وأصلحت الأعطال، أحسوا باقتراب موعد اقتحام قناة السويس، إلى سيناء . اشتروا طعاماً إضافياً. وضعوه في أجناب الدبابات . كانوا يعزمون على المشاة من طعامهم وشرابهم . وعندما كانت تَحترق أية دبابة، كان كل همهم إنقاذ جرائن الماء .

وبعد أن كان صفوت وزملاؤه من رجال الصاعقة، يحمدون رجال المدرعات، على تحصنهم في قلاعهم الغولاذية، أصبحوا يشفقون عليهم

من نيرانها، حين تدمر، وحين عبرت القناة وحدة دبابات على الـ G.S. أيقنوا أن العبور للجيش كله بات وشيكاً.

نزلت وحدة من الـ G.S. إلى الماء . وقد فردت كل منها جناحيها . كل جناح تقف عليه دبابة . ما أن وصلت إلى البر الغربي، حتى انطلقت الدبابات، وضمت الـ G.S. أجنحتها .

أخذت الدبابات في قصف حصون خط بارليف . توقفت طويلاً أمام تبة استعصت عليها، رغم تعزيز المدفعية، من الشاطئ الغربي، ورغم كذا طلعة طيران .

عادت الدبابات، بين تهليل الجنود، والقادة يحذرونهم . سرعان ما جاءت الطائرات الإسرائيلية، وأفسدت فرحة عبور وحدة ثقيلة، وعودتهم بثلاثة من الأسرى . أخذوا يستجوبونهم، لمعرفة سر التبة الحصينة . أخذ كل منهم يردد:

- لا أعرف شيئاً .

رأى أحدهم المنظر .. الطائرات التي عبرت من دقائق عادت سالمة، صاح غير مصدق :

- الله أكبر .

ورأى آخر شاطئ القناة الغربي، وقد ظهر فجأة مكتظاً بالجنود والمعدات والمركبات، فصاح :

- الله أكبر .

وانتبه آخرون لما يحدث، والمدرعات تدمدم، وفوهات أكثر من ألف مدفع، تنهجم، فانطلقت من الحناجر، وأصبحت صيحة القتال :

- الله أكبر .

تذكر موعده مع فوج، لمشاهدة أحد حصون خط بارليف، لماذا لم

تسفها قواتنا كلها، نسفت أغلبها، خشية أن يعود إليها الإسرائيليون، أثناء الحرب، عند أية هجمة مضادة، وتركت بعضها شاهداً على ما كان، ولتعيي، ولأظل أعيد : ليست هذه الشبكة الحديدية كعيون نسيج العنكبوت، وما بها من حجارة جيرية بيضاء، كل شيء . خلفها عربات سكك حديدية . نعم.. عربات قطار العريش .

صبوا في داخلها، خرسانة، ووضعوا فوقها قضبان السكك الحديدية، وفوقها دشم من كسر الحجارة والرمال، تحيط بحجرات الحصن، بينها ممرات ضيقة كما ترون، مبطنة بالواح الصاج المضلعة .

أثناء حرب الاستنزاف قصفت قواتنا حصون خط بارليف بالمدافع الثقيلة، فلم تنل منها . قال بعض الخبراء إنه لا يمكن هدمها إلا بقنبلة ذرية، وعندئذ لابد من رجوع القوات المصرية إلى الوراء . كيف نعود إلى الخلف ونحن نريد أن نتقدم إلى الأمام ؟!

ينظر له الزوار في تساؤل . وكأنما يترقب هذه اللحظة، ينسم ويقول :
- في حرب 73 حاصرتها قواتنا بالنيران من الخلف والأجناب لمنع أية نجدة، وتقدم المهندسون ومعهم قنابل البنجالور .
- أفندم .. ؟!

- متفجرات في ماسورة طويلة، تشبه ماسورة المياه، ويمكن توصيل المواسير ببعضها، ودفعها في الرمال، من تحت الأسلاك الشائكة، نفتح طريق إلى الحصن، الذي تحيط به الألغام .
تبادلوا النظرات، فعاجلهم :

- في الحال تم فتح الطريق، وتقدم المشاة واستولوا على الحصن يدًا بيد، وطهره من الإسرائيليين . بعضهم هرب، وبعضهم اختبأ في هذه الممرات الضيقة المتعرجة، التي نقف فيها الآن، وتم أسرهم .

وغلب الضحك صفوت، تذكر ما رواه له أحد أصدقائه من المشاة، حين دخل الحصن فوجد جندي الملاحظة مشوشاً، وقد سقط من ارتفاع ستة وثلاثين متراً، وتعثّر في دلو بلاستيكي بجواره صابونة، وفي الحجرات وجدوا علب الشيكولاته، والثلاجات عامرة، ومخانات وأسيرة مريحة، وعثر أحدهم على ملابس داخلية نسائية، فصاحوا جميعاً في نفس واحد . يا أولاد الأبالسة، وقد زال عنهم التعب فجأة .

أشار أحدهم إلى حائط، قائم وسط الصحراء .

- تركناه أثراً يدل على حصن كان موجوداً

تنقلت أنظارهم بين الحائط، والحصن الذي يشاهدونه، غير مصدقين أنه كان هناك حصن ضخّم مثل الذي يقفون جواره، وأدركوا المغزي من ترك الحائط .

وقال صفوت في نفسه : هذا هو حائط المبكى الحقيقي، لو أراد اليهود البكاء، وليس حائط المبكى في القدس .

صحح له ضابط التوجيه المعنوي :

- حائط البراق .. وهناك قضايا رفعت بشأنه وحكم فيها بملكية العرب له .

لكن نظراً لتعود اليهود الحضور وتلاوة الصلوات، والبكاء، حيث المكان هادئ، والحائط ذو التواء يبعث في النفس الخشوع، ونظراً لأنهم كانوا لاجئين، مطرودين من أسبانيا المسيحية بعد سقوط الأندلس ونزوح العرب منها، فقد تركهم العرب .

وأنا أريدكم أن يبكوا هنا . وماذا لو قالوا بعد حين .. الحائط ملكنا، وقناة السويس التي يطل عليها لنا .. ؟! أحقّاهم بنوا الحائط .

- حائط البراق، بناء السلطان سليمان العثماني، وهو جزء من سور
بناه حول مدينة القدس لحمايتها، وسرعان ما روجوا أن هذا هو الحائط
الغربي لهيكل سليمان .

إذا كانوا قد فعلوا هذا بشأن حائط لم يبنوه، فماذا هم فاعلون بشأن
حائط بنوه فعلا..؟! خاصة وبكاؤهم هنا سوف يكون حقيقياً .. أما
بكائهم هناك فهو «على فثوش». سأل أحد الدارسين :

- هذا عن حائط فماذا عن المستعمرات التي بسمونها مستوطنات
يبنونها في الضفة الغربية..؟!

انبري لسان صفوت منه :

- يستاهل العرب .. قبل حرب 67 كانت القدس الشرقية والضفة
الغربية وغزة في أيديهم فلماذا لم يقيموا دولة للفلسطينيين ..؟!
قال الضابط، ساخرًا :

- آخره فرقة التوجيه المعنوي ..؟!



سأل عنها في المجلس المحلي، أخبروه أنها لا تحضر مبكراً. نصحوه، إن كان يريد لها في أمر مهم، أن يذهب إلى منزلها، وتطوع أحدهم ووصف له مكان بينها، ولم يكن حمدي بحاجة لذلك. طلب من سعد أن يقود العربية، إلى مزرعة الزيتون خلف العريش. وقبلها بقليل، عند شارع جانبي، قال :

- أعتقد أنه شارعها.

تمهلت العربية، وهو يتطلع إلى البيوت.. أشار إلى بيت انفراد بعيداً عنها، تحيط به النخيل. طرق الباب. قادت امرأة عجوز، إلى حجرة فسيحة، تركت بابها المطل على صحن الدار مفتوحاً. فبانت له أبواب الحجرات من كل جانب. وفي الوسط أشجار النخيل. واستوقفت نظره شرفة، اعترضتها نخلة، بدلاً من قطعها لف البناء حولها، وبدت كأنها مطلة من داخل البيت، فأدرك أن صاحبه عريشة أصيلة.

أحضرت العجوز صينية عليها فتجانان صغيران. صبت القهوة من إبريق فضي رقبته طويلة، دقيقة عند العنق، تحيط بها وعند قاعدة الإبريق نقط صغيرة مدقوقة، ويزبوزه منحصر صريح كإبهام المرء عندما يشتهيه إلى الخارج.

غادرت العجوز، وطالعت قائمة امرأة، متينة البنيان، فارعة، لم يفلح جرح في خط مائل على خدها الأيمن، أن ينال من بقايا ملاحظة متشبثة. لمت شعرها تحت غطاء رأس حديث مما تستعمله نساء المدن في الوادي. ووضعت عباءة سوداء فوق جلباب داكن، أغلب الظن أزرق اللون. حواف

العباءة مطرزة بزجراج أحمر، حبكت العباءة حول جسدها، جلست على كنبه قبالة كنبته واتكأت بكوعيهما على مسند خلفها، وأطلت ذراعاها من كمي العباءة المفضاضين القصيرين.

تحممحت وقالت:

- يا مرحبا

- مرحبا بك يا ست هانم..

- التقينا من قبل..

ظنها نسيت، أو تشكك أنها ما زالت تذكره، فلم يلتقيا أكثر من لحظة خاطفة. وصل مديرية الزراعة، فلم يجد أحدا في استقباله. حقا.. الوقت متأخر.. ولكننا أرسلنا إشارة.. نفى عامل التليفون علمه بذلك. هل كان هناك عطل، فلم يستطع عاملنا إبلاغها؟ ليتنى تفحصت سلك التليفون الميداني. لاحظ العامل حيرته، فنصحه بالذهاب للست حميدة.. لم تكذب تعرف مأموريته، حتى دبرت له مبيتا في استراحة المحافظة، وفوجئ بعد أن دخل الليل برجل من طرفها يطرق بابه، حاملا طعام الكرماء.

- لم تُنح لي فرصة لأقدم شكري.

- العفو.. أنت وغيرك على الرحب والسعة.

لاحظت تردد، في الحديث فيما جاء من أجله. فأومات إلى القهوة وابتسمت.. تناول رشفة، أذابت جمود لسانه، وقال :

سمعت أن المجلس المحلي في سبيله لتقديم مشروع لبيع الأراضي الصالحة للزراعة من العريش إلى رفح.

- تقدم كثيرون للشراء بالفعل.

- الأرض المعروضة للبيع صالحة جدًا لزراعة الخوخ.. فهلا أرجأنا الأمر.. حتى نتأكد من صحة ما زرعناه منه.. فإذا أعطى ناتجا جيدا أرشدنا الناس إلى زراعته.

تناولت السيدة فنجان قهوتها. رشفت بتؤدة، معطية نفسها مهلة للتفكير، وقالت:

- لكن الموالح صحت..

- لاحظت انتشار زراعة اللوز.. ورأيت حياته صغيرة وخشنة.. وبعضها ليست به ثمرة.

أتت السيدة على فنجانها، وضعت على الصينية ونظرت مباشرة في عينيه وقالت:

- لا أعدك بوقف البيع.. فلا نريد أن يفتر حماس الأهالي للزراعة.. لكننا سنطلب منهم الاسترشاد بما تقوله مديرة الزراعة.

وضع فنجانه على طقطورة لصق الكبة، كأنما خشى أن ينحني إلى الأمام ويضعه في الصينية قبالتها. وقال حتى لا يحط الصمت:

- كيف حال محمد عايش..؟

- مُقعد ولا يغادر بيته.. صَبَّحَهُ الله بالخير.

اعترم زيارته في بيته، ناحية الساحل غرب العريش، قبالة الفندق الذي تعمل فيه بنتها، ولاحظ أنها ذكرت العبارة الأخيرة بزهو وقد تألقت عيناها، المتماوجتان بين الأخضر ولمعة صفراء بنية، أورثتهما بنتها. أول أمس كان في فندق مارينا العريش على الشاطئ.. لفتت نظره مضيئة جميلة. من نتف الكلام، كلما أحضرت شيئا لمائدته، علم أنها حاصلة على بكالوريوس تجارة. وحين استفسر عنها من أحد العمال، أجابه ضاحكا:

- أمامك المضيفات كلهن.. إلا هذه..

رفع حاجبيه دهشة، فأردف العامل:

- بنت حميدة جليانة.

نهض مستأذنا، وشكرها لحن استقبالها، وهو يغادر لام نفسه.. هل حقًا زارها من أجل زراعة الخوخ.. مع علمه أن كثيرا من الموالح أعطت

نتاجاً عالياً. وهل يتوقع حقاً أن يكون الخوخ أفضل.. أم هو عود من الريحان، نما خلسة في ظل شجرة ويلمس بعضاً من الضوء.. هل لقاء عابر مع تلك المضيفة، يجعلك تتعلق بها؟ وأين حبك لصنية إذن؟ وهل أصبح من الضعف بحيث يزيحه لقاء عابر. أم هو الزمن؟ وعدم التيقن من التحقق.. جعل النفس تهفو لرائحة الريحان.. حينما عرفت في الجو.. قدرها في الثلاثين من عمرها.. فلماذا تأخر عنها الزواج.. هل هي ظروف الحرب.. ربما كانت في القاهرة تدرس في الجامعة ولم تستطع العودة إبان احتلال سيناء لمدة اثني عشر عاماً.. أم الناس يترددون في الاقتراب منها خوفاً من صلابة ونفوذ أمها، الذي سمع عنه.. لكنها قابلته اليوم بركة.. ولم ير منها سوى دمانة وإجابة معقولة لما طلب.. هل في الأمر سر لا أعرفه..؟!

صعد إلى العربية، وعينا سعد عالقان به :

- فندق مارينا

- ليس وقته..؟!

- يا بني آدم.. قلت فندق مارينا..

وأخذ يتخيل منظره، عندما يوليان ظهرهما للفندق، ويذهبان إلى الجهة الأخرى. مرت العربية بمطبخ، فنظر إليه في غيظ.. قدر وقد سلكا في شارع البحر.. أن توتره، سوف يذهب بعد قليل.. ناغشتها النسيمات المنعشة.. وإلى يمينهما صفحة الماء هادئة.. ولحظ حمدي أنها هادئة جداً.. كماء بحيرة.. فلا موج ولازبد..

أحسن لهذا الهدوء رجفة، سرت في أعطافه.

في وقت بين العصر والمغرب، توقفت العربية، وكانت قد وصلت إلى مشارف بحيرة البردويل. نزل بعض الركاب يبحثون، عن كوب من الشاي، أو مشروب مثليج، ونزل حمدي، ليفك عقدة ركبتيه، ويمشي الدم في أوصالهما.

ترامت مياه البحيرة هادئة تدغدغها أشعة الشمس، وتنساب في تمرج متداخل مع ألونة الصحراء.

حلقت أسراب العجاج، بحذاء الأفق المواجه للشاطئ. انحرفت قليلا فحجبت ضوء الشمس. وعمت الجور مادية منذرة. مال لون مياه البردويل إلى اللون الرصاصي. وبدأ أن أسماك موسى والقاروص والدينس، قد أصابها الاضطراب، فقد تعكر الأديم الرصاصي. منذ ظهور العجاج، تعطلت «الخارجة»، تلك الطواير من الدينس الخارجة من البحيرة، في مطلع الشتاء من كل عام، لتضع بيضها في عرض البحر.

أقام العجاج جدارا صلدا عند البواغيز، والمخارج. ما أن تلوح الطلائع، حتى ينقض عليها موجة في إثر أخرى.

ولما كانت الأسماك لا تستطيع الانتظار، وقد ناءت بطونها بما تحمل، وخشية أن يفوتها موعد الوضع، فقد جازفت بالخروج، معرضة نفسها لمناكير العجاج، التي أخذت تلتقطها، ملتزمة إياها في سرعة ويسر. وتسرع بعيدا، متيحة المجال لسرب آخر للانقضاض.. ولتتيح لأنفسها فرصة أخرى للمعاودة.

زادت حكمة الماء. أحست الأسماك أنها محاصرة، فغاصت إلى الأعماق. ولكن العجاج لم تخدعه المناورة. انقضت أسرابه تحت الماء، وسرعان ما عادت طائفة، وقد تدلت من مناقيرها أسماك الدينس، تومض قشورها الفضية المشربة بالحمرة، من أشعة شمس، تلوح حينًا، وتختفي حينًا.

ويبدو أن أسماك القاروص وثعبان البحر، ظنت أن هناك فرصة للمسباحة، والبحث عما يرد جوعتها. لكن العجاج، الذي انتهى لتوه من وجبة الدينس الشهية، تاركًا من أفلت من حصاره، إلى عرض البحر، عمل جداراً دائرياً، ساعده في ذلك الهدوء المريب الذي عم البحيرة، وعدم

خروج أي مراكب للصيد في هذا الوقت، حيث البحيرة مغلقة، لتطهير
البواغيز، ولعمل صيانة في المعدات والمراكب، وحيث موسم التزاوج
والتفريخ.

انقضت أسراب العجاج، وظهرت فجوات بين أسرابه، أطلت منها
أشعة الشمس مرتعشة. طارت أسراب العجاج تحمل في مناقيرها سمك
القاروص. ويبدو أن ثعبان البحر قد زاغ إلى الأعماق. وحلقت أسراب
العجاج نشوي، ترقب الماء من أعلي، وكلما لحظت تغير لون الماء،
حددت البقع الدسمة، وصنعت جداراً دائرياً، وانقضت تلتهم الأسماك
المذعورة.

أوشكت الشمس على الرحيل. وبات من المتعذر على العجاج،
تحديد بقع الماء الغامقة، فأخذ يتنظم في أسراب للانسحاب، ولم يشأ
وهو ينسحب، أن يمر الأمر بسلام، فكان يهبط ويرتفع، ملتقطاً زريعة
السمك.

عبث حمدي بمؤشر الراديو، ليسمع موجز أنباء الشرق الأوسط،
التي تذيعه كل ساعة. بيان عن جماعة من الإسلاميين المتطرفين اقتحموا
محل ذهب في شبرا وقتلوا أصحابه. ويؤكد البيان وجود عناصر غربية
مدسوسة.

أغلق الراديو. أنتم تصدرون بياناً.. ونحن نصدر بياناً.. ولم يصدر
الإسرائيليون بياناً.. علقوا على باب المعسكر من الداخل، مقتطفاً من
حديث لديان وزير الدفاع الإسرائيلي مع جريدة أمريكية.
سأله الصحفي الأمريكي :

- كيف أمكن أن تكررُوا في حرب 67، ما فعلتموه في حرب 56،
وتضربوا الطائرات المصرية على الأرض.
أجابه ديان :

- العرب لا يقرأون.

الأمريكي :

- هل يمكن أن يفعل المصريون مثلكم ويضربون الطائرات الإسرائيلية على الأرض.

ضحك ديان وقال :

- بالرغم أننا نعلم أن هذا ليس في إمكانهم، إلا أننا نتخذ احتياطات كأنهم يستطيعون ذلك.

وأنتت الصحيفة، على اختيار ساعة الهجوم الجوي، في التاسعة من صباح الخامس من يونيو 67، ساعة وجود الضباط المصريين في الحمامات.

احتل الإسرائيليون سيناء في حرب 1956، بعد انسحاب الجيش المصري وقد أعلن أنه اضطر لذلك بعد أن اكتشف تواطؤ إنجلترا وفرنسا مع إسرائيل، لضربه من الأمام والخلف. لكن في حرب 1967، القوات الإسرائيلية وحدها.. ولن ينسحب من أمامها.

وكان أن أوهموا بوجود عدوان ثلاثي، على غرار ما حدث في 56 واتضح فيما بعد أن العدوان في 56 كان رباعياً، وأن أمريكا شاركت فيه، وبالفعل كان وجود الأسطولين، البريطانيين، والأمريكي السادس، في مواقع قريبة من ساحة المعركة. وزودت أمريكا الطائرات البريطانية بجزء من موتوراتها، يمكنها من الطيران من قبرص إلى مصر، حوالي 400 كيلومتر، والعودة، دون أن تحترق، كما وقفت الطائرات الأمريكية فوق البحر المتوسط لتزويد الطائرات العائدة بالوقود في الجو.

وتفتقت أذهانهم، عن سبب لاندلاع الحرب، والفرصة سانحة لأن تلت الجيش المصري في اليمن. أذاعوا في وسائل الإعلام المختلفة عن وجود حشود إسرائيلية على الحدود السورية، خاصة والتوتر كان حاداً

معها ومع الأردن. وتم تسريب هذه المعلومات إلى مخابرات الدول الصديقة لمصر، خاصة روسيا.

وأرسل الرئيس عبد الناصر رئيس أركان الجيش المصري إلى سوريا ولم يجد شيئاً غير عادي على حدودها مع إسرائيل، وأنبأت صور الاستطلاع الجوي يومي 12 و 13 مايو عام 67 عدم وجود أية حشود عسكرية. ونفت الاستخبارات في القيادة العربية الموحدة هذه المعلومات.

- إذن، فلا بد من استفزاز جمال عبد الناصر..

نسبوا تصريحاً لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية أننا (في مصر) سوف نلقي باليهود في البحر.

وأخذت وسائل الإعلام المختلفة، تتهم ناصر بالتقاعس، عن نجدة سوريا والأردن، وأنه يتخفى خلف قوات الطوارئ الدولية. وكان أن طالب بسحبها، ودفع بالجيش إلى سيناء.



أخرج سعد العربية من الحظيرة. رفع الغطاء الأمامي. صب بعض الماء. وضع إصبعًا بين الأسلاك، وتملى من أحدها، وضع الغطاء وأمسك ببطانة، وأخذ يطوق العربية، وهو يدعو في سره، ألا يجد عامل التمرين بالوقود في هذه الساعة.

كثيراً ما قال للباشمهندس حمدي، لا داعي للتردد على بيت النابتة. أنت لم نحسم أمرك بعد، وهذه لا يجدي معها مقالك، يفقهه مهوناً، وتلمع عيناه الرماديتان، فيظهر اخضرارهما، بلون المغات، وقد نشع على بياض عينيه ويردد: السر في بثر، الآبار هنا كثيرة، إذا شرب واحد من إحداها، عرف نصف سكان العريش، من، ومن أين. يستمر في قهقهته، ويقول: يبقى النصف الآخر. تقصد القبيلة الأخرى.

مصيها مع الوقت أن تعرف، ولو أخفت السر، فإلى حين. يتوقف حمدي عن الضحك ويقول.. تقصد مع الوقت أن تعرف، ولو أخفت السر، فإلى حين. يتوقف حمدي عن الضحك ويقول.. تقصد أن القبيلة نطل ساهية، مثلك، متحينة سقطلة للقبيلة الأخرى. فيقول سعد، أنه لذلك يجب عدم التردد.

يحاوره حمدي: لست متردداً، ولكني أفكر. تساءل سعد في نفسه: إلى متى.. وكأنه قرأ ما جال في خاطره فقال: في الجورة نضع بذرة الخوخ بعيدة عن الأخرى، حتى إذا كانت بها آفة، لا تضرها. فهم سعد تلميحه عما يثار من شائعات عنعاملات في الفنادق، وربما كانت إحداهن.. ود لو يقول له كل واحدة ولها عقلها، وتختار كيف نسلك، لكنه خشي

سخرته. كانا يستظللان بفروع شجرة، أكاسيا، وقد سرت في الجو طراوة،
فجأة نهض سعد وقال :

- أحضر الغداء

تأمله حمدي وقال :

- نفسي أكون مثل هذه الشجرة.

- في وسط الصحراء.

- الشجرة تصنع غذاءها بنفسها.. تمتص بعض الضوء، وجذورها

تمتص بعض الماء، وما تيسر من التربة، على القد بالضبط.

قال سعد ضاحكاً :

- لأن الشجرة لا تذهب إلى السوق، تريد أن تفعل مثلها..

- ولا فضلات لها

- نسيت شيئاً..

- ماذا يا فالح

- هذا من ستر ربنا لأنها لا تتحرك من مكانها.

- ناقصينك..؟!

- غلطت..؟

- وجع في بطنك.. نحن نتحرك.. إلى أين..؟!

نظر سعد في ماعته.. تقترب من الرابعة بعد الظهر..

في الرابعة تماماً، وكان يقوم بالخدمة، لمح شخصاً آتياً من وراء تبة

مرتفعة، عارضه فوقف. كلمة سر الليل. قالها. تقدم. ضابط احتياط من ك

27 أ، كان في فرقة بأسوان، فاجأته الحرب في طريق العودة، ويود اللحاق

بوحدة في الجبهة. سمى له ضابطاً بكتيبته. الاسم صحيح. ركنه معه حتى .

الصباح، وقدمه لقائده. احتسب الشاي معاً، فاطمأن سعد قليلاً. طلب منه

القائد أن يذهب معه بالذخيرة، إلى مكان دبابة مغروزة، رآها في الطريق. أثناء العودة، استأذن ليفك ماءه، غطس في حفرة، وسرعان ما شنت الطائرات الإسرائيلية غارة مركزة على سرية دبابات بالقرب منها. انبطح سعد أرضاً وتساءل: لماذا الغارة الآن وهذا الموقع لم يتعامل بالنييران منذ أمس، والسرية مموهة جيداً. انتهت الغارة ورجعا. سأل ضابط تعيينات عن إحدى كتائب المشاة، وذكر له رقمها. استغرب الضابط السؤال. هذه الكتيبة لم تعبر إلا من مدة وجيزة. احتلت مواقعها ولم تتعامل مع العدو حتى الآن. سأله:

- من أي وحدة أنت..؟

- 27 أ

قهقه ضابط التعيينات:

- أنا من الوحدة 27، ولا يوجد في الجيش كله أ.

وضع سعد مفتاح التشغيل، على المفمض. ظل يحاول، إلى أن تمكن من الفتحة، وأداره. وضع قدمه اليمنى على ضاغط الوقود، في وخزات سريعة متلاحقة، حتى علققت المكنة، وتركها تدور في رتابة. أمسك عجلة القيادة، وثبت قدمه على ضاغط الوقود، ولسان حاله يقول: أمرنا لله.

تُرى.. هل تكون النائية هناك في هذه الساعة. أم خرجت لتلحق بأحد اجتماعاتها. الشمس تلملم أشعتها التي سبق وفرشتها فوق المدينة. رققتها، وسحبها عند الأفق، وفوق البحر، ولن يمر وقت طويل، حتى تخضب تنف السحاب باللون الأحمر، وهي تمعن في الرحيل، حتى تنحول إلى نقطة صغيرة في عمق البحر، وتستطيع أقلها موجة أن تغرقها. استدار بالعربة، ليدخل في الطريق المؤدية إلى شارع العريش الرئيسي. لف بجوار قلعة العريش. تاهت في عينيه معالم الحجارة المتداعية،

والطوب الأحمر القديم. هل كانت هناك محاولة إقامة شيء جوارها، لكنه تداعى هو الآخر.

عند المنعطف، فى طريق، اعتقد أنها تؤدي إلى سوق الخميس، وفى غبشة الظلام الرشيك، خُيل إليه أنه لمج ندا. هل يستدير خلفها، ويحمل موعد الباشمهندس، أو حتى يتأخر عليه قليلاً. لكنه غير متأكد منها. نفس القامة، لكن هذه ععبب جليابها، عند حزام فى وسطها، فبانت ككرنية.

هل هى ندا وقد اشتهرت قماشاً، أو فستاناً، ووضعته فى عباها، أو لفته حول وسطها، ولماذا تفعل ذلك؟
لعل شيئاً آخر فى يديها؟ لم ألحظه جعلها تفعل ذلك.
هل لمحتنى؟ كانت لفتى عند المنعطف سريعة. أكاد أقطع أنها هي.
نظرتى السريعة خطفت نور عينيها.

ما ينبعث من عيني ندا، ليس مثل ما ينبعث من عيني أية امرأة أخرى.
خرج القائد من مخبئه، كالكرنية، كتمنا ضحكائنا التى كادت نفصحنا، وأدركنا أن فى الأمر شيئاً.

علموا أنه تسلّم علماً مصرّياً، لفه حول وسطه، تحت ملاسده، وتسلم مظلوفاً، وعليه ألا يفتحه قبل الواحدة والنصف ظهراً، ويبلغ جنوده، بفحواه.

هل حانت اللحظة أخيراً.. انتهت مدة التجنيد الأصلية لسعد وكثير من زملائه، وبدأ أن مدة الاستبقاء لا نهاية لها. كل عام يتدربون على ما أسموه الخطة ألفين. استدعوا بعض الجنود ممن أحيّلوا للاحتياط من مدة وجيزة، وضمّوهم إليهم. قال الجنود: مناورات الخريف المعتادة. كانوا يتدربون على صد الإسرائيليين إذا هاجمواهم.

هذه المرة، تدربوا على مطاردهم إلى الضفة الغربية، فى أرض تشبه

أرض سيناء، بصحراء الفيوم، خلف الهرم الأكبر. قال القادة : ستكون هناك قوارب مطاطية.

قال أحدهم وهو يشخر :

- قال يعنى سنركب قوارب، ونعبر فعلا.. !

نصاعد الشك فى نفوسهم، فسيب سنوات، استبقاء فى الجيش. كل يوم فى موقع، وكل يوم يحفرون الرمال، ويعدون مواقع، ويجهزونها هندسيًا، ثم يتركونها، ويقيمون سدوداً من الرمال والتراب، ويحدثون فيها ثغرات، وأحياناً يتدربون على عبور السدود بسلام من الجبال، وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم. وبترتيب، هذا وراء ذلك. وهذا يتجه يميناً بزاوية معينة، وهذا يعمل ساتراً ويتنظر زميله. وتحدد لكل منهم مهمة : ماذا سيفعل بالضبط، ومتى، وإذا حدث شيء غير متوقع، ماذا يفعل، ومن أين يجيء العون. وتساءل أكثر من جندي: هل يلقون فى روعنا، بهذه الدقة المتناهية، أن الأمر جاد، حتى لا يزمراً أحد.

استلقوا ذات مرة على الرمال، بعد العشاء، وما زالت تبخ حرارة، اختزنتها طوال النهار، وحين هبت نسيمات من ناحية مجاري الفيوم المائية وبحيرتها ومزروعاتها، سري في أجسادهم المتعبة خدر لذيذ. قال زميل، وهم من الإرهاق، لم يعلقوا على مقولته :

- من يراهنى.. لن تقوم الحرب.

يسم سعد.. حين فار الدم فى عروقه، وقد خفف جسده، وكاد يطير فوق صيحة «الله أكبر». وذوّقتها لو يرى الزميل المراهن.. وفيما بعد.. خفف من غلوائه.. ولماذا.. وأنت نفسك لم تكن متأكداً. وحين يتذكر عناوين جرائم تلك الأيام، يتصاعد فوراً النشوة فى عروقه. قطعت الدول العربية النفط عن أوروبا الغربية واليابان. - الله أكبر.

البحرية المصرية تغلق مضيق باب المندب.

- الله أكبر.

رفضت مطارات أوروبا، هبوط الطائرات الأمريكية، التي تحمل عتادًا حربيًا لإسرائيل، لتزود بالوقود.

- الله أكبر.

المستولون الأمريكيون يصرحون، أنهم سيبحثون عن بدائل للنفط مستقبلاً.

لم يتوقعوا أن يحدث ما حدث. وهل كنت أنا في الميدان، رغم العلامات أمامي، أتوقع شيئاً..؟!

غيروا القوارب التالفة والمثقوبة.. ألم تكن هذه علامة..؟!

عززوا الجبهة بالمدفعية الثقيلة.. ألم تكن هذه علامة...؟!

عبرت وحدة إلى سيناء وقضت العيد، بين نقطتين حصينتين من خط بارليف، وتم إمدادها بالتعين والذخيرة، بالقوارب.. لا.. هذه ليست علامة.. لكن إشارة واضحة لقرب العبور، فكيف لم نلتقها، أو نلتقها أحد..؟!



تخلل حمدي ظلال أشجار الكافور والجازورينا الباسقة، وقد ألقت بها على الرمال.

وصعد الربوة إلى بيته، من دور واحد، مبنى بطوب أسمنتى، بقى على حاله دون يياض من الخارج.

رمى سترته فوق أول كرسي قابله. أخذ نفساً عميقاً.. وأطلقه.. يا لك من ساه يا سعد. تعرف الرجل ولا أعرف.. تتركنا نذهب، وتتكلم، وخلال الحديث أكتشف أنكما صديقان قديمان. كيف مرت مرور الكرام حرارة اللقاء، ولم تلفت نظري. لا داعي للوم نفسك. كان بالك مشغولاً بإنهاء ما حضرتما من أجله.. وكان قلبك تتسارع دقاته، حين أتى إلى مجلسكما، على مصطبة أمام الدار، ترى منها فندق سمية. واعتزمت أن تزور الرجل ثانية. وعندما أخذكم الحديث، صممت فى نفسك.. إذا زرت الرجل.. فمن أجله.. وليس من أجل شيء آخر.

سأل حمدي المعجوز عن عائلة سمية. قلق عندما عرف النية، والحديث يأخذ ويعطى، قال محمد عايش :

- البنت، مخطوبة، أو شبه مخطوبة، لشاب من الإسكندرية يعمل معها.!!

دق قلب حمدي بعنف، وقد أخذ على غرة، وبصعوبة استفهم :
- شبه مخطوبة..؟! -

لا شيء رسميًا بعد... وأنها لا تمنع .

فرك الرجل أصابع يديه ببعضها بعضاً، وأصلح من وضع جمرات النار فوق المعسل، وضرب بمبسم حاجي الملحم، على راحة يسراه السمراء المدبوعة، في تأن، وقال :

- يبدو أن أمها تشجعه..

انتظرا توضيحه. جذب نفساً عميقاً من الدخان. توهج الجمر فوق الحجر، وأحدث صوتاً كطرقعات الملح الخشن إذا مسته نار، وبان ألق في عيني العجوز الضيقتين.. وشع وجهه المغضن. نفث الدخان على مهل وقال :

- أفردت له حجرة في بيتها، يقلب فيها.. وكثيراً ما يتغدى عندها.

تناول فنجان قهوته، وتلقائياً فعلاً مثله، وناول سعد المبسم، وهو يقول:

كل ما تطلبه المرأة.. أن يستقر في العرش.. فهي لا تريد لبيتها الوحيدة أن تغادرها.

سحب حمدي كرسياً قاعدته فماشية، استرخى عليه جوار شباك مطل على البحر. سرح ببصره. بينه وبين البحر شاطئ عريض، وماله ناعمة. قرب الماء ثلة من أشجار النخيل، متضامة من أسفل، كأنها نابعة من بعضها. تذكر ثلة مثلها في قلب بيت عايش والجدار يفسح لها الطريق. وتخيل نفسه يعيش في بيت مثله، تطل عليه سعف النخيل، وتندلى سياطات البلح، براعم خضراء. يشاهد تحولها، إلى اللون الأحمر، أو الأصفر. بدت له نخيل الشاطئ وحيدة. كم استراح على جذوعها، حين كان يهرب مع زملائه من قبض المعسكر.

وساعة العصاري، يزقون أي باب، من أبنية المصطافين، المتناثرة على الشاطئ. لا يعرفون لمن هي. وإن خمنوا أنها لعلية القوم. يستريحون بين جوانبها، ينعمون بالاستلقاء على حشايا أسرتها اللينة، وبعد تعبيلة، يشطفون وجوههم. وعبثًا يبحثون عن صابونة، أو بقايا صابونة. يعدون نقودهم. ويكشفون عن رغبة دفينة لتذوق طعام مطبوخ. يذهبون لأحد مطاعم العريش. وحمدي يغسل يديه وجدها فرصة.. صابونة وحنفية. وضع رأسه تحت الحنفية، غير آبه بمن يلاحظه. لم ترغ الصابونة في شعره، مسح رأسه بسرعة في فوطة معلقة. تلفت وهو يشعر بالخجل. عاد لمقعده. زميله الذي حل محله، فعل مثله و(عصته) الصابونة. كتم ضحكته. دفعوا الحساب، واترح أن يذهبوا إلى البحر. يتقافزون بين الأمواج، وبين وقت وآخر، يغطس أحدهم بجسده، ويدعك يديه تحت إبطيه، وباقي جسده، محاولاً إزالة المرق. يخرجون وقد علق الملح بأجسادهم.

أحس بخذلان في أطرافه، خشي أن يغفر.. ذهب إلى الحمام.. تناول صابونة من رف علوي. نزع غلافها. دقق فيه، محاولاً فك الرموز العبرية. ألقاه في سلة للنفايات تحت الحوض. فتح الحنفية وصبن رأسه، ودعك بالرغوي رأسه ووجهه. تذكر أنه لم يأكل منذ الصباح. وجد في المطبخ بقايا سمك بلطي، أحضره بالأمس، فوجى به في السوق. وأخيره البائع، أنه لم يظهر في البردويل من زمن بعيد. نزع رأس السمكة ليلقيها.. لحظ حبات من البطروخ عالقة بها.. مصمصها.. وهو يتحسر على بلطي بحيرة المتزلة العامر بالبطارخ دائماً.

كانت أسراب البلطي تخرج من المنزل إلى البحر وتسبح باتجاه

البردويل، تضع بيضها عند صخور فى منتصف الطريق.. ونأتي الذكور لتلقيحها. وإذا لحظت الأنثى بيضا غير ملفح، أو فاسدا، شفطته. ويبدو أن سمكته ما أن فعلت حتى وقعت فى شبكة صياد.

بعد الفقس، يعود البلطى إلى موطنه فى بحيرة المنزل. وبعضه يأنس فى نفسه قوة، تمكنه من السباحة إلى بحيرة البردويل، حيث نقاء مياهها. لكن.. يبدو أنه أحس، بما يقع للدنيس فى بحيرة البردويل، طوال فترة وجود الإسرائيليين فى سيناء، فعزف عن الذهاب.



بينما يتفقد حمدي الزرع فى الأغوار، لحظ تراباً أحمر ناعماً، غطى السيقان. لحظ العمال السيناوية قلقة بادياً على وجهه. طمأنوه ألا خوف منه. وجوده يدل على تربة جيدة. ما أن يأتى عليه ماء حتى يهبط، ويتماسك، مختلطاً بالتربة.

قلب الأمر فى رأسه. من أين يأتى بالماء. هل يرش الزرع؟ وكيف، وهو يعتمد على الماء الجوفى؟ هل يسحبه إلى خزان، ويوصله إلى خرطوم رش أم لا داعى للتخوف كما قالوا؟ هل تتكفل الرطوبة به، وعاجلاً أو آجلاً، سوف يهبط إلى التربة؟ أخرجه من أفكاره الفراش الذي ينظف بيته. أخبره أن ضعفاً فى انتظاره. استفسره. علم أنها ضيفة. من يا ترى؟

هل قامت ضيفة، أخيراً، بمبادرة. أم تراها أحست بقرون استشعار خفية، بسمية.. كانت تبقى حكاية. هل هى حميدة جلبانة؟ وصلتها وشاية بخصوص بنتها. لا.. حميدة لا تحضر.. كانت أرسلت فى استدعائه. وصل إلى البيت. ما أن وضع المفتاح بالباب، حتى وجدها واقفة أمامه. حمدية. بحضورها، وطيبتها، وإقبالها. آخر من كان يتوقع. احتضنته قبل أن يفعل. وقبلته على وجنتيه قبل أن يعى الموقف. تراجعت وقالت متصنعة الدهشة :

- كأنك غير مرحب بى.

- يا خبر..

- مفاجأة..!!

تمالك نفسه، وقال :

- أجهز لقمة.. أم تشرين شايًا أولاً.

- استرح أنت وسأصنع الشاي.

وارب الشباك الممثل على الشاطئ.. ترامت له الموجات من بعيد..

كل تحاول ركوب الأخرى، دون زهق أو ملل. ما زالت في انتظار موافقتي

على زواجها من صفوت. تريدني كأب.

لا تود عمل شيء كهذا دون موافقتي. وسوف نسفّه حجتي : معه دبلوم

صناع، وأنت خريجة كلية، بقولها : لم يعمل بالدبلوم وسيفتح محلا

للحام بالأكسجين. كيف تقولين؟ لا تهمل درجة التعليم. المهم الشخصية.

عندك.. خريجو كليات، كثيرون، ولا يفهمون السماء من السماء. في

هذه، والله عندك حق. مديرتنا الإداري، خريج آداب لغة عربية، يخطئ في

الإملاء، ولست أدري ما الذي رماه على الزراعة.

- الشاي.

تطلع إليها، كأنه لم يرها ساعة أن حضرت.. عيناها باسمتان، وجهها

الناعم الذي يفصح بشفاافية غريبة، عما يعتمل في أعماقها، يبعث فيه

طمأنينة وراحة، رغم كل شيء.

- نورت يا حمديّة.

بسخريتها، التي تفعلها دومًا، بود مازح، فلا تبدو جارحة :

- والنبى صحيح..

- والله العظيم..

- بكاش..

رشف من كوبه، وقد اعتزم ألا يفوردهما الحديث إلى نفس ما اجتراه
مرارًا دون جدوى، وفي كل مرة ينوي ذلك ويسرقه الحديث إلى مالا
يريده. أزوجك سيد سيده. تضحك في تردة، وترمقه بنظراتها المازحة،
زوج نفسك. خائف عليك. خف على نفسك. وعندما تظهن منه : يا
سيدي.. أحبه ويحبني، حياتي وأنا حرة فيها. ويتصاعد التقار.

تناولت كوبها بين راحتها، ولمعت عيناها السوداء وان قالت :

- ليس ما تفكر فيه

مستنجداً

- إذن ماذا..؟!

- البيت.

رشف رشفة كبيرة. لسعه الشاي في فمه، بينما أردفت :

- على وشك السقوط

آه.. المشكل الأزلي. معهم قرار إزالة، وعاجزون عن الحصول
على شقة جديدة، في العمارات التي تقيمها الوحدة المحلية لمدينتهم.
بعد التوزيع على محاسبين كبار الموظفين، ومحاسبين أعضاء مجلس
الأنس، الشعب، وأعضاء الحزن الوطني، الحزب الوطني، لا يبقى شيء
لأمثال حمدية وأمها..؟!

تعرف عجزني، فلا أملك ما يسد أحد البطون الواسعة من السادة موزعي
الأقدار. آه.. سوف تمسكني من يدي التي توجعني، تنزوج وتترك أمها معي..
وسوف تعد بدعوتها للإقامة معها بعد فترة. الأم لا تستريح إلا عند بنتها، وأنت
مصيرك إلى زواج.. ومهما كانت زوجتك.. فلن تستريح معها.

- حاضر.. حاضر يا حمديّة.

قطبت جبينها وقالت :

- وماذا تنتظر.. ؟!

قطبت العجاة، وعلت الشمس، واختنق الجوّ، والقارئ يردد في

رتابة:

«أعد الله لهم عذاباً شديداً، إنهم ساء ما كانوا يعملون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مُهِين، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

بدأ المشيعون يسحبون أرجلهم.. وتلكأ بعض الأقارب، وخاصة، يترحمون على والده. أحس: ولا يذري كيف بعيني حمديّة تنغرسان في رأسه، التفت فظالعه وجهها، أرمأت إليه، فاقترب منها. همست :

- أعطيت الرجل أجرته

حاول أن يزرع نفسه من حزنه، وعصته الكلمات.

قالت في لهجة سريعة مؤنبة :

- ماذا تنتظر ؟!

ناولته ما تيسر، وإذا بالرجل يصدق بالله العظيم، وبسم الله الرحمن

الرحيم:

﴿ مَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ٦١ ﴿ فَأَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٢ ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ٦٣ ﴿ فَأَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٤ ﴿ مِدْهَانَتَانِ ﴾ ٦٥ ﴿ فَأَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٦ ﴿ فِيمَا عَيْنَانِ مُضَاخَتَانِ ﴾ ٦٧ ﴿ فَأَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٦٨ ﴿ فِيمَا فُجُكُهُ وَخَلٌّ ﴾ ٦٩ ﴿ وَرَمَانٌ ﴾ ٧٠ ﴿ فَأَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٧١ ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴾ ٧٢

﴿٧٢﴾ فَيَأْتِي مَا آلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ قُلُوبَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِي مَا آلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَقَرَفٍ حُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَانِ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِي مَا آلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبِّزَكَ أَنتُمْ زَيْكُ ذِي الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ [الرَّحْمَنُ: ٦٥، ٦٨]

صبرك على.. نأكل لقمة أولاً..

- وبعد..

- يفعل الله ما يشاء

قامت لتعد الطعام، وهو بخيرها أن عندها كذا وكذا في الثلاجة وكذا في المطبخ.. واضطجع على كرسيه..

حار بماذا يجيئها، خاصة إذا أصرت على سفره معها لينها المشكل. وليست لديه وساطة.. أو معرفة.. وحتى لو وجد.. فهذه المسائل حبالها طويلة.. وإذا ذهب ليشرح الأمر لرئيس الوحدة المحلية.. فلن تقرأ زيورك يا داود..؟!

هل يسافر معها، والسلام.. لكن ماذا يقول لأمه، وقد أمهلها المرة تلو المرة. وكيف يحصل على شقة في القطاع الخاص، وخلو الرجل لن يقل عن عشرين أو ثلاثين ألف جنيه، والإيجار الشهري يساوي راتبه وراتب حمدية معاً. هل يكون الحل في السفر للعمل بالخارج كما اقترحت صفيه مرة. أترأها مترددة حيالي، لأنى لم أشد عجلي، وأسافر معها عندما جاءتها فرصة، لتكوين قرش محترم، ولا تكون محرماً لها.

معك حق يا صفيه. وعلى استعداد لأن أبصم بالعشرة. لكى أدخر خلراً، يلزمنى عشرون عاماً، وعلى فرض، ألا أصرف قرشاً واحداً من مرتبى. هل أخبر أُمى بالحقيقة، بدلاً من التويف، والتعلق بالخيال الذاتية؟!

كان أول شيء فكر فيه، بعد عودته من الأسر، أن يذهب لزيارة أهل الهواري، خُيل إليه أن الشوارع ضاقت، والبيادين صغرت. ومع أن ذهابه كان بغياً إلى نفسه، ولكن.. لابد أن يخبرهم أحد بالحقيقة، وإلا ظلوا، متعلقين بأوهام كاذبة.. شأنهم شأن أهالي المفقودين، والذين لم تصلهم خطابات رسمية عن استشهاد آبائهم.

دلف من سوق الخواجات، إلى شارع على محمود طه. كان الهواري يفاخره دوماً بشيئين، مكتبته العامرة، وسكنائه في الدور الأرضي من بيت الشاعر على محمود طه. وكثيراً ما شكاه الهواري أن البيت آيل للسقوط وأنه لا يدري أين يذهب مع عائلته إذا سقط.

يضيق الشارع في نصفه المؤدي إلى سوق الخواجات، بعد تقاطعه مع شارع سيدي عبد القادر. وبيت الشاعر إلى يسار القادم من سوق الخواجات قبل التقاطع. طالع بيت حديث البناء، في دوره الأرضي عدة محال. ذهب وجاء لعله يكون قد أخطأ. وبعد أن تغلب على خجله، سأل عجوزاً في محل بقالة في مواجهة البيت.

- كما ترى..

- وجماعة الهواري.

- عزلوا.

وقف برهة، غير مستوعب الأمر. حانت منه التفاتة إلى أحد المحال الجديدة. كان لمنجد أفرنجي.. وقد وضع الكارينة أمام المحل.. وصيانه يعدونها للتجنيد.

اشتكوا من أرضية العنبر. أخذوهم إلى الخلاء، حيث يجفون كومة من التبن في الشمس. ولما كانت الكمية قليلة، سرعان ما تعاركوا، كل

يود أن يحظى بقليل يضعه تحت جنبه، يقيه، رطوبة الأسمنت، والحفر والفلقزة. تخاطفوا التبن، والحراس يصخبون ويضحكون. وعندما جرى أحد الأسرى، وقد ظن أنه استأثر ببعض التبن، عاجلته رصاصة فى فخذه، فجلس مكانه.

وضعت الطعام أمامه. أحس بنفسه عزوفاً. لم يستجب له، خشية أن تفسره بما يجرحها. بعد الغداء، اعتراهما خمول. لم يكادا يستسلمان له، حتى طنت ذبابة.

قامت خلفها مطاردة بفوطة. وارب الشيش، ليتيح لها أن تغور، وحمدي تحاول القضاء عليها، بضربة مباغتة، دون جدوى.

خارج المستشفى الميدانى، الذى أقاموه على عجل، من الخشب، فى جانب من معسكر الأسرى، قعدوا فوق نجيلة مهملة. طنت ذبابة.. أعقبتها أخرى.. فأخرى. تسرب بعضهم إلى قاعة المستشفى وفى أثرهم حمدي، لكن الذباب لم يعتقهم. لَوَّح حمدي يده فى عصبية، فاصطدمت بمريض إسرائيلى على سرير جواره، برطم مهددا.

- ليس غريباً على من يطلقون النار كالمجانين.

- إنها الحرب... !

- يكون الموقع قد سقط،

جاء ممرض إسرائيلى وهش الذباب بفوطة فى يده، ماراً بالأسيرة على الجانبين. لمح عدة ذبابات إلى يمينه على الحائط، هوى عليها بشدة. أصابها فلمعت عيناه.

- يموت جنود دون داع.

-

- فعلتم ذلك مع الفلسطينيين، لتركوا قراهم.. لكن ما جدواه معناني
سيناء...؟!

رفع المريض رأسه قليلا، ووضع تحتها مخدة إضافية، وقال :
- اعتقلتم اليهود وعذبتموهم.

- تقصد أيام نوري السعيد في العراق، والملك فاروق في مصر، كنا
محتلين من بريطانيا.

وتساءل حمدي. هل تم ذلك، بضغط من البريطانيين، لإرغام اليهود
على الرحيل إلى إسرائيل، وللتخلص من اليهود الشيوعيين الذين طالبوا
برحيل القوات البريطانية عن مصر في مظاهرات الطلبة والعمال يوم
21 فبراير 1946 واضطرت بريطانيا إلى سحب قواتها من أنحاء مصر
وركزتها في قاعدة قناة السويس.

أم أن الحكومة المصرية في عام 1948، وقد ضايقها أن بعض اليهود
المصريين شيوعيون، وقد دفعوا مع زملائهم العمال في شبرا الخيمة
والمحلة الكبرى إلى الإضراب، لزيادة أجورهم، أرادت التخلص منهم.
لو كان ذلك قصد الحكومة، فقد جاء نقبها على شونة. كسب البريطانيون
برحيل اليهود الصهاينة إلى إسرائيل، وخسرت الحكومة برفض اليهود
الشيوعيين، ليس مغادرة مصر، بل مغادرة معتقل الهايكستب، وظلوا
متضامنين مع باقى زملائهم من الشيوعيين المصريين، ثمانية شهور، حتى
طردوهم من مصر.

وانبثق سؤال في رأس حمدي ... لكن لماذا تركت القوات
البريطانية المعسكرة في قناة السويس الجيش المصري يعبر سيناء
إلى فلسطين؟! ...

حطت ذبابات أخرى على الحائط. باغتتها الممرض. أفلتت إلى أعلى وإلى الخلف. استدار بعصبية ملاحقاً. ظن أنها فى متناول فوطته، ضرب بشدة، فزاغت. أخذ يهوي بالفوطة فى هذا الجانب وفى ذاك الاتجاه، وقد جحظت عيناه، ونفض جبينه بالعرق، وكاد يتعثر فى أرجل الأسرة، أكثر من مرة، وفى الجالسين أرضاً، ويختل توازنه.

برطم بالعبرة وقد انقلبت سحنته. أغلق باب القاعة ونوافذها، وفتح باب دورة المياه فى صدر القاعة. أخذ يهش الذباب فى اتجاهها. ناوله ممرض آخر بخاخة رش مبيد. وعندما أيقن أنه حصر الذباب داخل الدورة، دخل وأغلق الباب خلفه.

- وماذا عن رئيسكم عبد الناصر..؟! -

أحسن حمدي بزقة. فنهض ونقر باب الدورة. بعد قليل خرج الممرض.

أثناء حرب 56، اعتقل عبد الناصر مواطناً مصرى من اليهود، وكان الشيوعيون من اليهود المصريين، الذين سبق طردهم من مصر، قد أصدروا بيانات بتأييده، واستكروا العدوان الإسرائيلى البريطانى الفرنسى على مصر. وأبلغ أحدهم من فرنسا، هنري كورييل، عبد الناصر قبيل العدوان بخطة الجيش الفرنسى فى حرب 56. ورغم ذلك لم يفرج عبد الناصر، إلا عن قبل مغادرة مصر.

وقعت عيناه حمدي، على بقع دم قمينة تلوث الحيطان. فتح شباك دورة المياه حتى لا يختنق. مشى وهو فاقد للاتزان. تساند على شبابيك الأسرة. أسرع عسكري لمساعدته على الجلوس. هز رأسه رافضاً، فأخذه إلى خارج العنبر، جلس على إفريز جواره. عاد العسكري يحمل كوبين

من الشاي، أعطاه واحداً. لفت نظر حمدي، أنه يرتدي بنطلونا أسود، وقميصاً أبيض، ويضع غطاء رأس أسود. ربما من الشرطة المحلية، ولعله في زيارة لأحد أقربائه. ابتسم الجندي مشجعاً ليشرب الشاي، الذي عافته نفسه. طالعت سحنة سمراء، بها بقع أكثر دكنة كبعض أبناء الحارات في مصر.

تناول رشفة من الشاي، حتى لا يكسفه. لدهشته، وجده شاباً حقيقياً، فحمن أنه أحضره من مقصف المعسكر، أو من مطعم الحراس.

ها قد جادت الظروف بكوب من الشاي، طالما هفت نفسه إليه، بدلاً من الشاي الذي يحضرونه لهم. ماء فاتر، ماسخ، لونه مثل اللون الذي يكتسبه الماء عندما ينقع فيه الحذاءون جلد النعال. مدد قدميه على النجيلة. تقافزت بالقرب منه بعض العصافير.. تحرك رؤوسها بسرعة.. ترفرف على ارتفاع منخفض وتحط ثانية.. اقتربت من سور الأسلاك الشائكة، الذي يحيط بالمعسكر.. سرعان ما رفرفت بأجنحتها.. وطارت في الفضاء الرحب.

ردد في ذهنه مقطع شعري، سمعه من فؤاد حداد في معتقل واحة الخارجة: ملكني.. لكنني البراح..



الشتلات انتصبت..

رقص قلبه من الفرحة.

أمسك نفسه، حتى لا تتماذي، وتساءل..

أهو انتصاب الراحة في التربة، وامتداد الجذور إلى الماء..

أم هي الصحوة قبل الذبول، وهو الانتصاب قبل الانكسار.

اصبر قليلاً.. وسوف تري..

لا. لقد انتصبت هكذا بالقرب من القناة. الأرض تشبه الأرض.

تشبه..؟!..

إنها امتداد لها، وما القناة إلا عارض، وباله من عارض. كثيراً ما

ارتاحت نفسه، وهو يتأمل زرقة مياهها، يحف بها السلام والدعة. وصفاء

السماء، يحنو عليها. ولا ينسى منظر مراكب العالم، يراها وهو قادم من

بعيد في اتجاه القناة..

كم من المصريين نفقوا وهو يشقون هذه القناة.. وكم ينفقون الآن

وهم يحرسونها.

انتصبت الشتلات.. ولم تعباً بالقذائف المتبادلة، عبر القناة،

تحاول أن تطول المتخندقين خلف السواتر الترابية والرملية، على

الضفتين.

بغته، تحول القصف المتبادل، إلى قصفة هائلة، قام بها ما يقرب من

ألف مدفع، جعلت من المستحيل على أي شخص أن يرفع رأسه في

الضفة الشرقية، أو يطل من أي مزغل للرؤية.

وعقد ديان، الذي عاد وزيراً للدفاع، مؤتمراً صحفياً. كان جهماً، وأعلن أنه لا بد من القيام بانسحاب كبير إلى عمق سيناء. وواجهه الصحفيون بما ترده عن انهيار «جونين» فائد جبهة سيناء. اكتفى بالقول أن الموقف صعب.

وحين التقى هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي، اللواء محمد عبد الغنى الجمسى، بعد الحرب، قال كيسنجر ضاحكاً:

- هل تعلم أين تلقيت خبر اندلاع الحرب...؟!!

ابتسم الجمسى وقال:

- فى فندق والدورف استوريا بنيويورك.

- حتى هذه «جنرال»؟!!

فالجمسى، كرئيس للعمليات، لم يدرس فقط حركة المياه فى القناة من مد وجزر، لاختيار أنسب الأوقات لنزول القوارب المطاطية المحملة بالجنود، ولم يختار الساعة الثانية بعد الظهر، ليخالف الموعد التقليدي للهجوم مع أول ضوء. كان الأهم (من ذلك، أين سيكون كيسنجر عندما يصله النبأ...؟!!) وقدر أن تكون نيويورك قد تخطت منتصف الليل، حين يصله الخبر، ولن تتمكن عربته من السير بسرعة فى شوارعها المزدحمة، ليصل إلى البيت الأبيض، وحتى يتصل بوزارة الدفاع، وحتى يقيمون الموقف ستمضى عدة ساعات..) الجيش المصرى فى حاجة إليها، ليكمل عبوره وعندما يصلون إلى اتخاذ اجراء، يكون الليل قد دخل فى مصر، والنهار طلع فى أمريكا وحين يكون الضباط الأمريكيون فى الحمامات، تكون الدبابات المصرية قد أكملت عبورها وترس الجيش المصرى فى سيناء.

وعندما علم الأمريكيون أن ديان اقترح انسحاباً كبيراً إلى عمق سيناء، فرملوا انسحابه، وأرسلوا بعض كبار ضباطهم لحث الإسرائيليين على

التماسك، وشجعوهم على القيام بهجوم مضاد، وصنعوا جسراً جويّاً حمل إلى العريش دبابات وطائرات لم تستخدم من قبل... ورغم إحساس حمدي، بما أحس به الناس من فرح، إلا أنه كان في قرار نفسه.. يحس بغبن ما.. هل قدره أن يشارك في حربى 56، 67 حيث الهزائم ولا يشارك في حرب 73 حيث النصر.. أي قدر هذا؟! سأل عن سعد الدرى، فأخبروه أنه لم يحضر اليوم. ألقى نظرة على الأغوار القريبة.. أطل في النخس الذى اعتاد أن يشرب الشاي فيه. لا أثر له والعربة مركونة في جانب. هم بسؤال ندا، لكنه تراجع. هكذا أنت يا سعد.. عندما يريدك المرء، حتى لمصلحتك، لا يجذك. أرسل له محمد عايش مبكراً، فاغتسل سريعاً، وذهب إليه. كان الهواء منعماً في الصباح، وبحر العريش، شفاف الاخضرار، تتدلل مياهه على ألسنة الشاطئ. استقبله عايش منتصباً بقامته القصيرة المتينة. إذن فقد استعاد عافيته. وأسفرت عضون وجهه عن ابتسامة مرحبة. نفس الابتسامة، حين رأى الشتلات قد اشدت عند ضفة القناة، لم يشأ ساعتها أن يشرح له ما فعله. قلم الزوائد، وأبقى على الساق من زرع الوادي، وعليها فقط فرع مقلم من شتلة سيناء.

قال عايش :

- على وشك أن تزهر.

ربت حمدي يمينه على كتفه البعيد وأودع ظهره في صدره وقال :

- عما قريب تذوق ثمارها.

أشار عايش إلى سيناء، حيث المواقع الإسرائيلية :

~ يا هناء من يعيش...!!

أدرك حمدي من بشاشته، أن وساطته قد نجحت. سأل :

- وافقوا...؟

هز رأسه بالإيجاب، وصفق فحضرت صينية الشاي. قال حمدي :

- بقي لنا طلب بسيط

تطلع عايش إليه، وقد ضاقت حلقته. استمر حمدي :

- أنت والد العريس

خفض عايش بصره، وقد اغرورقت عيناه الصغيرتان. أردف حمدي،
كأنما يستدرك شيئاً فاته :

- بل والدنا جميعاً.

ركن حمدي في الخصر الذي يتناولون فيه الشاي. مهما غرب سعد
وشرق، لن يغيب كثيراً عن ندا. فوجئ بها تدخل وقد حملت صينية
الشاي. كاد أن يقول، هذا ما أردته وفي هذه الساعة بالذات. وغط في
سره سعداً عليها. تناول منها الصينية، وإذا بسعد أمامه. رفع ناظره في
دهشة. جلجلت ضحكة سعد، أغلب الظن، متوهماً، حتى لا يسأله عن
غيابه. قال :

- حماتي تحبني.

ما زال حمدي مأخوذاً، من توقيت حضوره، وتساءل.. تري.. هل
لمحنته ندا قادمًا من بعيد... فأعدت الصينية. قال سعد :

- تبحث عني..؟!

لم يغادر حمدي، ضيقه، من عدم تواجده، لحظة أن أراده، فقال :

- لا تملئ بالروية..!!

جلجلت ضحكة سعد ثانية، مفوتة عليه غرضه، وانسحبت ندا، متيحةً
لهما الفرصة للكلام. ناوله سعد لفة في ورق جرائد، سرعان ما فاحت
منها رائحة شواء سمك.

- رشوة..

- توقف بالله عليك.. وطمئني..

أثرت فيه لهجته، فذهب غضبه وقال :
- أدع لعائش.

قفز سعد طائراً وغادر الخصر، هز حمدي رأسه في أسى.. لم تتح له الظروف قبلاً مرة واحدة شكره. سمع باسمه أول مرة من صفوف صبور. والمرة الثانية، حين كان يمشى في الأرض قلقاً، يتفحص الزرع. لحظه قائد الموقع الذي يزرع أرضه جواره، فأسر له بحاجته إلى شتلات نوز من سيناء. تفكر القائد قليلاً، وقال :

- منى.. حين يحضر محمد عائش
ظنه يسخر منه. هل يحدثه حقاً وهو المشغول بتأمين، قواته، في الطرق
والمدقات الوعرة، إلى مواقع الإسرائيليين.
سأل وهو يديق في عينيه :
- الدليل..

- نعم
ويبدو أن القائد، لمح تساؤلاً شاكاً.. عالقاً في وجهه، فأردف :
- إذا لم يتمكن.. عندنا أدلاء آخرون.

عندئذ زال شكه، وتأكد من جدية القائد. وتأكد أكثر، حين أرسل في طلبه، وأخبره أن يسرع للقاء صفوف صبور، قبل انتهاء موعد تصريحه بالغياب عن وحدته، وأن عنده من يود لقاءه. ووصف له بيته في الإسماعيلية، أسرعت دقات قلبه وخمن أنه لا شك محمد عائش، وأنه لابد قد أحضر ما طلبه. وعندما وصل إلى البيت، كانا قد غادرا. استقبلته صفية وعلم منها أنهم رقوها على درجة خالية في جهاز المحاسبات بالمنصورة، وأنها غالباً تقضى الخميس والجمعة في الإسماعيلية. ولا يدري لماذا ذكرته بشجرة الأكاسيا. هل لأنها هيفاء، كجذعها، أم لأن شعرها تدلى فيما يشبه صفائر، كثيرة ومتنوعة، غطت رقبتها كفروع الشجرة الفارحة، ذات الأوراق الصغيرة، تهمس حين تتخللها الريح.

لم تبد حياةً كاذباً، وتعذر عن استقباله. رحبت به في تحفظ، وأحضرت
لفة في ورق جرائد، أطلت أجزاء من جذورها البائنة في تربة متماسكة
بالكاد، من جهة، وأطلت ذواباتها من جهة أخرى. نقل بصره بين طلعتها
المشرقة، وبين ما تحمله، وأسعفه النطق :

- محمد عايش..!؟

هزت رأسها، وانحنى تضع اللفة على ترابيزة واطئة، عن كراسي الطقم
الأسيرى، فبانت معالم نديها، لينة، حافية، لبنية، مشربة بالسمره.
استأذنت، كأنما ترفقاً به، لتحضر له شيئاً يشربه. اعتذرت، واعدت
بالحضور مرة أخرى، حين يكون صفوت موجوداً. جاء صوتها، في نغمة
ودفء فروة قطنة:

- تشرف.

شكرها، فأردفت :

- الرئيس عايش يود، معرفة النتيجة.

أولته ظهرها، تقوده إلى الباب. خمن تحت الثوب ردفين أثيين.
هل عايش الذي يود معرفة النتيجة، أم هي التي تود أن تعرف.. أو
بالأحرى تود له أن يتصل.. أم لا هذا ولا ذاك..

انساب صوت راديو على البعد.. أنا قلبى إليك ميا.. يا سلام يا

فايزة

غادر، منغمماً، ولم يستطع التملّي في العينين. حملها سلامه لصفوت،
قبل أن يمد يده بالسلام.

أنزله الباص بالقرب من الطريق المؤدية إلى الأرض. انتظر مرور
سيارة عسكرية تأخذه في طريقها. بعد قليل خشي على ما يحمل، من
شمس أخذت تسخو بها ليدها. أحاط اللفة بيمينه ضاماً إياها إلى صدره،
محاذراً انفراط التربة المحيطة بالجذور والملفوفة بقش أرز أصفر، وحاذياً
بجذعه، حتى لا ترى الأشعة ما ظهر من الجذور.

توكل مشيًا على قدميه، وقد خفت من وحشته، بضعة من أشجار النخيل، تآثرت في الجنبات، وهذه أكاسيا إن لم يخني النظر، ودَّ لو يستريح في ظلها قليلا. خاف من الكسل، وأن تسخو الشمس أكثر، فواصل المسير، وهو يستشعر، رغم البعد، نسمات طرية، تنساب من بين فروع الأكاسيا. وحين عبق الجو برائحة زهور الفواكه، أيقن أنه اقترب من منطقة الحدائق. ما ضر لو ركن قليلا.

حط طائر العريش زاهي الألوان في حجم العصفور، بين الأشجار.. ولم يلبث أن حط جواره طائر آخر.. رمادي اللون، أكبر قليلا.. خطر ممسكا في منقاره زهوراً بنفسجية وحمراء.. ذكر طائر العريش، فيما يبدو.. والأنثى لا تطاوعه.. طار.. وحين عاد كان في منقاره زهور من الياسمين، بأوراقها البيضاء الدقيقة.

مشيت الأنثى في دلال.. وعندما طار ثانية، لم تتبعه.. سرعان ما عاود، وفي منقاره، عيدان خضراء.. خطر أمامها.. بلوح بما في منقاره، وطار. رفرفت بجناحيها في تكاسل، وبعد قليل حلقت في اتجاهه.

أخذ حمدي يتخيل شكل العريش، وقد ازدان بزهور حمراء وبفسجية، وبالياسمين والعيدان الخضراء.. والأنثى تتبخر، في المدخل بالوانها الزاهية، تتأمل تنسيق العريش، فإذا أعجبها، دخلت...



سار على قدميه، في الطريق المسفلت، الذي يحده العريش من الشرق. اقترب من مزرعة الزيتون، إلى يساره، يظاهاه البحر، تنسم عبق الشجر، وقد فعلت فيه شمس الضحى، وحمله هواء الشاب الرملية من الجنوب والشرق.

لم تمكنه المرأة من لمس ثمرة، جاعلة بينه وبينهما مسافة. عليه فقط أن يشير. كانت من الخفة، بحيث حُيل إليه أنها بمجرد وضع راحتها تحت الثمرة، تسقط وحدها. ذكرته بخفة نداء، لكن شتان، فهذه حقيقة، تائهة داخل جلبابها الأسود. حاول مساومتها. هزت رأسها في رفض، لا يخلو من رقة، فمد يده بالثمن الذي طلبته.

دفع بابًا خشبيًا جوار المزرعة، فأحدثت مفصلاتته صريرًا، وناول الجرذل لأحد العمال. أفرغ الثمار في غربال من السلك، دون أن يصغي لكلامه، أنها متقاة، وليست بها واحدة معطوبة. غمر الغربال في حوض به ماء، عدة مرات، ووضع تحت رشاش من الماء. ناوله لعامل آخر، أفرغ الزيتون في طاحونة حجرية، أدارها بكلتا يديه، محاذراً أن تنكسر النواة. حمل الثمار المهروسة إلى أبراش، أغلب الظن، مجدولة من الحلفا. رص الأبراش فوق بعضها بعضاً، لكبسها بمكبس، لا يعرف، إن كان حجرًا، أو معدنيًا، فسماره لا يبين.

صرت مفصلة الباب، فالتفت بسرعة، ظانًا الباشمهندس استغيبه، فجاء. رأي من فرجة الباب «خيال مآته» بين أشجار الزيتون، ذكره

بخيال المآته ذى الدوائر السوداء، الذي كان الإسرائيليون يطلقون عليه الرصاص، فوق الساتر التراي.

فى الثامنة مساء السابع من أكتوبر، علموا أن فجوة أمامهم فى الساتر التراي تسمح بعبور الدبابات. كانوا حتى هذه الساعة لم يتعرضوا للمعاكسة جدية من الإسرائيليين، مما أثار الهواجس فى نفوسهم. ركبوا الدبابات، كانت دبابة التاسعة، فى فصيلته المؤلفة من عشر دبابات. وجدوا الطريق المؤدية إلى المعبر مشغولة بالقنارات. لجأوا إلى الطريق الاحتياطية، كما أخبروهم فى التدريب.

وسرعان ما جاءتهم أوامر بالانتشار. بعد نصف ساعة، قامت دبابة بالاستطلاع.

علموا أن الدبابات الإسرائيلية قصفت المعبر، وأن برطومين من مكوناته، وقفنا على جنبيهما.

زارت المدفعية المصرية فى منطقة المعبر، فخمّنوا أنها تغطي تقدم المهندسين لإصلاحه. ورأوا عربة المهندسين تقترب بظهرها من حافة القناة، لتسقط القطعتين المطلوبتين فى الماء. بعد ما يقرب من عشرين دقيقة، أبلغوا أن الكوبري تم إصلاحه. تقدمت السرية. سمع سعد فى اللاسلكي. الهلمت على أذنيه، وفاتح على الخارج ليكون فى الصورة. سمع أن دبابتين من دباباتهم على الضفة الشرقية، أصيبتا بصاروخين، وكأنه لم يسمع شيئاً، لم يبلغ أفراد الفصيلة، حتى لا تضعف روحهم المعنوية. وباقى الدبابات تتقدم، طلب منهم عقيد شرطة عسكرية، أن يتصرفوا قليلاً، وسمح لكتيبة من الدفاع الجوى أن تتقدم أولاً.

- يا أفندم ستأخر عن موعدنا.

علموا أن معبراً آخر أصيب، وجاءت قواته لتعبر من هذا المعبر، وعبور هذه الكتيبة ضروري قبلهم. نحملوا الانتظار وأعصابهم تحترق.

خرج سعد من الدبابة ومدارياً في جنبها أشعل سيجارة، كور راحته حول شعلتها. فالأوامر تقضي بمنع أية إشارات أو ضوء، خاصة والليل دخل. باستثناء ضابط الشرطة العسكرية، الذي يمسك عصاً تشع ضوءاً من مقدمتها، لمدة ثوان، ويتغير لونه تبعاً لنوع القوات التي يشير إليها، لتأخذ دورها في العبور. ويقف جواره ضابط مهندس، مستعد لأي طارئ. أشار لهم الضابط بالتقدم، أطفأ سعد سيجارته بسرعة، وقفز إلى دبابته، وقمت الدبابة التي خلفه في حفرة، أحدثتها قذيفة زنة ألف رطل. طلب قائد الفصيلة من سعد، وكان ساعاتها، قائد دبابته، أن يعود ليسحبها فرفض.

- نفذ الأمر.

- آسف.. توجد دبابة نجدة في الجيش، تأتي وتسحبها. وذكره بقول قائد الكتيبة : أنت وحدة مستقلة، ولا يشغلك أي شيء عن الحرب.

- نفذ الأمر.. أنا مسئول الفصيلة.

- مهمتي أن أحارب فقط

غادر الملازم أول الدبابة، وركب دبابة أخرى، وذهب لسحب الدبابة الواقعة، بينما تقدم سعد بدبابته، لم يستطع الملازم جر الدبابة، وتعطلت دبابتان. عندما وصل سعد إلى المعبر، كانت باقي الفصيلة قد عبرت. أخروه قليلاً، قبل أن يسمحوا له بالعبور.

قذيفة مباشرة حطمت برطومة. تقدم المهندسون لإصلاحها، وارتد سعد بدبابته إلى الخلف، محاولاً الاحتماء في أحد نتوءات الأرض، رجع المهندسون بسرعة. إسرائيلي خلف مدفع نصف بوصة، يطلق من أحد حصون خط بارليف المطلة على المعبر. وجهت المدفعية المصرية قذائفها إلى مصدر النيران، وعاد المهندسون إلى عملهم.

تقدم سعد بدبابته شرقاً، فلم يعثر لباقي الفصيلة على أثر، تقدم عدة كيلو مترات دون جدوى. سعد ينادي باللاسلكي على قيادة السرية، على قيادة الكتيبة، على قيادة اللواء.. صمت تام. خشى أن يرسل أية إشارة ضوئية، خوفاً من صواريخ ومدفعية العدو. لا يدري كم أحرق من السجائر، وعندما تعب من النداء، أعطي الهلمت لزميله، وقال له أن يستمر في النداء. عند منتصف الليل، رد قائد السرية، فطلب منه سعد أن يحدد موقعه.

- لا.. اطلق أنت طلقة حمراء.

أطلق ما أراد، وقال :

- حدد موقعك يا أفندم.

- لا.. سأطلق طلقتين بيضاوين، متابعتين، اعرف مكاني واحضر فوراً.

تحرك سعد بأقصى سرعة، فور رؤية الطلقة الأولى، ليكون قبل الثانية هناك.

وجدناهم جهزوا لنا مكاناً. أعطونا الكواريك لعمل مهجع للدبابة، وتمويهها جيداً، استعداداً للصباح وقد توقع الجميع أن تكون معركة شرسة.

أعطى سعد تماماً لقائد السرية بما حدث من ضابط الفصيلة، فقال:

- طول عمره هكذا.

عُين سعد وسائق دبابة أخرى خدمة لما بقي من الليل، فأسرعاً لأخذ قسط من الراحة، قبل الثوبة وأخذ يراجع موقفه من الضابط. وجد نفسه على حق.

والآن لا يجب أن أفكر في شيء.. لقد عبرنا وانتهي الأمر، وليحدث ما يحدث. رفع العامل رأسه أخيراً. وضع الزيت في برميل به ماء، ليفصل

الشوائب العالقة به. طلب منه وعاء، ناوله جركناً بلاستيكيًا. فتح العامل صنوبراً علويًا في البرميل. نزل الزيت رائقًا، صافيًا، كأنه ماء من الذهب. وزحزح بإحدى قدميه جردلاً بجانب البرميل، وفتح صنوبراً سفليًا، فتدفق الماء.

نقط من الماء فوق صفحة وجهه. هب من النوم وهو لا يدري كيف غلبه النعاس. والمعمّر يضحك، بينما يدوي القصف المدفعي والصاروخي. انتفض سعد مسرعًا، وزحف مع المعمّر تحت دبابته، وكذا فعل باقي الزملاء. نظر سعد إلى ساعته على وميض القصف. الرابعة والنصف، والشطايا تتناثر حولهم. جاء صوت قائد السرية ضاحكًا في الهاتف :
- يقصفون حصون خط بارليف، ظناً منهم أننا نبيت داخلها.

أخبرهم سعد بما سمعه، فانطلقت ضحكاتهم، تدفع الدفء في أجسادهم، وشيئًا من المرح في نفوسهم، في رطوبة البكور. حاولوا الدخول إلى الدبابات. كلما هموا تناثرت حولهم الشطايا، وطلقات المدافع. نظروا في وجوه بعضهم. لا بد من الدخول، فربما صدر الأمر بالتحرك. مد سعد يده لرفع شبكة التمويه. لم يكد يلمسها، وإذا بصاروخ 240 مللي يمر جواره. انبطح أرضاً فورًا. تتبع بعينه الصاروخ، الذي يشبه طائرة صغيرة، خمن أنه في طريقه لحصن الفردان.

سمع في اللاسلكي أن لواءً مدرعاً للإسرائيليين يتقدم في اتجاههم. وقد أرسل مفرزة للأمام لجس النبض. أمرهم قائد السرية بالاستعداد للتعامل معها.

في لمح البصر كانوا داخل الدبابات. لا يدرون كيف حدث هذا رغم الشطايا والقنابل. وأخذت فصيلته مواقع للقصف، ونحسر سعد.. نحن نسمع دبابات.. آه لو كنا إحدى عشرة دبابة، لزادت كثافة النيران.

أعد المعمر الدانات جواره، وحشا مدفعه، فغياب الضابط جعله يقوم بمهمتي المعمر والقاذف معاً. ونادي أفراد فصيلته في اللاسلكي :

- يا جماعة.. نريد المطلقه بدبابه.. رجاء ألا تهيف طلقة واحدة.

دمروا سبع دبابات، وانسحبت خمس. هم تشكيلهم اثنتا عشرة دبابة في الفصيلة. أعطى قائد سريتهم تاما لقائد الكتيبة، وسرعان ما جاءهم صوته مهتأ، فقد كان يراقب الضرب من مكمنه.

وبينما يأخذون أماكن استعداد جديدة، فوجئوا بدبابات فصيلة أخرى تشتعل بالنيران. كانوا علي بطن تبة. آه. في الموقع الخاطيء. كان ينبغي أن تكون التبة سائراً لهم بدلاً من اعتلاتها. رآها العدو فرصة فالتهمهم. بقيت ثلاث دبابات. صدر لهم الأمر بإصلاح موقفهم.

أذنا سعد على اللاسلكي، وهو لا يري كيف سيمر النهار. سمع قائد الكتيبة ينادي قائد اللواء :

- سيادة العميد جورج، أعلم أنك معلمي، بعد إذن سيادتك، العدو ثبت نيراناً في الأمام وسوف يتقدم من الجنين.
-.. شكراً يا معدوح.

ومن أين يرجعك. تقدمت دبابات اللواء كلها، وصنعت منطقة قتل للعدو المتقدم. انتظروهم، حتى تقدموا بثقة، وقد ظنوا أن النيران التي ثبتوها في الأمام، ستجعلهم يرجحون أن هذه طريق الهجوم الرئيسية. سمعوا طلقات مكتومة، فأدركوا أن الدبابات في مواجهة بعضها.

أبصر سعد أمامه، في مساحة لا تتجاوز كيلو متراً مربعاً، أكثر من ثلاثين دبابة للجانبين، تبارز بالمدافع. طلب قائد السرية من فصيلة سعد أن تلزم أماكنها ولا تشترك في القتال، وأن تراقب الموقف، وأي دبابة إسرائيلية تنجو، وتحاول المرور وسط خطوطهم، يدمرونها فوراً. بعض أفراد يطيحون بأبراج الدبابات ويقفزون هرباً من النار المشتعلة، فأطلقوا

عليهم قذائف ش ف الخاصة بالأفراد. لمح سعد دبابة ياتون تقترب من جنبه الأيمن..

رتب المعمر القذائف جواره. وضع قذيفة ش ف المضادة للأفراد، في متناوله، ليعالجهم بها، لو خرج طقمها من البرج بعد القصف، وتردد.. هل يقدفها بقذيفة خارقة للدروع، تحيله إلى عجينة. خشى إن فعل ذلك، أن يعطي فرصة للأفراد، للقفز منها، قبل أن ينالهم، وقد يحدثون اضطراباً بين فصيلته. توكل، وعمر مدفعه بقذيفة «سابو» التي تنفذ من الدرع وتعربد في الداخل، فلا تعطيههم أية فرصة. انتظر حتى أصبحت الدبابة في جيبه.

شاهدها تشتعل، ومدفعها عيار 101 مللي يلتوي كعود من البوص. نصف ساعة، من تصادم الصلب الرهيب. وعندما جاء المساء، أعلنهم قائد الكتيبة، أنه تم أسر قائد اللواء المهاجم. أغلب دبابات اللواء تم تدميرها، وبقيت عدة دبابات سليمة، أسروا أطقمها، وطلب القائد تدمير عدة أفراد، لتوصيلهم إلى المؤخرة في الغرب. ودفنوا جثث العدو خشية انتعفن والأوبئة. دفع سعد الباب برفق، فلم يحدث صريراً. عبقته رائحة أشجار الزيتون. إحداها أطلت بفروعها، فوق سور أبيض لا يصل إلى نصف قامته. أمسك بغصن.



عيشت أصابع حمدي بلفة السمك. أحس فجأة بالجوع. سعد..
وقد التقى نداء، ينسى نفسه. وهو يقشر السمك، طالعته بعض العناوين.
لفت أحدها نظره. «أحمد بهاء الدين» يعالج في مستشفى البحرية
الأمريكية.

ذات صباح في الأسر، فوجئوا، بصفحتين معلقتين، على باب المعسكر
من الداخل. الصفحتان متزعتان من مجلة «المصور» المصرية، وبهما
مقال لـ «أحمد بهاء الدين»: تجمع الأسري، بفضول شديد، فمنذ أسرهم،
لم يطالعوا صحيفة أو مجلة مصرية.

أرجع الكاتب، سبب هزيمة حرب 67، إلى الفارق الحضاري بين
مصر وإسرائيل.

انصرفنا، والسؤال يلح علينا :

- لماذا هذا المقال بالذات..؟!

وعلق أحد الزملاء :

- علقوه لأن فيه مصلحة لنا..

خطر في باله الهواري، ترحم عليه. كان معجبًا بالكاتب.. لو كان معنا،
ربما فاز هذه المرة، وقتها، على ما يذكر حمدي، كان معجبًا بالمقال،
فالكاتب يسوق حججه بترتيب مقنع. ومن المنطقي أن يهزم المتحضر
المتخلف. ولكن هل تستطيع أن تجيبي يا هواري.. كيف انتصر علينا
الهكسوس، وكانوا بدوًا رعاة.. ١٤٠ وكنا سادة العالم القديم كله. أترك
تقول :

«امتلكوا وسيلة واحدة، تفوقوا بها علينا. العرب الحربية، وكانوا قد عرفوا الحصان، دبابة ذلك الزمان، قبلنا. وعندما عرفناهما طردناهم من بلادنا».

ويبدو أنهم اهتموا إلى سبيكة معدنية صنعوا منها أسلحة أصلب مما في يد المصريين.

لكن.. ماذا امتلك الإسرائيليون في عام 48 وتفوقوا به على العرب...؟!؟

هل هو سلاح الهدنة التي يفرضها مجلس الأمن على العرب، بمؤازرة أمريكا وبريطانيا. كلما أوشك العرب على دحر الإسرائيليين.. والغريب أن يوشك العرب على ذلك رغم عدم استعدادهم، ففي مصر، كان النفراشي رئيس الوزراء، لا يريد دخول الحرب، فمعاير الجيش على قناة السويس، يحرسها البريطانيون، المعسكرون في قاعدتهم بالقناة، ويستطيعون تهديد إمداداته في أي وقت. وكان الجيش يتسلح بدبابات قديمة وعربات تم إصلاحها بقطع غيار من وكالة البلح بروض الفرج، وأثناء المعارك كانت تتوقف المحركات، لضعف البطاريات. أما عن خبرة الجيش بالحرب الحديثة، فهو لم يدخل أية معركة منذ الحرب في إفريقيا أيام الخديو إسماعيل، وتشرف على تدريبه وتسليحه بعثة إنجليزية من قوات الاحتلال..!!

لكن اجتماعًا مفاجئًا، عقده الملك فاروق مع الرؤساء العرب في مزرعته بأنشاص، لم يحضره أي مسئول مصري، ولا حتى رئيس الوزراء، صدر بعده الأمر بدخول الحرب..!!

وصلت القوات المصرية إلى أشدود في الشمال وإلى بئر سبع، وبيت لحم في الشرق، وهكذا شطرت شمال إسرائيل عن جنوبها، واستولت

القوات الأردنية على ضفة نهر الأردن الغربية، وعلى اللد والرملة، وأصبح العراقيون وباقي القوات العربية على مشارف تل أفيف (تل أبيب)..
هدنة...

التزم العرب بوقف القتال، وانتهز الإسرائيليون الفرصة.. حصلوا على أسلحة جديدة، وانتزعوا أحد المواقع، وسارعوا بإبلاغ مندوب الهدنة أن الموقع تابع لهم..
هدنة..

أغار الإسرائيليون على قوافل الإمداد والتموين، وذبحوا رجالها حيث تسليحهم بسيط..
هدنة..

حاصر الإسرائيليون اللد والرملة، فانسحب منها الجيش الأردني الذي يقوده الإنجليزي جلوب دون قتال.. !!

الآن أستطيع أن أفحمك يا هوزي، وأقول لك، لماذا احتفوا بهذا المقال.. أيستغرق منك الأمر ما يقرب من عشرين عامًا.. حتى تفهم سبب تعليق مقال.. وضحك ساخرًا من نفسه. الفجوة الحضارية ستظل بيننا قائمة، نحن دولة تسمي بالنامية.. نموها بطيء، وهم دولة تسمي عصرية.. نموها سريع.. أي ستظل الهزيمة مكتوبة علينا..

لكن لماذا هم أكثر تقدمًا منا.. هل عدد المتعلمين عندهم أكثر..؟
إن عدد طلبة الجامعات عندنا يوازي عدد سكان إسرائيل تقريبًا.. وعندنا علماء مشهورون.. أحد علماء برنامج هبوط الأمريكان على القمر مصري.. أحسن طبيب قلب في إنجلترا مصري.. أين الخلل إذن..؟!..
هل هو في توظيف قدراتنا؟

نفذ يمانه إلى أعلى وقد انخرست فيها شوكة سلسلة ظهر سمكة. كاد يقضي على نصيب سعد. لفه يسراه، ونهض ليبحث عن ماء، يشطف يده،

خاصة، وقد انبثقت قطرة من الدم حينما نزع الشوكة. داعياً الله في سره،
ألا يحدث تلوث، فلا توجد مستشفى، أو صيدلية، قريبة من مكانه.

أخذ حمدي وزميل له، أحد العاملين في المطبخ إلى العيادة. احترق
ذراعه من هبة نار من الموقد. قعدوا على دكة، أمامهم ترايزة خشبية، في
انتظار الممرض الإسرائيلي. انحني الزميل. تفحص أسفل الترايزة وهما
ينهيانه، ليكف عن فضوله. اعتدل وقال :

- قطعة من شنبر مستعرضة، بين القائم والترصة، عندنا..
قاطعاه :

- اسكت يا نجار الغبراء

ضحكوا، وقد ركنوا على الترايزة بأكواعهم. فانشئت رجلاها، في
مواجهتهم، وسقطوا على الأرض. غضب الممرض. طلب من الحارس
أن يعود بهم إلى العنبر. لفا الذراع المحترق بخرقه متزعة من كفه.
بعد إغلاق العنابر في المساء، أحس عامل المطبخ بألم شديد. تحسس
حمدي ذراعه، فاقشعر جسده، ويده تمر فوق فقاقيع مائية. نادي الزملاء.
تخبطوا في الظلام في الطريق إلى الباب وخبطوا بأكفهم. صاح الحارس
بلهجة فلسطينية:

- ماذا تريد يا أخا «الشمروطة».

- مريض

- في الصباح

عاودا الخبط على الباب. سرعان ما حضر الضابط النوبتجي ومعه
حارسان. سلط أحدهما كشاف ضوء قوياً داخل العنبر. صاح الحارس
ذو اللهجة الفلسطينية:

- وينو (أين) فرج أخته المريض.

رفع المريض ذراعه المحترق. فجأة انقطع التيار الكهربائي.

دفعوا المريض داخل العنبر وأغلقوا الباب. وانطلقت طلقات الرصاص بشكل محموم، واخترقت بعضها الجدران الخشبية، فانبطحوا جميعاً على الأرض.

حين عاد التيار، بعدما يقرب من ساعة، عاودوا الخبط على الباب، أجاب الحارس، بقذف قطع من الحجارة فوق سطح العنبر، سرعان ما تندرج، فوق الصاج المخروطي المضلع إلى الأرض.

في الصباح سمحوا لزميل واحد باصطحابه إلى العيادة. وعندما عاد وحده، انضوا حوله يسألونه عن حال زميلهم. أراهم قطعة من السلك، تخلفت عن إصلاح عطل الأمس، تحسس مقدمتها بباطن العقلة الأولى من سبابة يمينه. لامس ثلاثة فروع عارية، أطلت من غلافها البلاستيكي وقال :

- عندنا لا نضع حزمة السلك أقل من خمسة فروع، انفجر حمدي في غيظ:

- لا نسالك عن هذا.

لمح ندا وسعد قادمين، أوماً لسعد ناحية الخصى. لحظت ندا يديه، فأسرعت لإحضار ماء إليه. جفف يديه في منديلته، ومشى بعيداً عن الخصى.. طالعت أشجار اليوسفي، على تلال غير متساوية في الارتفاع، وخلفها بالقرب من الشاطئ، نمايل سعف النخيل، لاحت له النخيل في الأسفل، فبانت براعم البلح وقد بدأت تميل من الاخضرار إلى الاحمرار، والجداول الحاملة بدأت تميل إلى الاصفرار.

وتساءل: أين الجمال..؟!

كان رجال الهجانة، يربطون جمالهم إلى جذوع النخيل. يتنظر حمدي وزملاؤه حتى يتصرفوا، ثم يركنون على جذوع النخيل وقد امتدت سيقانهم أمامهم، يتأملون البحر. وحين يحسون بتنميل في أجسادهم، ينهضون في

تكاسل، ويدفعون باب أقرب «فيلا» إليهم، لم تكن مسكوكة. فليس فيها ما يخشي عليه.. ثم من الذي سيحضر هنا..؟! كان من يعبر قناة السويس يحتاج إلى تصريح خاص، فسيناء كلها منطقة عسكرية. ورحلات التلاميذ إلى غزة تفتش في جمر ك الفتنة شرق.

يرقدون على الأسرة، العارية من الملاءات، يريحون جنوبهم من نومة الخيام العسكرية على الأرض. وهم يغادرون.. يضحكون.. ويتندرون.. أه.. لو رأيهم عقيد، أو عميد ممن اعتادوا الاصطياف هنا..

لاك ذهنه ما يتردد في الصحافة هذه الأيام. لا يوجد عداء أبدي. لماذا لا تقولونها صراحة، أنه لا داعي للاستمرار في عداء إسرائيل. لو لم يكن عداء المصريين للهكسوس، أبدياً، هل كانوا طردوهم من الوجه البحري، بعد أن مكثوا فيه، ما يقرب من ثلاثئة عام..؟!

تري.. هل كان كتاب ذلك الزمن، ينادون ألا نكون همجاً.. ونشن الهجمات على الهكسوس، وعلينا، كمتحضرين.. أن نكتفي فقط بالكلام والأخذ والرد..

أحس فجأة أنه مزنوق. أسرع رغماً عنه ينادي سعداً، ليأخذه إلى بيته. ينهض في الصباح، ويكون مزنوقاً، إلا أنه يتحايّل على نفسه. في هذا الوقت تكون دورة المياه ممثلة. في جانب من المعسكر، حفروا حفرة مستطيلة، وضعوا على جانبيها ألواحاً من الخشب. بكل جانب عشر عيون. وحين حضرهم الشتاء، سورروها بصاج مضلع فحجبت من بداخلها عن العيون في الخارج. ولكن، ظل الهواء يسف من تحت الصاج فترتعش أجسادهم، ويعوقهم، مع المطر الذي يهطل فوق رؤوسهم، فينهضون في ضيق.

كان حمدي ينتظر حتى الضحى، ومع ذلك يجد من فعل مثله.. فيدخل وأمره لهُ.. يجلس في جانب.. محاولاً أن يغفل عما حوله..

يتنبه فجأة على من يجلس على العين قبلته. يضح يديه أمام عورته، ومحاذراً النظر في عيني من يواجهه، وسارحاً بقدر الإمكان، حتى لا يرى عورته، أو يراه وهو يفعل. ينظف بورقة من شيكارة قديمة، أو ورقة منتزعة من إحدى ألعاب الكرتونية في المطبخ، بعد أن يحيلها إلى رقائق.. ولم يكن له حيلة مع قدميه العاريتين. كثيرون أصيبوا بإسهال.. ودوستاريا.. وأبلغوا الصليب الأحمر بذلك. بعدها حضر ممرض ووزع عليهم حبرياً زرقاء، علموا أنها لمقاومة الدوستاريا. ولم يستجيبوا لطلبهم توصيل المياه إلى المراحيض. طلبوا مقابلة مندوب الصليب الأحمر. فوجئ حمدي بالعربة تقف خلفه، انتفض وقال :
- في عرض النبي زمر.

ركب بسرعة جوار سعد. لمح طائر الرفراف، بلونه الذي لا يبين من السماء، لولا بقع سوداء على رأسه، واقفاً في الجو كالهليكوبتر، محركاً جناحيه بسرعة. عادةً يفعل ذلك عند البحر، حتى يلمح سمكة فينقض عليها. تري.. لماذا يفعل ذلك بعيداً عن البحر.. ؟!



دقات عجلي على الباب فى البكور. تمطي حمدي، مصدرًا صوتًا،
يطارد الوخم. وإزاء إلحاح الطارق، فرك عينيه، ومشى إلى الباب.. اللهم
اجعله خيرًا.

- من طرف محمد عايش.

- تفضل..

اعتذر الطارق عن الدخول، وأبلغه أن محمد عايش، أصيب بـ
وإسهال، ويستريحونه فى العربة، لنقله إلى المستشفى.
- لحظة واحدة.

أسرع إلى تشطيف وجهه.. كيف أتصل بسعد الآن. ليس عنده تليفون
فى الاستراحة.

إذا ذهبنا مشياً.. قد يستغيثنا.. دس قدميه فى بنطلونه.. مبنى المحافظة
قريب.. هناك ألتقط أي سائق معرفة..

سارا، وهو يقنع نفسه، أنه بالتأكيد سوف يتصرف.

فىء وإسهال، وضع يده على قورته. جفلت يده من شدة الحرارة.
سأله الأب، بصوت ضعيف آلمه :

- مرتفعة.

لم يستطع النطق.

بصوت متهدج :

- خذني بسرعة إلى مكتب الصحة

زاد ارتجاف جسده، وتحاشى حمدي النظر إلى عينيه. فهو يعلم، أن

الناس عند أي اشتباه، يسرعون بالمشتبه به إلى مكتب الصحة، أو إلى أقرب مستشفى. ولم يسبق أن سمعوا عن عودة أحد. وبالأمس تثار من أفواه الجيران أن رجال الشرطة حفروا حفرة كبيرة عند المقابر، رشوها بالجير الحي. وضعوا فيها الجثث، وغطوها بالجير، قبل أن يردموها بالتراب.

واليوم قبل العصر بقليل، فور خروجه من مدرسته الابتدائية، وبينما يسير بحذاء السور، صاح فيه الناس أن ابتعد. ارتبك وهو يغادر الطوار. لحظ شخصاً ممدداً، مغطي بورق الجرائد.

نهت أمه، ولم تفلح محاولتها في التماسك، بشنقت وجهها ورأسها بطريقة سوداء شفيقة، لكن حمدي زام معترضاً على ملازمتها. اتكأ أبوه على ذراعه.. مرا بالسوق، كانت الشرطة تقلب كثيراً من عربات الخضراوات والفاكهة وتعلمها.

كاد حمدي يتعثر، وقد ازداد اتكاء والده عليه. أترأها.. بسيطة ويعود به. ويعود الرجل الذي كان.. مدرس إلزامي.. حازم النظرات.. والذي لم يغفر له اللحن أثناء درس المطالعة.. فتكونت عنده سليقة تميز الصواب من الخطأ، حتى دون أن يعي السبب.

وكان يلتقط ما يحضره من جرائد ومجلات، ويراجع في سره ما تعلمه ليستوثق بنفسه.. ولم يتبه إلى أنه قد أصبح مدمناً لها.

وهل تعود الأيام، التي يغسلونها فيها، الخضراوات والفاكهة بالماء البارد، دون سلقها، ودون نقعها في الماء، وإضافة البرمنجنات التي تصبغه باللون الأحمر. ومتى يشرب من الحنفية، دون أن يغلي الماء. في مكتب الصحة، طب قلبه، والطبيب يفحص أياه. وحين رفع رأسه، أسرعت دقات قلبه، وأحس بجفاف لسانه. شيئاً فشيئاً، نشعت عينا الطبيب بإبتسامة دافئة، وقال:

- اطمئن يا حاج.. نزلة برد.

رفع الأب رأسه، وتملى حمدي في عيني الطبيب، ليتأكد أن كلماته لا تعني غير معانيها الظاهرة. وومع هذا من ابتسامته وقال :
- لا تقلق.

تبادل حمدي مع أبيه، نظرات مفعمة بالفرح، غير مصدقين، النجاة من سطوة المرض اللعين. أردف الطبيب :

- الكوليرا، ضعيفة جداً.. عصير الليمون أو الخل، يقتلها.. وقليل من الرطوبة يقضي عليها.

ولما كانوا في أواخر الصيف، فقد تطلع الجميع، لقدوم الخريف.. أو لتغير درجة الحرارة، وهم على أبوابه.

عس بعينيه أمام باب المحافظة، وهو يرجو أن تكون نزلة برد خفيفة، وتعيش يا عم عايش وتأخذ غيرها.

فجأة.. اقتربت عربة مسرعة منه، قبل أن يقفز جانباً، توقف السائق.

- لا مؤاخذه يا باشمهندس

- ألم تر سعداً

- خير أية خدمة..

- عم عايش تعبان.

لم يدعه يكمل، واستمهل لحظة. قفز من العربة، وأسر لموظف الاستعلامات في مدخل المبنى كلمتين وعاد مسرعاً.

- تحت أمرك.

عند بيت عايش، وجد سعداً، راكناً بعربته في جانب، ظنه علم بالامر وسبقه. لكن هذا بادره بالقول، أن رسولاً من المحافظة بيت عليه ليحضر مبكراً، للمشاركة في نقل وقد من الطلبة، لزيارة معالم سيناء.

وحانت منه التفاتة، إلى الطلبة المتجمعين، أمام الفندق المقابل على الشاطئ.. المشرف يحاول صفهم في طابور. وهم لا يهاودون بسهولة. أخذه والده في الصباح الباكر إلى المدرسة الابتدائية عند الكوبري السفلي، ليدخلا مبكراً قبل الزحام. لدهشتهما وجد طوابير ممتدة من الرجال والنساء، وبعضهم أمسك بأذرع الأطفال والصبية، الذين كانوا يتملصون في محاولة للإفلات، والهرب في الحوش، الذي كثيراً ما لعب فيه الاستغناء، والمسافة، وشاهد مباريات كرة القدم بين مدرسته والمدارس الأخرى قبل عامين. وامتدت الطوابير عبر البوابة الحديدية، محاذية سور المدرسة، وسور المدرسة المجاورة، حتى نهاية الشارع. وحين اقترب طابوره، لفتت نظره رخامة بيضاء في السور، عليها نقش رمادي تأسست عام 1835 م. علق أبوه ذراعه بشدة، وفي الداخل شمر كفه عن أحد ذراعيه. لكن الممرضة قالت يكفي الجزء الأول من الساعد. غرست الإبرة فوق الرسغ بقليل.

جز حمدي على أسنانه وكلش بيده الأخرى في جذع أبيه. ظل مكان الحقن وارباً لمدة أسبوع. ومكبرات الصوت تطوف شوارع المنصورة، تحض الناس على التطعيم ضد الكوليرا. قال الطبيب :

- نزلة معوية بسيطة.

وكتب علاجاً، وأوصاه بالدفع، وتناول المشروبات الساخنة. تركه. أمام باب بيته، ولم يلتفت لإلحاحه عليه بالدخول. أوقف عربة أجرة بالنقر، ونزل بالقرب من غور قريب من جردة. مشي بحذائه، وهو يتأمل شجيرات الخوخ. إياك أن تفعلها يا عايش، قبل أن تتذوق ما زرعه من خوخ. مثل عايش لا يفعلها بسهولة، وأنه متين البنيان مثل زملائه من أبناء الجيل السابق. أكلوا السمن البلدي، بالملعقة، وزلظوا البيض

المسلوق دون حساب. بخلاف الجيل الحالي الذي أصغني، لتحذيرات تناول السمن والسمنين، وبيضة واحدة في الأسبوع كما أفتي الإنجليز، حتى لا تتجلط الدماء في العروق. هل كانوا أحسن صحة من الجيل الحالي.. طبعاً توجد نماذج عائشة، الواحد منهم زي الفلق.. لكن.. كم مات جوارهم في سن صغيرة، ولم يسمع عنهم أحد شيئاً، أو عن سبب موتهم.

وهل حقاً يأكل الإنجليز بيضة واحدة في الأسبوع..؟!
أخبرهم عمه، الذي كان يعمل ميكانيكا بمعسكرات الإنجليز في التل الكبير، عما يتفوهه الناس في القرنين التي يقطنها بالقرب من التل الكبير، أن الكوليرا جاءت من معسكرات الإنجليز. بعض المقاولين، اشتروا بقايا أطعمة الإنجليز، وباعوها للفلاحين، وكانت ملوثة. منعت الحكومة الناس هناك من تناول أي شيء من الإنجليز، ومنعت التجار من نقل بلح نخيل هذه المنطقة، إلى مناطق أخرى، وأعدمت ما جُمع منه.
وأكد العم أنه ترك العمل عندهم، وكثيرون فعلوا مثله، وإذا لحق به المرض، فالأفضل أن يموت في مدينته المنصورة، بدلاً أن يموت في معسكرات الإنجليز.

كانت أغلب البيوت، وقتها، تغلق أبوابها من المغرب، والناس تخشي المسير في الشوارع، محاذرة من الموت المتربص في جنباتها. ولم يوجد شارع أو حارة خلت من الموتى، ومع ذلك لم تقم أي سرادقات لتلقي العزاء، ولم تجتمع النساء للنوح والبكاء والتعديد.
ولطفت الطبيعة بالناس، فأتي الخريف مبكراً.. ولم تكد الناس، تسترد أنفاسها وتشهد.. كان حمدي يجلس على عتبة بيته العالية، مدلياً قدميه، وموليّاً ظهره للفسحة، وقد أعطته أمه طبقاً به ملح خشن، وسكيناً. خبط الطبق بالسكين، فخشخشن الملح وتناثر بعضه، وهو يقول:

- يا بركة رمضان لا تطلعي من الدار.
- يا بندق أول وجديد.. يومنا الوقفة وبكره العيد.
وإذا ما عاكسه أحد الصبية، عاجله :
- بكره العيد ونعيد ونذبحك يا شيخ سيد
وإذا بالأب يحضر وقد اريدت سحته. جلس قبالة الأم في الفسحة،
التي رددت بصوت خفيض :
- خير.. اللهم اجعله خيرًا .
قال الأب :
- اليهود في غزة، خطفوا امرأة حاملاً، وبقروا بطنها.
خبطت الأم صدرها، وشهقت :
- يا مصيبتي..!
توقف حمدي عن الدق، سحب قدميه والتفت إلى الداخل. سمع
أخاه الكبير يسأل:
- وماذا فعل الإنجليز الموجودون في فلسطين..
رد الأب :
- إنجليز... هه. قري كاملة.. شبع اليهود فيها ذبحاً وتقتيلاً..
عاد الأخ يسأل :
- والإنجليز.. 19
قال الأب :
- أذن من طين وأخرى من عجين..!!
قام الأب ليفتح الراديو، الموضوع على رف خشبي معلق بالحائط إلى
يساره. أدار المؤشر إلى إحدى المحطات الأجنبية وهو يقول :
- لا أفهم، لماذا يثير اليهود ضجة حول فلسطين، وهل هم في حاجة
لينشدوا «في العام القادم سنذهب إلى القدس»

وسأل الاخ :

- هل منعهم أحد ؟

- يا بني قطار العريش يقوم يوميًا من محطة مصر إلى القدس.
عاد بالمؤشر إلى محطة مصر، ليتأكد مما يتناقله الناس، أن الجيش
المصري في طريقه إلى فلسطين. لم يكن موعد نشرة الأنباء قد جاء،
وانساب صوت عبدالوهاب:

«أخي.. جرد حسامك من غمده.. فليس له بعد أن يغمد».

صعد الجنود الساتر الترابي، شاكى السلاح. نزلوا بسرعة من الاتجاه
الآخر. انتشروا، ليلتفوا حول الحصن المواجه. لكن.. مدفع مكث، من
فتحة ضيقة، أطلق النار بغزارة، جعلت من المستحيل الاقتراب منه.
تساقط الجنود كالحمام، يصيبه رشق البنادق، وزنت الشمس فوقهم.
فجأة، اختفي الرصاص. بسرعة البرق، أحاطوا بالحصن واقتحموه.
لم يدركوا ما حدث إلا فيما بعد. أحدهم زحف، إلى أسفل فتحة المدفع،
وسدها بجسده.

حامت الطائرات، وألقت بحمولتها فوق متسلفي الساتر الترابي. كلما
أحدثت فجوة بينهم، رتقتها الجموع المتسلقة.

ومن بعيد، انطلقت، بشكل مخيف، قذائف المدفعية، لضرب
تجمعات الجند في الضفة الغربية، وتساقطت بعضها فوق المراكب
المطاطية العابرة في مياه القناة، وتصاعدت تلال من الماء. أشار بعض
الجند إلى حمدي، ليداري نفسه، خلف أي ساتر. أسرع للاحتماء
بباطن ترعة جافة، بالقرب من مزرعته. أصمت أذنيه القذائف، فأحاط
رأسه بذراعيه ليخفف من الدوي. حُيل إليه أن الفتحات في وجهه
انفجرت وانبتق منها الدم. هدا القصف قليلا. تحسس وجهه، وهو
يتساءل.. هل يش الإسرائيليون..؟!.. جاءه الجواب بتصفات

مركزة.. أصابت بعضها أماكن تجمعات، غادرها الجند منذ قليل..
وأصابت بعضها جنداً على وشك التحرك. أعقب ذلك هدوء مشوب
بالتوتر. فتح عينيه في رقده على أحد جانبيه وقد ضم ركبتيه إلى بطنه.
رأى عشا للدبابير في نتوء من جانب الثرعة أمامه. أقراص شمعية ذات
عيون مدسدة، متجهة فتحاتها إلى أسفل. تدلت منها بعض اليرقات
المعلقة من مؤخراتها. ولمح طواير من النمل. رفرفت الدبابير،
بسرعة محمومة، وانخفضت للقضاء على النمل. كلما حدثت فجوة
في أحد الطواير، سدها النمل الزاحف في الحال.. دون تردد.. ودون
أن يحيد عن طريقه.. ينقطع الخيط حيناً.. ثم لا يلبث أن يلتئم.. سائراً
في تودة.. إلى اليرقات المعلقة.. الدبابير تكثف هجومها.. والنمل..
عائد ببعض اليرقات تتراقص بين كلاباته الدقيقة.. كفت الدبابير عن
ملاحقتها. ووجهت جهدها إلى طواير جديدة، في الطريق إلى عش
الدبابير.



فتحت الأم الباب وقالت :

- بنت حلال

- خذي أولاً.

تناولت منها شنطة الخضراوات، وقالت :

- حمدي أرسل زجاجتين من زيت الزيتون، مع مرسال سيأتي ثانية
عصراً، حضري له بعض الملابس، واكتبي له كلمتين.
سمعتا فرقة.

أسرعت حمديّة إلى الشرفة، فوجدت من سبقنها، من ستات البيوت
وقد تناثرت تعليقاتهن.

- الشرطة تحاصر التجار في شارع بورسعيد.

- ثانية

- هذه المرة تصدى التجار وأطلقوا الرصاص.

- في عز النهار.

أفرغت الأم الشنطة من الخضراوات في المطبخ، ورجتها ألا تنزل
ثانية، فلابد أن عربات الأمن المركزي تقف في ميدان الشيخ حسين،
وتقطع المرور حتى تنتهي الحملة.

- لا تخافي.

دق جرس التليفون، طويلاً. أسرعت حمديّة، وهي تقول :

- «ترنك» يا ماما.

بالفعل كان شقيقها فى ألمانيا على التلفون. بعد السلام والسؤال، قال:

- ها.. فكرتِ
- فى ماذا
- لن نعيده، احضري، وسأجزيك أضعاف أضعاف مرتبك.
- يفتح الله.
- بالله عليك، ماذا تفعلين عندك..؟
- وماذا تفعل أنت..؟!
-
- وأمك..؟
- حمدي عندك
- حمدي الذي يقوم بنفسه بالعافية، سيقوم بأمه.
- طيب فكري.
- وضعت السماعة غاضبة، وأمها تؤنبها، لأنها لم تناولها لها.
- الخط انقطع.
- وبرطمت وهي فى طريقها إلى حجرتها.. يظهر كل الرجال من طينة واحدة. اقترح صفوت تأجير حجريين مفروشتين، فنبهته أنهما لن تسعهما مع الأم، فقال: حمدي وحيد وهو أولى بها. ردت قاطبة: هذا آخر ما كنت أنتظره منك. وخشية من تصاعد غضبها، استدرك: يا ستي على الأقل فى الشهور الأولى.
- أخذت حمدية الشنطة، والأم تلح فى عدم نزولها.
- اطمئني، زمان الزوينة انتهت.
- وسرعان ما جاءت التعليقات من الشبا بيك والشرقات.
- لماذا سمحوا باستيراد القماش.

- لتصنيعه، لا ليّعه.

المال يدفعون، ويهريونه من بورسعيد.

باتلك سيدفعون.. فهم يكسبون ذهبًا من بيعه خامًا.

- لماذا يصدعون رؤوسنا؟!

ويعود التجار إلى محالهم بالزغاريد، ولا يمضي وقت طويل، حتى يظهر القماش الخام من جديد، يباع في حراسة البلطجية. وتشكو الحكومة على صفحات الجرائد، من تفشي العنف، وتحت على علاج لظاهرة البلطجة.

كانت الساعة قد تعدت الثانية بعد الظهر بقليل، ذهبت حمدي لتدلي بصوتها، بعد خروجها من العمل. علمت أن الانتخابات ماثية آخر تمام. قالت في نفسها: الحكومة صدقت هذه المرة. فجأة جاء مرشح حزب الحكومة، نزل من عربته، يحف به بعض البلطجية، وقد شهروا الجنازير والخناجر والعصي، أحاطوا باللجنة. وجاءت في أعقابهم عربة، نزل منها أحد ضباط أمن الدولة. حاول أحد مندوبي الأحزاب الاعتراض. صاح فيه الضابط :

- يا روح أمك منك له.. لا أريد أحدًا هنا.

وانهال عليهم البلطجية ضربًا، وحملت عربة الشرطة بعضهم إلى القسم.

اعتزمت، أن تمر على كواء يعمل سمساراً بسندوب، وعدها بمحل في نفس الشارع، لعلها توفق وتكتب ذلك لحمدي. وبالمرة، تلحق بالسوق الذي ينصب في ميدان الشيخ حسنين، في هذا اليوم، الثلاثاء، قبل أن تنصرف الفلاحات، حيث بضاعتهن طازجة، وأرخص.

أخبرها السمسار عن المبلغ المطلوب. حاولت زحزحته. أشار إلى المحال على جانبي الشارع، وقال :

- بأضعاف ما عرضته عليك.

سارت وهى تطالع المحال، كانت بها مصانع صغيرة، تصنع قماشاً شعبياً، دمر ويطسطه، ودبلان، وشرابات، وفانلات وطواقي قطنية، بيضاء، وملونة. وتحولت إلى تجارة البقالة، وأخري إلى مخازن لتجار شارع بورسعيد، وبعضها هدمت بيوتها فوقها وكانت قديمة، وقامت مكانها عمارات سكنية حديثة، أسفلها محال حلوي، ومقهى، ومحال تجارية، وصيدليات. دخلت إلى الحارات المتفرعة، لعلها تجد شيئاً فى حارة جانبية، أو فى زاوية مهمة. أغلب المحال هنا، احتلها ميكانيكية السيارات، والعربات أمامهم على قارعة الطريق، تناثرت أحشاؤها، والصية ينظفونها فى أوعية من الصاج ملأى بالنفط، وباقي المحال تبيع دهان السيارات، أو قطع غيارها.

عرجت يساراً من شارع سندوب، عند التقاطع، إلى شارع بورسعين وقد غلبها الفضول. أدهشها الهدوء وقد عاد إلى الشارع، وكأن شيئاً لم يكن.

اقتربت من ميدان الشيخ حسنين، حيث البائعات، افترشن جوانب الميدان، ومطلع شارعى السلخانة وسندوب، بيضاعتين من الجبن القريش والقديم والمورثة والبيض والسمن البلدي والطيور من دجاج بلدي وحمام، وخضراوات الطيخ من طماطم وياذنجان وقرع وبطاطس وكذا جرجير وفجل وشيت ومقدونس..

ذهبت لامرأة، تعودت أن تأخذ منها البيض، تجلس على رصيف صيدلية بالميدان، تتركها تنقى حبات البيض، فهى وأمها تفضلان مذاق البيض الفلاحى، عن مذاق بيض البقالين المصفوف فى الكراتين، رغم كبر حجمه.

- بكم

- لا يغلي عليك.

لا تراوغي يا امرأة، أعرف أنك تستلقطين بعضه بسعر التراب.

ذات مرة برفقة حمدي لمحت بنت الهواري الكبيرة، وقد تذررت بمعطف حائل اللون. أعطت علبة سمن فارغة، ملأى بالبيض، لامرأة جالسة غير بعيدة عنها. ودارت نفسها في مدخل الصيدلية، حتى تعد المرأة البيض، وتجهز السمن.

لكرزت حمدي في ذراعه فانتبه. أمسك عن الخطو، وتراجعا، بينما كانت المرأة تناولها النقود. وانصرفت بسرعة، دون أن تنظر في وجه أحد. شدما حمدي من ذراعها مبتعداً، وهو يسأل :

- رأنا..؟!

تصعبت بشفتيها، وتمتمت :

- عيني علينا.

بعد مساومة قصيرة، اشترت بالسعر الذي أرادته.. وتسوّقت لباقي الأسبوع.

صعدت السلم إلى شقتها، وهي تنفث الهواء في تنهيدة طويلة.. الجبان يريدني خادمة لأولاده ولزوجته الخواجاية.

جاءها صوت التليفزيون، وأمها مسمرة أمامه، يعلن عن موافقة شيخ الأزهر الإمام طنطاوي على لقاء حاخام إسرائيل الأكبر. وضعت ماتحملة في المطبخ، وهي تصيح :

- ماذا تشاهدين..؟!

غيرت الأم القناة، فتصاعد صوت فائزة في أغنية مرحة من أحد أفلامها:

- بيت العز يا بيتنا.. على بابك عنبتنا.

دخلت حمدي غرفتها، وتخففت من ملابس الخروج. اضطجعت على كنبه مواجهة للشرفة، التماساً لنسمة طرية، وفائزة قد وصلت إلى آخر أغنيتهما :

- ابعدي يا شيطان.. ابعدي يا شيطان.. ابعدي يا شيطان.

ابتسمت، متخيلة فائزة في أغنياتها الأولى، بوجهها النحيف، وتسريحة شعر زمان المضحكة. أين هذا من وجهها الذي استدار، والشعر المستعار، الذي كان يزيد حلاوة، لكنها يا قلبي، في أيامها الأخيرة، بأن أثر المرض على تقاطيع وجهها، رغم مساحيق الطلاء الثقيلة. كان حمدي يشاهد معها، ولحظت التأثير في عينيه.

تناولت ورقة، لتكتب كلمتين لحمدي، وأخذت مجلة مهمة، مما يحضرها حمدي، نفضت عنها التراب، لتسند عليها، طالعت عنوانها «روز اليوسف»، وهي تقول لنفسها: حمدي مثل القرع يمد برء. وهي تفكر، ماذا تكتب له، أخذت تفر الصفحات. تخطت المقالات والأخبار السياسية، إلى الصفحات الخفيفة. استوقفتها طرفة.

ذهب قبضي معمر، إلى البابا شنودة وقال له :

- قداسك منعت الحج إلى القدس، طالما ظلت تحت الاحتلال الإسرائيلي، وأنا على عتبة القبر، فهلا استثنيتني لأزور السيد المسيح.
قال البابا :

- لا تزعل.. إذا مت، سوف تلقى أيضاً السيد المسيح.



تفقد حمدي الأغوار قرب الحدود. تأمل الزرع، ونهي نفسه، عن تكذيب ما يري. السيقان ليست منتصبة. وإن صدق ظني، على وشك الذبول.

هل، لم تمتد الجذور، بما فيه الكفاية، إلى عمق التربة.. ؟
أم أننا، لم نحفر، في عمق الأغوار الأخرى.. ؟
استعاد في مخيلته، أرضية الأغوار البعيدة، واسترجع مسافات العمق، وبعد المقارنة.. انتهى إلى أن مستوي الحفر واحد تقريبًا. هل الماء الجوفي ليس على مستوي واحد. كيف والمسافة بين الأغوار ليست كبيرة، ومستوي ارتفاع أو انخفاض التربة، ليس كبيرًا أيضًا.
تسلل بناظره، عبر الأسلاك الشائكة. ثمة أشجار مورقة، والأرض معشوشبة بينها.

فجأة أقلقه تساؤل. أتراهم.. يسحبون المياه الجوفية.. ؟! يكفي أن يحفروا أعمق منا. طافت نظراته بريي خضراء، عالية في مستوى أعالي الأشجار. كيف وهم في العالي.. لا.. الشجر وبعض الخضرة في الأسفل.

هل يتقدم يشكوى إلى المسئولين.. ؟.. لكنك لست على يقين.
إحساس داخلي، وما رآه من أشجار نامية هناك، وشجيرات على وشك الذبول هنا. هذا لا يثبت شيئًا. وهل سيسمع لك أحد. ولن ينوب المخلص سوي تقطيع هدمه.

هز رأسه ساخرًا. وهل لو أرسلت شكوي.. سيحققون فيها.. ؟!

أولى ظهره للحدود، وواصل تفقده للأغوار، ودندن، بما شدا به
عبد الوهاب.. «وليسوا بغير صليل السيوف.. يجيئون صوتاً لنا أو صدى..
نادراً ما كذبني إحساسي الداخلي.. ولكن.. كيف أثبتته.. التفت مرة
أخري نحو الأسلاك الشائكة.. بانت على البعد ربي رفح فلسطين.. هدوء
مخيم على «الفيلات» في الأعالي، وعلى الأشجار والخضرة.. لا يفرنك
هذا الهدوء.

ما أن تعبر، لترى، وتتأكد من وجود آبار عميقة، حتى ينهال الرصاص
من كل مكان، وربما انفجرت ألغام أرضية.

«وليسوا بغير صليل السيوف.. يجيئون صوتاً لنا أو صدى».

تري.. هل كتب على محمود طه هذا البيت لنا.. أم لهم..

وحين وجد بعض الأغوار، صحت شجيراتنا، أخذ يقيس بنظره، على
البعد، بين مستوي الأرض التي يقف عليها، والأرض قرب الحدود.
خامره شك أن الأرض هنا منخفضة، ولذلك، لم يستطيعوا سحب مائها.
آه.. من يجعلني أعبر الحدود، لأتأكد بنفسى..

في كل مرة، يعبرون حدودنا، ونحن.. ويا للعبط.. لا نفعل.. لنثبت
للعالم أننا لم نبدأ بالاعتداء.. وكان وجودهم على أرض فلسطين ليس
اعتداء.

الأرض..

ثم.. الماء..

واستعاد ما يشدو به عبد الوهاب..

«أنتركهم يغصبون العروبة.. مجد الأبوة والسوددا»

تركناهم.

كلف العمال، بنزع الشتلات التى على وشك الذبول. وطلب منهم تعميق الغور. وقبل وضع شتلات جديدة، يعملون مجسات، للتأكد أن الماء ستطوله الجذور.

طال الماء المتدفق من الخراطيم، كالبراكين، قامة الساتر الترايبي. وجرف التراب، صانعاً فتحات، سرعان ما عبرت منها الدبابات، وعربات نقل المعدات.. وانكشفت مواقعهم أمام الجنود.

وكان ما عجب له حمدي، أن المعدات، من خراطيم، وقوارب مطاطية، ومركبات برمائية، نقلت إلى الضفة الغربية للقناة، والإسرائيليون يركبون الساتر الترايبي المرتفع فى الضفة الشرقية، ويراقبون من أماكن الملاحظة، بخط بارليف، فكيف لم يدركوا ما يحدث أمامهم..؟!

تمهل حمدي فى مشيته. كان فى الطريق إلى بيته، عابراً ميدان الشيخ حسنين. رجل واحد استأثر باهتمامه، من كل ما يزخر به مولد الشيخ حسنين. وقف على منصة عالية، نصفه الأعلى عار. بانت عضلات صدره وذراعيه وكتفيه مفتولة، سمراء، أمسك سيخاً حديدياً مبروماً فى طول إحدى ذراعيه. غرز سنه فى خده الأيمن، وظل يضغط حتى خرج من الخد الآخر.. تملي من النظارة بعين محايدة، لا تطرف. وتناول سيخاً آخر، وكرر نفس العمل، والناس تتجمع حول المنصة.

حرك الرجل رأسه ذات الشعر الطويل المجعد، ملتصق برأسه بفعل الصابون، الذي أعطاه لوناً يميل إلى الاصفرار، وعيناه السوداوان تحركتا مع حركة الرأس. والسيخان يتذبذبان مع حركته كبندول ساعة دون أن ينشع الجلد بالدم. ودون أن يصدر عنه ما يشي إحساسه بألم.

تساءل حمدي ذاهلاً :

- كيف..؟!

قال رجل إلى جواره :

- خداع بصر.. ١٩

كاد أن يسأله.. وهل لا ترى ما أراه؟ لكنه أمسك، وقد لاحظ عيون الناس المشدودة إلى الرجل. عيون العالم كله على الشرق الأوسط. وظلت المياه راكدة في قناة السويس.

وقد انقطع الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر. والإسرائيليون يدلون أقدامهم في مياه القناة، ويسبحون فيها أحياناً، ست سنوات كاملة، من 67 حتى 73.

الغريب أن الرجل، لا يتكسب من عمله هذا، فلا هو، أو أحد معه، طلب نقوداً ولا أحد بادر بإعطائه شيئاً.

فلماذا يفعل ذلك.. ١٩

وحين سأل بعض الحاضرين، عن هويته، أخبروه أن أحداً لا يعرف عنه شيئاً، وأنه يأتي إلى المولد دائماً، يقدم فقرته في صمت، ونادراً ما يحدث أحداً.

رجح حمدي أن يكون من أتباع إحدى الطرق الصوفية، التي تدين بالتقشف والزهد، وأن ما يفعله نوعاً من المجالدة.

في ميت دميس، اكتشفوا حجراً مدفوناً في الأرض، في جانب من صحن كنيسة هناك، عليه نحت بارز باسم محمد بن أبي بكر. كان من الحجر الجيري الأبيض، أسطوانى، في طول جذع شخص متوسط الطول.

وأقبل حمدي مع الناس التي حضرت خصيصاً، ورواد مولد ميت دميس لمشاهدته، وحين حط الليل، استأثر باهتمامهم جميعاً.. مار جرجس.. خيال له، أعلى الحائط من الداخل في مقدمة الكنيسة، وهو فوق حصانه، ممسكاً رمحه. يتراقص على ضوء المشاعل المتسرب من المولد إلى صحن الكنيسة. هلل الجميع من أقباط ومسلمين..

«شيء لله يا مار جرجس.. شيء لله يا مار جرجس..»

المشاعل على عربات الترمس وحمص الشام، وأقماع الحلبة
المنبثة الخضراء، ذات الذؤابات البيضاء، وسرداقات صغيرة، مقامة
من قماش سرادقات الأفراح، ذات الزخارف المربعة والمستديرة،
يغلب عليها اللون الأحمر، مقامة في ميدان الشيخ حسنين، والشوارع
المؤدية إليه، وهنا في الباحة أمام الكنيسة.. وعند شاطئ النيل بالقرب
منها، يؤمها السامعون للانشاد الديني، يتلي على مسارح مصنوعة من
دكك خشبية، أو براميل فوقها مستطيل عريض من الحديد المبطط،
وخلف المنشد فرقة موسيقية لا تزيد على أربعة أو خمسة أشخاص،
تصاحبه بكمكان أو أكثر وطبل ورق، وصوته يلعلع في مكبر للصوت
بالسيرة النبوية.. على ألحان شهيرة لبعض أغاني أم كلثوم، ينتشي
الوجدان، على إيقاعها المألوف، والذي سبق أن أطربهم. ويتغلغل
الطرب في نفوسهم متعمًا بما يزيد من سحر النشوة، سماعهم لقصاص
كرامة الأنقياء ومعجزات القديسين.

وعربات اليد، مصطفة في مواجهة السرداقات، عليها، الطواقي
والطراوير، المصنوعة من الورق الفضي، والذهبي، تحف بها شرط
(جمع شريط) من ورق الكوريشة الأخضر والأحمر والأصفر. ولعب
الأطفال الخشبية، الرخيصة، ذات الألوان الغامقة، تمثل طفلاً يلعب
على العقلة، جانبها، عصاتان من الجريد، إذا ضُغِطتا تشقلب الطفل.
أو عروسة بلاستيكية، إذا ضُغِطت بطنها زمزت، أو صفقت يديها بهما
قطعتان مستديرتان من صاج رقيق. وحيوانات بلاستيكية، صماء. وزمامير
بأحجام مختلفة. بها خروم، لتضبط الأصابع النغم. وطبول صغيرة
للأطفال وأخري كبيرة، دُهنَت أياديها الفخارية باللون الأحمر، وصناديق
ذات واجهة زجاجية على حوامل خشبية، رُصت فيها عقود وحلقات من

الخرز الملون، وخواتم فضية وذهبية «قشرة». وباعة كتب السيرة والمدائح النبوية، قد فرشوا كتبهم على جانب من الرصيف، جوار باعة الحمص وحب العزيز. وفي قلب الزحام انتصبت دُورية، علقت في قوائمها الحديدية المدلاة من سقفها، بدلاً من الخيول الخشبية، صواريخ، مكتوب عليها أسماء البلاد العربية.. اليمن.. العراق.. فلسطين.. السعودية.. فوقها الأولاد والبنات، يعاكسون بعضهم بعضاً.. بينما تدور بهم. والأراجيح، لا يفتح الأطفال، بما يبلغونه من علو.. فيجاهدون في الأرجحة، بالانشاء والقيام، لتعلو أكثر.. بينما الأهالي يحذرون.. ويرسلون من طرف خفي، إشارة لصاحب الأراجيح.. فتمتد يده فجأة تشد حديدة القرامل.. فيحتك أسفل الأرجوحة بقاعدة النصب الخشبية، مزيقاً بصوت مشروخ، فيهلل الأطفال محتجين.

وأمام سرادقات الطرق الصوفية، التي علقت لافتات قماشية بأسماء الرفاعية والبراهيمية والشاذلية، وضعت باعة الفاكهة أقفاصهن الجريدية، يبعن الخوخ والعنب البناتي.. بينما تأتيهن أكواب القرفة والشاي من داخل السرادقات، حيث جلست نسوة متآخيات، في ملابس فضفاضة بيضاء، يعدلن بعض الرجال الجمرات، لوضعها في طرايش المعسل فوق النُجُوز.

وثمة من أشعلت قطعاً من الخشب، تطلق بين حين وآخر، وتسوي عليها كيزان الذرة. وجلس جوارها رجل يعرض تماثيل من الجص، ولوحات مستديرة من الجص أيضاً عليها آيات قرآنية ملونة. وحين ناولت إحدى النسوة، كوباً من القرفة إلى حمدي في سرادق على النيل، تساءل.. أتراها من المتآخيات. أخذه جمال وجهها الفطري.. لينها تؤاخي. وتذكر ما قاله له أحدهم.. يعرفون مواعيد الموالد وأعياد القديسين ويتنقلون من مولد لآخر.. حيث الطعام والشراب.. والتبرعات تصل إلى شيوخ الطرق الصوفية، خاصة من تجار الناحية.

وبعد أن دارت أكواب القرفة، والشاي لمن طلبه.. وركنت الجُوز إلى جانب.. نهضت المرأة، وقد امتلأ السرادق بالجالسين.. ووقف الكثيرون خلفهم.. وأنشدت:

واشرب مدام كرفقتي من نور عين الذات
يا بنت سمعان يا حنونة خشى الدير خبائث
وافتحني باب الدير وفرجيني على السادات
قالت حنونة بنت سمعان:

وانت فين يا اللي تنادي في دجي الليل على القدمات.
قلت لها: أنا مغرم وعاشق في النبي صاحب العلامات.

مشى حمدي باتجاه الكنيسة، في الشوارع والأزقة الضيقة، وقد افترشها الناس، وتكدست أبواب البيوت خلفهم بالزوار، وفي باحة أمام الكنيسة افترشها المرضى.. مئات من الرجال والنساء والأطفال والشبان، بالملابس البيضاء. نام بعضهم على الأرض، وعيونهم شاخصة إلى السقف ذي القباب العديدة.. صرت هذه، المرأة ليس غريباً عليّ، وأخذ يدندن: وحياة جمال النبي أبو مقام غالي.
ما يقطف الزهر في الجنة إلا التائب الغالي.

تدافع بلطف بين الجموع، يود الدخول إلى صحن الكنيسة، لمشاهدة مار جرجس ثانية. تمهل في جانب من الباحة، حيث يبيع رجل ملتج صور كبيرة للقديس، وهو على حصانه يطعن التنين بالرمح. ومضى في ذهنه.. الخيال الذي رآه لم يكن به تنين.. تأمل القباب من الخارج.. من أين يأتي الخيال. وهو يدخل، أكد لنفسه أنه فعلاً لم ير التنين. وجاءه إنشاد بعض المنشدين:

كبادوكيا بلدنا.. نسبنا في فلسطين
وفيها مربانا.. وفيها مقبين.

شاهد الخيال أمامه أعلى الجدار المواجه.. وقد رفع الحصان رجله
الأماميتين، وأمسك الفارس برمحه، والناس تهلل.

أين التنين.. يسمح بنظره السقف.. ضغط الأجساد، جعله يتزحزح من
مكانه.. يعيد النظر.. لكن ضغط الأجساد، لا يمكنه من التملّي جيّدًا.. دفعه
الضغط إلى باب جانبي.. حاول العودة.. لكن التيار الزاحف إلى الخارج،
لم يتح له فرصة.. طالعه تيار هوائي بارد.. ورأى خلف السراقات على
جسر النيل أشرعة المراكب، التي كلما اقتربت، وغزتها أنوار مشاعل
العربات، كبر حجمها.. وانضحت بعض ملامحها للرائي.. أين التنين..
علقوا مار جرجس المزاحم على ساري مركب، من عنقه ورجليه،
وضُرب بالسياط، ولم يتنازل عما اعتقده. ملموه للوالي، فقطع رأسه،
وتناقل الناس سيرته، وحملت كنيسة في قرية يساط النصراري اسمه..
إذن فهو خيال مار جرجس المزاحم..

لا .. مار جرجس المزاحم كان فلاحًا.. أما هذا ففارس على
حصان..

إذن هو مار جرجس السكندري..
لكنه ابن تاجر، وليس فارسًا.. طمع خاله والي الإسكندرية في ماله،
وأراد أن يزوجه بثته.. لكن البنت آمنت بالدين الجديد.
وأنت يا صفية.. ألا تؤمنين.. لماذا.. عينك على المال دائمًا.. كم
تكسب.. ويكم ستكلف..؟! طبعًا يوجد خطاب جاهزون.. هل توقعت
مني المزاحمة.

جرفه الزحام، باتجاه أحد السراقات. لعل مكبر للصوت داخلها :
ولما دعانا الغرام فتنا الوطن وبلينا
ولما قابلنا النبي ردت أرواحنا فينا
فعدنا نريح البدن بان التعب لنا

الله يعلم بظاهرها وخافيتها
ماذا تخفين يا صفية.. هل تخفين شيئاً لا أعلمه.. أم أن كل شيء ظاهر،
لا يستطيع القراءة.

كنت أن يخرج من التيار، ليستششق نسمة باردة، وقد أحس صهداً في
مستوي رؤوس الناس، رغم رطوبة تسري في الليل المتقدم..
لينك كنت معي.. يا رجل.. كان الناس أشبعوها عبثاً بجسدها، وغرفاً،
كما يقول بعض محترفي المداعبة في الموالد..
إذا كان مار جرجس سُمى بالمزاحم، لأنه زاحم ثلاثة إخوة.. فماذا
يُسمى السائر هنا..؟!

اقترب من فتحة سرادق.
أول ما نبدأ القول نصلي على المصطفي ولد عدنان.
كان ياما كان يا ميت دميس كنت تمسبوتي في العهد الفرعوني
وجدوا في جوفك حجر بنقش الوالي ابن أبي بكر في عهد أبي الطالب
الفارس القرشي

حاول الإنجليزي الخميس بيني جسره على النيل ويغرق الكنيسة.
رفض الناس وقالوا أبداً يا ابن اللثيمة.
ذهب المصري وأحضر جسد الشهيد من اللد بفلسطين.
وقال ما يدفن غير في مصر ودمعت العين
لكن الشهيد دفن في مصر القديمة وزاد الحنين
ذهب المصري وأحضر ذراع الشهيد من فلسطين
كان الكفرة، قطعوا جسده، وقال ما يدفن غير في ميت دميس
لأجل دائماً، نذكر كيف قيدوك بسلاسل الحديد
وكيف وضعوا الجير الحي على جروحك ولم يعابوا بالألم والصديد
وأحموا المسامير في النار ووضعوها في لحملك الضنين

والبسوك حذاء من حديد دقوه بالمسامير فى قدميك
وأجبروك على المشي ووضعوا الشظايا فى جسمك ولم يكيث
وخلعوا أظافرك ووضعوك على سرير من المسامير المحممة فى النار
ولم شكيت وظنوك تازلت عما فى رأسك..
وجدوك رفعتها وقلت أبداً أنا على العهد إذا بقيت.
واليوم فى مايو والزهر يفتح عيد الشهيد، وغدا فى الخريف عيد
كنيستك

يا فارس يا نبيل
ولن نصغي لما قاله الصليبي أنك جاورجيوس وساعدتهم فى حصار
أنطاكية
ولن نصغي لما قاله الإنجليزي أنك سان جورج حامى وشفيع بلادهم
فى الملمات

وكيف تساعدهم وهم على الشر فى اتفاق ومعاهدة ؟
وكيف تساعدهم وأنت الخضر ابن الشام ؟
وكيف تساعدهم وأنت الكباووكي وأمك فلسطينية ؟
وكيف تساعدهم يا شهيد ولنا من الشهداء آلاف ؟
على أرض سيئاء والمجدل والدم الذي يروي ما يبقي جاف
رمحك معنا يا بطل .. لأجل يركع التنين ولانخاف
وصلوا على خاتم الرسل ولد عدنان
كانت الشهامة طبعه والرحمة له غية
لفح وجه حمدي تيار هواء بارد. أدرك أن ثمة انفراجة، ترك نفسه لها
فطالعت صفحة النيل، بعثة مشعة، جعلته مختلياً بنفسه، وفي الوقت
نفسه، متصلاً بما حوله.

المياه الداكنة، تتوالى طياتها، بفرحة مضمرة، هل تهش للمصباح الوليد..

والباعة أبداً لا يذهبون. والرجل لا تقطع، والأزقة المحيطة بمسجد الشيخ حسنين، على صخبها، ورجل نصفه العلوي عار، وضع ظهره على لوح خشبي، نهضت به مسامير كاشواك الصبار الإبرية. سأل رجلاً سمياً أن يدوس فوق صدره، وأشار له ألا يخلع حذاءه.

أراهم ظهره.. لم ينل شيئاً من لحمه، ولم تنبثق نقطة دم واحدة. صعد في شارع العباسي إلى شارع النيل. فكر حمدي أن يعود إلى ميدان الشيخ حسنين، ويعرج إلى شارع محمد فتحى، يتملي سرادقاته، كما كان يفعل وهو صغير. كان يشاهد الصعايدة بقاماتهم الفارعة فى الجلابيب البيضاء، وقد وضعوا عمائم على رؤوسهم تشبه أغطية قدور الغول المدمس. وقد أمسك العازفون بالأراغيل. عدة غابات متجاورة، في طول العازف، يحرك أصابعه على خرومها، بينما تنتفض عروقي رقبتة، وهو ينفخ في ميسمها.. مصدراً أنغاماً رتيبة، محتدة، لم يدرك وقتها، كم كانت راسخة، وحزينة، وكم كانت الأصوات البشرية التي تصاحبها، تنن، غائصة في قرار مظلم.

وأبو حلاوة ينادي على كل دار بدار
من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه نار
من يضمني عندك يا صغبة. المال ضامنك وشفيعلك، أم هذا قصر ذبل مني.

من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه ...
استمر في سيره، يلتمس نسمات، تخفف من لفح الأنفاس في المولد.
وتساءل.. لماذا الموالد دائماً في الصيف وغالباً في أغسطس.. لم يصادف مولداً في الشتاء أبداً.. تخيل إليه أن الهواء سيقنلع الخيمة. أخرج يمينه من

جيبه، وكانت ما تزال باردة. سلم على النقيب، قائد الموقع، الذي دعاه إلى الدخول.

أخبره عن اختياره أرض جوار موقعه، لزراعة شتلات خوخ. استفسره بتقاطيع وجهه، فوضح له الأمر. وعده بالدراسة.

وعندما التقاه حمدي ثانية، خُيل إليه أنه بالغ في الترحيب به، مما أثار دهشته، وشجعه، فيما بعد، أن يخبره بحاجته إلى شتلات من لوز سيناء. وعده كعادته بالدراسة، وقلن حمدي أنه أصغى إليه من باب المجاملة، ونحجل من نفسه، لأنه زادها على الرجل، لكنه فوجئ به، وقد دبر له لقاء مع محمد عايش، دليل قواتنا العابرة لبعض العمليات في سيناء.

وكاد يقفز من النشوة.. عندما طالعتة الجرائد، بما فعلته قواتنا من نمويه.. جعل الإسرائيليين لا يدركون ماهية ما يرونه أمامهم من قوات ومعدات على الضفة الغربية..

لوح بقبضته اليمنى في الهواء. الآن فقط.. فهمت سر اهتمام قائد الموقع عبد السلام فاروق بي..

أكيد، كان يريد لنقاط الملاحظة الإسرائيلية على الضفة الشرقية أن تري المزرعة.. ولعل هذا أوحى لهم باسترخاء القوات، التي سمحت بإقامة مزرعة في موقعها.

يا خبر.. وأنا الذي ظننت، أنني لم أشارك في الحرب..؟!
تملكه شعور، أسكره عدة أيام، ومع توالي الأيام، عشنش في الأعماق، يرسل بين حين وآخر أشعة ذهبية، تضئ جوانحه.

وصل حمدي إلى بيته. جذب كرسي الشاطئ في مواجهة الشباك. داعبته نسائم بحرية منعشة. أراح جسده مع ميل خلفية الكرسي القماشية.

مجري مائي، تحت الأسوار السلوكية. سال فيه الماء، حاول النفاذ،
ليعترض طريقه.

نبحت كلاب بشدة. تدلي لعاب لزج على جانبي أفواهها. وبرزت
أنيابها حادة كلما علا نباحها.

تحركت القوائم الحديدية، بما بينها من أسلاك عنكبوتية، وبما أعلاها
من أسلاك شائكة.

عدت الكلاب، خلف الأسوار، وأخذت تنبح كأنما أصابها سعار..
تحركت الأسوار فتبعتها الكلاب، وقد تحول نباحها إلى عواء مخيف.
وكلما تحركت الأسوار، تبعها الكلاب..

انتفض، وقد كادت تطبق عليه الأسلاك العنكبوتية، وخلفها السحن
المخيفة للكلاب تزوم وقد تساقط لعابها.
هل غفوت..؟!



ذهب إلى النفق آملاً أن يرى سمية.

كانت شمس ما قبل الغروب الهينة، تضيئ شفافيةً على الأشياء.
فضل أن يجلس تحت شمس على الرمال، مولياً ظهره لمبنى الفندق.
انبسط الشاطئ أمامه، وطبات المياه، تداعب بعضها بعضاً، في خفة
ومرح.

حمل إليه الهواء، رذاذاً خفيفاً، أنعش وجنتيه، وهو يتأمل مياه البحر،
عند استدارة الأفق، وأحسن بخفة، واندغام فيما يحيط به.
لم يتعجل الإشارة إلى أحد، يُحضر له طلباً. تعشم أن يساعده الحظ
وتحضر هي. خف الوهج الأصفر، ومال قرص الشمس إلى اللون
الأحمر، وقد تحددت استدارته، بينما يثرثب الماء، في محاولة للمسح
على وجهه.

لماذا حضرت إلى هنا..؟!

هل رميت طوبة صفية؟!

إنها لم تتصل بي منذ عرفتها. دائماً المبادرة من جانبي. هل هذا هو
المفروض. وماذا لو كنت مريضاً، أو مشغولاً، أليس من الواجب أن
تتصل لتطمئن.. أو حتى لتعرف أخباري؟ لم يحدث مرة واحدة، أن نسيت
وانتصت. هل هو التمتع بالكاذب، من قبل المرأة المصرية «ياخي»؟ كأنك
خبرت نساء العالم.

لا.. لترك هذا لغير المتعلمات.. هي تعلمت وسافرت إلى الخارج

وراحت وجاءت. أم أن كلهن سواء في هذه الناحية. ويتركز المبادرة للرجل، حتى لو كن الراغبات. لست أدري.. ولكن في حالتي.. وقد خبرتها، لا أظنها هكذا.. والمعنى واضح كالشمس..

نشعت الحمرة على حافة الأفق، وصبغت نقاً من غيم في قبة السماء. ونجحت جبال الماء، أخيراً، في ابتلاع القرص، وبأن أنها مأخوذة بجبروتها الأثيث، وعلاها زبد أبيض، يجاهد في محو بقايا الشعاعات الواهنة. هي لا تعبأ بي.

لكن لماذا في كل مرة، التقينا، حثتني على مداومة الاتصال. هل هي المجاملة العادية. إذا لم يكذبني سمعي، في صوتها شيء ما.. لا.. ليس رجاءً. ولكنه وشاية برغبة، تجاهد، في الإفصاح. أو ربما.. لا.. لست متأكدًا بالضبط. وماذا عن نظرة عينيها العسليتين، تنظران إلى الداخل، إذا أطريت جمالهما، مشفعةً ذلك بابتسامة وديعة، واحتجاج ناعم :

- وبعدها معك.. !

ولا تقوى على سحب نظراتها الداخلية. هو الخجل.. الخجل الذي يمنعها من الإفصاح.. أو الاستجابة، هل تريدني أن أدفعها إلى ذلك.

أم أنني أخدع نفسي، وليس شيء من هذا في دماغها. وماذا عن لهفتها وهي ترد على التليفون، خاصة، عندما أطلبها مبكراً، ويأتي صوتها لم يتخلص من أثر النوم، فأعذر بصدق، عن إيقاظها، فيأتيني صوتها، وهو يتملص سريعاً من الغشقة :

- أبداً أبداً..

تشبث بتواصل الصوتين، فاستمر في الحديث، وينجو صوتها، شيئاً فشيئاً مما يشوبه، ويصبح وديعاً، ناعمًا، راغبًا فعلاً في مواصلة الكلام. لماذا لم تسأل؟..

هل تحتم على أن أكون السائل دومًا...؟!
مازلت أذكر، كلماتها في عرض حديث، أنها لن تتردد في مصارحة
أحد، لو صادف هوى في نفسها.
هل قالت ذلك، لتشعرنني بمدى حررتها، وامتلاكها لدفة حياتها، أم أن
الكلام شيء والعمل به، شيء آخر؟!
دائمًا، أنا الذي يعرض.. وهي لا تقبل ولا ترفض.
تنزوج. تُسوف في الرد، وتنشغل بأي شيء، وإن كانت حمرة خفيفة،
تنشع من وجنتيها الحريرتين، تفضع انفعالها الداخلي.
أحبك. تنظر إلى بعيد، وتحول الحديث إلى اتجاه آخر، وعبثًا أحاول
استبقائها في الدائرة. ومع ذلك. لا ترفض اللقيا، وتأتي في الموعد
بالضبط، على غير عادة النساء، اللاتي يملن إلى التأخر.
أتراها.. تحتفظ بي، احتياطيًا للطوارئ، ولست أنا النموذج الذي توده،
فإذا لم يحضر مرادها، فأنا أحسن من لا شيء..
أم هي كائنٌ، مطلقة، تستعذب الإحساس أنها مرغوبة.
ولكنها، وهي على مشارف الأربعين، إن لم تكن تخطنها، ألا تشعر
بالقلق. لعل هناك خطابًا، وهي تفاضل، وأنا لا أعلم.
قولي شيئًا.. يرحمنا ويرحمك الله.
أحسن بمن يقف خلفه. التفت مرتبكا، كمن ضبط متلبسًا بفعل منكر.
كان الظلام قد غشى الأشياء. ولم تكن سمية.
- أفندم
تردد.. هل يسألها عن سمية.. أم لا داعي للتسرع، حتى يستوثق بنفسه،
وحتى لا يتسبب في انتشار أقاويل، لا داعي لها.
- أفندم
- فهوة سادة.

غادرت. خيل إليه أنها هزت كتفها. سرح ببصره عبر الترابيزات، لعله يلمحها آتية، ونمل المساء، يغبش المراثيات. تساءل.. هل المضيفة التي جاءت.. استلمت ورديتها لتوها.. أم هي نهائية، ولم تسلم بعد..

هل سلمت تمامًا في أمر صفية. كان من الواجب إخبارها أنني صرفت نظرًا، ولكنني لم أتفق معها على شيء. على الأقل يكون لقاء وداع وأسمع كلمتها. شعرتين لسماع صوتها الناعم، الخالي من أية ندوب، تنبئ عن مكر، أو لف ودوران. وتمثلها بقامتها الطويلة، وجذعها الرهيف، حيث تميل دومًا إلى لبس البلوزات المشغولة «تريكو»، تبرز نهديها. كانت معالهما واضحة، وقد حذب عليها، خلف مقعدها في الباص، محادثًا. آه من الحليب الممزوج بالسمن البلدي، وقد استكانت اليمامتان. ومرة كان الوقت صيفًا، ارتدت بلوزة، بلا كمين تقريبًا. رفعت إحدى ذراعيها، ملوحة. شعر أسود أطل من تحت إبطها. غابة. كاد يفقد اتزان، وهو الذي جاهد دومًا، أن يبدو غير متلهف على شيء.

ولكن، ما دمت قد فكرت في امرأة أخرى، فمعنى هذا، أنك لم تحبها. هل كنت فقط معجبًا بشخصيتها الدمة. أم أنك في داخلك، وقد تعدت الخمسين، تبحث عن زوجة مناسبة والسلام؟

أم أنك لست مستريحًا لماضيها تمامًا؟

كان أحيانًا. يعتربه الشك، فيسأل عنها زملاءها في العمل حين يزور حمدية، فيستشف من النظرات أن لها علاقات.

وحين يحاول الإمساك بخيط محدد، يجد نفسه في جو لا يستطيع معه تبين الخيط البرتقالي من الخيط الرمادي.

وهذه الغابة الطالة أليست دليل استقامتها.. فلو كانت على علاقة بأحد ما أهملت نفسها هكذا.. من يدري.. لعل من تحبه يشير ذلك.. فطاوخته وتركت نفسها بهذه الغزارة.. لا أعتقد..

أمام مستشفى ميداني، أقاموه على عجل في جانب من معسكر الأسرى

بعتليت، رقد الجرحى عدة أيام.. طلقات من الرصاص أصابت الجذوع والأذرع. والأفخاذ.. وتخثر الدم النازف على أجسادهم وملابسهم.

أحدهم يدمع.. ساقه تهتك ولا بد من البتر، لكنه يحمد الله بصوت مسموع أنه نجا من الموت. جاء ممرض إسرائيلي مصوص الجسد، وحدثهم بعربية حروفاً ممطوطة:

- صاحبك في حاجة إلى دم..

نظروا إلى بعضهم بعضاً. ولم ينهض أحد.

- يا شباب.. صاحبك يموت..

نهض بعضهم، وفي أثرهم حمدي. كاد يسقط ثانية. عزا ذلك لرقده مدة طويلة، وعدم سريان دم كاف إلى دماغه.

دخل المستشفى. شكة دبوس في إبهام يسراه. بعد قليل غرزوا إبرة في وريد يده اليميني. لم تستقر، فجربوا ذراعه الأيسر.

حين استوعب ما حوله. وجد على سرير حديدي، مواز لسريره، مجتدة وقد غرسوا إبرة في إحدى ذراعيها. وأعلى سريرها وعاء زجاجي تمتص منه الدم.

ود لو ينهض، لكن الإبرة في ذراعه، وحلقة مطاطية تحيط به. وسمره مكانه، مارآه من شعر غزير تحت إبط الفتاة. هل الأجنيات دائماً هكذا.

أخذه الممرض إلى الخارج، وهو لا يكاد يرى ما أمامه ودخل زميل آخر. لا يدرون كم مر من الوقت حين وزع عليهم الممرض ماءً غامقاً، وهو يقول:

- الشاي يا شباب.

رغم طعمه الماسخ: فقد بعثت سخوته شيئاً من الحيوية في أجسادهم. أحضر الممرض وعاءً يلاستيكيًا به أوراق كرنب مقطعة إلى شرط رفيعة، ويمعلقة خشبية أخذ يوزع عليهم. حاول أحدهم أن يأخذ نصيباً لزميلهم الذي في الداخل.

قال الممرض :

- صاحبك الله يرحمه .

نبادئوا النظرات فى ذهول. سأل أحدهم جاره عن إصابته :

- كانت فى الإلية، ولم ينزف دماء كثيرة. امتنعوا عن تناول الكرنب

وطلبوا إبلاغ مندوب الصليب الأحمر. قال الممرض :

- صاحبك الله يرحمه.. لماذا لا تأكل أنت..؟!

غادرهم مسرعًا. وقف أحدهم بالباب. وجد زميله ملقى فوق ترابيزة

حديدية، أرجلها رفيعة صدئة، وتحت مشمع مصفر، متهرئ، وبطنه ملفوفة

بأربطة من الشاش، ناشعة بالاحمرار.

انتبه إلى كوعه، كاد يقذف بصينة القهوة. وجد فنجانه خاليًا. متى

جاءت القهوة، ومتى شربها. ثبت ورقة مالية تحت الفنجان. نهض فى

تثاقل وقد تكاثف السواد. مشى بمحاذاة الشاطئ..

ترى.. هل أنا المعلوم..؟!

قلت : أحبك. صمت

قلت. تتزوج. صمت

هل صمتها علامة رضا. أم طبعها الخجول، والذي لم أدركه وقتها،

جعلها تصمت حتى لا تجرحني، وقد اعتبرت عرضي بالزواج، جرحًا

لرجلها.

لو كان الأمر كذلك.. فلماذا قابلتني باحترام وود بعد ذلك..؟!

لعلها، كانت فى انتظار أن أضيف. سأفعل كذا، سأدبر كذا، حتى تأخذ

كلامي مأخذ الجد، وكيف أضيف وهى لم ترد.

لم ترد.. نعم.. ولكنها استمرت فى الملقب ولم ترفض الحديث

التليفوني. هل بذلك اعتبرت نفسها موافقة ضمناً على ما عرضته، وظننت

أنني فهمت، وانتظرت خطوتي التالية.. فأني تقصير - من وجهة نظرها -

يكون قد حدث..؟!، وأنا الذي كنت فى حيرة من عدم ردها..؟!

خاضت قدماء، فى نباتات رخوة، مما يلقيها البحر على الشاطئ..
انحرف قليلا. تنامى إلى سمعه إيقاع كإيقاع آلة موسيقية، تشبه ملعقتين
خشبيتين كبيرتين. أحد ذكور اللقالق المهاجرة، يخبط بشقي منقاره
الطويل، جذبا لإحدى الإناث. اقترب من نخلة بدت أشد دكنة من الظلمة
السارية، لم يجد شيئا.

عاود سيره، وجاءه الإيقاع ثانية. ثلة من النخيل فى جانب من الشاطئ
الرملى العريض، اقترب منها فلم يجد شيئا.
تلقت حوله. أتاه الإيقاع، راقصا، هاشا. لاحت شجرة الكافور، القرية
من بيته. اقترب منها وقد أيقن أنه واجد اللقلق، وقد انحنت الأنثى -
كعادتها - محية، وهو يرد على تحيتها بانحناء مماثلة. ثم يندغمان معا
فى إصدار إيقاع واحد بمنقاريهما.
خاب ظنه..

ولاحت له.. من خلف أسوجة بعض البيوت، زهور الفل البيضاء،
وقد خفت من العتمة..
سار على هديها، ملتصبا الطريق إلى بيته.



ثلاثة يعرفون «التكتيك» فى العالم.
روميل.. ألمانيا

مونتجمري.. إنجلترا

ثم مشيراً بإبهامه إلى صدره :

مقدم جورج أديب.. القطر المصري.

بالكاد، يسيطرون على أنفسهم، حتى تنتهي المحاضرة، ثم ينفجرون فى الضحك. ويأخذ بعضهم، فى تقليده بلهجة الهادئة، الواثقة، خاصة وهو يضغط على المقطع الأخير «القطر المصري»، ناظراً فى عيونهم، بعينه ذاتي الأديم الأحمر.

ابتسم عبد السلام فاروق، وقد سرح بعينه فوق مياه القناة، التى ما أن تلثم البحر، حتى يفتح ذراعيه لاحتضانها.

وضع يديه على حافة المعدية، متعجلاً وصولها إلى بور فؤاد، وقد زاد شوقه للقاء الرجل. أشار العميد جورج إلى إحدى الدبابات المدمرة، وقال :

- هلا تلاحظ ما ألاحظه..؟!

كان قد أمكنهم تدمير وإصابة فصيلة من الدبابات المهاجمة، ومع ذلك انهالت على موقعهم، بعض القذائف. أفاد الاستطلاع عدم وجود قوات إسرائيلية بالقرب منهم.

اختبأوا فى الملاجئ..، وفكروا فى الانتقال إلى موقع تبادلي، وهم فى عجب من الأمر. دقق عبد السلام النظر، وقال :

- البرج مدمر من أسفل

قال العميد نافذ الصبر :

- الماسورة.

فجأة صاح عبد السلام من الدهشة :

- مدفع البرج له ماسورتان.

أمن العميد متمهلاً :

- بالضبط.

تسمح لي سيادتك.

أوما برأسه وهو يقول :

- توخ الحذر.

خطأ عبد السلام بيميناه، محاذراً، وهو يتطلع إلى حائط القناة الأسمنتي
عند المرسى، ودائماً يستشعر رعدة، عندما يلحم الماء في الأسفل، مدركاً
عمقه. عرج بيميناء الشوارع هادئة واسعة والبيوت من دورين أو ثلاثة.
يُعلم شارعهم يقال على ناصيته ..

لف عبد السلام حول موقع الدبابات المدمرة. لم يجد شيئاً غريباً.
حاول معرفة سر الماسورين، فلم يقلح. نادى العميد في اللاسلكي،
وطلب إطلاق بعض القذائف على الدبابات، ثم التزم الصمت.

ما أن كف الضرب، حتى رأى دبابة سليمة، حشرت نفسها بين
الدبابات المدمرة، وألصقت مدفع برجها بدبابة أخرى، انسحبت إلى
الخلف وحركت مدفعها.

هتف عبد السلام في اللاسلكي :

- وضحت الرؤيا.

لم يرد العميد على الفور، فأدرك أنه يستوعب الموقف. بعد قليل سمع
صوته:

- جاهز

- تمامًا

- تعامل معها.

زحف عبد السلام من الثبة، التي كان يحتتمي بها. وحين اتضح له أن قذيفة ال آر - ب - ج، ستكون مؤثرة، توكل، ونشن، على مكمّن الحركة في برج الدبابة. أصمّه الدوي. وعندما فتح عينيه، وجد ماسورة المدفع قد مالت إلى جنب، والنار مشتعلة، وإسرائيلي يحاول الخروج من فتحة جاتبية. النار مشتعلة في ملابسه، ويصيح مذعوراً:

- سيدي.. ارحمني.. لا تقتلني.

تردد عبد السلام. كان جسده محشوراً في الفتحة، التي ضغط عليها اعوجاج ناصية المدفع. ثوان وتنفجر حمولة الدبابة من الدانات. أسرع عبد السلام ووضع قدميه على الجنزير، وأمسك بجذعه. وهو يتزعه، انشقت ملابسه، وجرح من احتكاكه بالصلب المشتعل. قفز إلى الأرض، وجري وهو يجره.

سرعان ما ارتجت الأرض تحتها. أحس بغصة، ونظر إلى عيني المنبطح جواره.. كأنه يقول له.. لم يكن أحد يستطيع لباقي الطقم شيئاً. هلل العميد مرحباً بعبد السلام. وعندما رأى الأسير، صاح، وقد تذكر ما فعله بموقعهم :

- دوختنا يا ابن اللثيمة.

وطلب من أحد الضباط، أن يضمّدوا جراحه، ويرسلوه إلى المؤخرة. ما أن رآه اللواء جورج، حتى أخذه في حضنه، فأحس بجسده يتلاشى، وهو الربعة المتين، في هيكله الضخم.. وقد لمس ترهله قليلاً.

أجلسه في كرسي مريح قبالة، وهو يسأل عن الزملاء القدامى. طالعه وجهه الباش، بعينه الحمراءوين، وبشرته البيضاء المشبعة باحمرار

خفيف.. وابيض أكثر، شعره السائح، وبان خفيفاً، وقد شف عن صلعة
لوحثها الشمس. ذهب يحضر الشاي. لفت نظره على مكتب إلى يساره
تمثال فرعوني. أغلب الظن لملك.. ما دام يمد إحدى يديه بالصولجان،
في قمته عين حورس. وقد رسخت قدماء في الأرض، إحداهما خطت إلى
الأمم. وفي امتداد قاعدة التمثال إلى يمينه، أكثر من مجرى، عليها أقلام،
وفي خلفيتها ورقة خشبية، أطلت منها حواف بعض الرسائل. وعلقت
في الصولجان حلقة، رجح من لونها البرتقالي المائل إلى الأحمرار، أنها
فرع ملفوف من سباطة بلح، كاد يستشعر ملمسها الشمعي، وقد برزت
نقوش داكنة.

وهو يقلب له الشاي، نحى يده، برفق وقال :

-أنوي السفر للسعودية.. في عمل.. إذا كنت حضرتك تريد شيئاً..

تطلع إليه.. وبعد قليل وشت عياء بالمرح، وقال :

- فات الميعاد.

انطلق عبد السلام ضاحكاً، وقد نشع ما كان. ذات ظهيرة، وقد انتهوا
من طابور تدريب، أمر العميد رقيب الإذاعة، بالترفيه عن الجنود. وكان
الرقيب مغرمًا بأم كلثوم، وفي هذا اليوم، كان بينه وبين أحد زملائه سوء
تفاهم، وكان محبوباً بالمعسكر ومستثنى من الإجازة. فأذاع الرقيب
أغنية «فات الميعاد»، وكلما انتهت أعاد إذاعتها، حتى أهلت أعصاب
الزميل وتشاجر معه، وسمعت أطراف من زعيقهما في الإذاعة.

أرسل العميد، عبد السلام فاروق لتحري الموقف. استدعى رقيب
الإذاعة، وصالحه على زميله، بينما تناثرت تعليقات الحضور :

- هل فانتك موعد حقاً..

- على الترفة.. ولا في جنية الحيوانات..

- وحبكت النكتة أحدهم فقال :

- وأنت الصادق... في أرض الميعاد..

ضجوا جميعا بالضحك، وأسرع العميد جورج إلى مكتبه، وعاد وفي يده نسخة من العهد القديم، وقال :
- بمناسبة أرض الميعاد.

فر التوراة، وتوقف بإصبعه عند صفحة معينة، وقال :
- فى سفر التثنية، الإصحاح الثاني، العدد الرابع، تقول الآية «وأوصي الشعب قائلاً وأنتم مارون بتختم إخوانكم بني عيسو الساكنين سعير فيخافون منكم فاحذروا الهجوم عليهم لأنى لا أعطيك من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثاً ، تطلع العميد إلى وجوههم، فاستشف استغلاق بعض الكلمات عليهم. قال :
- سعير.. فى أرض كنعان.. فلسطين يعنى..

تساءل الرقيب :

- محرمة على الشعب .. !!

رد العميد :

- اليهود يعنى..

قال عبد السلام فاروق :

- وهل ننسى تصريح ديان أنه ملحد.. وكذا أغضب زعماء إسرائيل.
قال المحبوس :

- فلا معنى.. للكلام عن الحرام والحلال.

وصلت المعدنية إلى بورسعيد. تطلع عبد السلام إلى ساعته. ترى.. هل استغيبته صفية. ليتها أعفته من الغداء، خاصة وهو لا يعلم هل لاقى قبولا أم لا. ما فهمه من كلامها، أنها مهدت لهذا اللقاء، لكن الكلام شئ، ورؤيتهم له والحديث معه شئ آخر. ونعلها لم تذكر لهم كل شئ.. هل لاحظوا فرق السن بينهما، هي تسبقه بسنوات قليلة، حسب زعمها، وهو على مشارف الأربعين.

استأذن ليترك لهم الكلام بحرية، وانتهازها فرصة لزيارة اللواء جورج.
على أية حال.. أيًا ما كان، انطباع شقيقها، ورده، فهو يحس بالثقة الآن،
عنه في الصباح.

مشى بحذاء السور المحاذي للقناة، وقبل أن يصل إلى نهايته، عرج
إلى الطريق الموازي للبحر. لكن عليهم ألا يتسوا.. هذا الزواج الثاني لها،
وهو لقطعة بالنسبة لها. لقطعة.. أم هي اللقطة، بعقدها للعمل في السعودية.
أتراها، لولا حاجتها لمحرم، ما وافقت على الارتباط به، وهل هذا وقت
التيقن والسؤال. وأين كنت من زمان.

هل سوافق شقيقها، مراعاةً لمصلحتها والسلام، أم..
غذ السير، وهواء البحر، يربط جبهته، ويتغلغل في ثنایا ملابسه،
مخففاً من غلواء الشمس، بينما عيناه تبحثان عن ظلال، دون جدوي.
التفت يساراً، حيث تبثق الشوارع، المؤدية إلى وسط المدينة، وعند
أحدها، قدر أنه يؤدي إلى شارعهم، انحرف.. لقي جنيته فريال في
طريقه، التي احتلت مربعاً كبيراً. تطل من المحال في الشوارع المحيطة
بها، البضائع المستوردة.. أقمشة ذات ألوان مختلفة. وأدوات كهربائية..
خلاطات وتلفزيونات، وسخانات، وعلب الشاي، والفواكه المحفوظة،
والشيكولاته واللبن، والأحذية.. خاصة الرياضية، المصنوعة، في هونج
كونج وتايوان تقليداً للعلامات العالمية. قاذته قدماء إلى دكة حجرية في
جانب من الجنيته.. وقد احتل الممر غير بعيد منه، كشك خشبي يصنع
الشاي والقهوة، لرواد هذه المحال.. الذين يستردون أنفاسهم على
الدكك، ويفرغ صبي جردل الماء الذي يغسلون فيه الأكواب في الممر،
وعلى النجيل المنحول، وقد ظهرت تنوة القهوة، وتفل الشاي.

رفع رأسه ونظر... حيث الأشجار، لم يفلح الهواء، في ذر التراب
عنها، فظهرت بقع على الأوراق الخضراء الداكنة، وثمة خيوط عنكب،
بين بعض الأغصان.

آه.. لو أعفته من الغداء، لن يستطيع بلع اللقمة، دون أن يعرف ما انتهوا إليه. وابتسم لأنه أوضح الأمر في ثنايا الكلام، رغم نظرات صفيّة الزاجرة، وقد جاءت زوجة شقيقها. انه استطاع تدبير مبلغ لا بأس به أثناء خدمته كضابط احتياط.

هل وصل ما قصده، أن مستقبله ليس متوقفاً على هذه السفرة، وأنه يستطيع تدبير أمره. حقاً، لن يعود للتدريس كمدرس محاسبة في إحدى مدارس التجارة المتوسطة. لم يعد يستطيع أن يعيش بمرتب المدرس، بعد أن تعود على راتب الضابط الذي يفوقه عدة مرات. وهو ليس من هواة الدروس الخصوصية، وحتى لو أراد، فبعد هذه الغيبة الطويلة، كيف يخترق مناطق النفوذ، التي صنعها كل مدرس في مدرسته، أو في حيه.. وهل يستطيع أن يعتمد على التدريس في مجموعات التقوية بالمدرسة. انخرط فيها مرة، أعطوه خمسين قرشاً عن كل حصة، بواقع ثلاثة جنيهاً ونصف في الأسبوع، ثمن فنجان شاى في أى مقهى الآن، وربما أقل.

بان أولاد شقيقها من الفسحة، يلتقطون طرطشة الكلام، واستحسنت زوجة شقيقها كلامه، فانتشى، مقرأ أنها بلاشك تستطيع إقناع زوجها، الذي لم يعلن بشيء. في تلك اللحظة، لحظة الانتشاء، زغرت له صفيّة.. آه.. «ضربة نشوة».

كان تشكيل من الدبابات الإسرائيلية، بقوة سرية، متقدماً ببطء، وفاتحاً ليضرب، في محاولة لردهم إلى حافة القناة. وتلك اللحظة هي نقطة ضعفه، فأمر العميد جورج بتوجيه ضربة إحباط.

اقترح عبد السلام على العميد جورج «ضربة نشوة».

- نعم يا أخي..؟! -

وتطلع إلى رئيس عمليات اللواء.

قال عبد السلام :

- قبل أن تصل الدبابات إلى مواقعنا، سأوهمها أنني فاتح بتشكيل

للهجوم، وعندما تطلق، ستصمت مدافعي، وستظن أنها فاجأتني بضربة إحباط، وسيخيل العدو أنه نجح، ويصاب بالنشوة، وأنتهز تلك اللحظة، وهي نقطة ضعف أيضاً، وأتف بقواتي الرئيسية من الأجناب، وبدأ القصف.

لمعت عينا العميد الحمراءوان، وتهلل وجهه، وقال وهو يتطلع إلى رئيس العمليات:
- والله فكرة..

وأطرق منتظراً رأي رئيس العمليات، أو ملاحظة أحد من أركان حربه.
فجأة صاح:
- نفذ.

نظر رئيس العمليات محذراً، فارتبك عبد السلام في داخله قليلاً، وقد أحس بالخوف من اندفاع العميد، وفي الوقت نفسه، لم يهضم تماماً شدة حذر رئيس العمليات. واعتراه تردد.. تذكر أمر العميد المفاجئ له بالاشتراك في الهجوم على القنطرة. حقاً أربك دفاعات الإسرائيليين عند القنطرة شرق، من أحد الأجناب، وقد ركنوا إلى أنه نيران ثابتة. لكن من جهة أخرى حدثت ثغرة في تأمين عبور المهمات، لا يدري أحد ماذا كان يمكن أن يحدث، لولا أن تداركت الأمر وحدة مشاة، كانت تؤمن مؤخرته.

وتابع العميد :

- معك سرية.. أرني شطارتك.. وليكن في علمك، لو فشلت الضربة، لن تكفيني.. لا أنت ولا ناسك.

ضحك الضباط الموجودون، وقال أحدهم :

- ناسه في شبرا.

عاودوا الضحك ثانية، وقد وصلتهم تلميحتة، حيث أغلب سكان بعض حارات وشوارع شبرا من الأقباط.

عقب العميد :

- ولو.. يا «عجبر».

وأمر رئيس العمليات، بوضع سرية أخرى من الدبابات على أهبة الاستعداد، تحسباً لأي طارئ.

فتح عبد السلام تشكيله في أرض على حافتها دبابات مدمرة منذ الأمس، وأخفى قواته الرئيسية خلف تبة قريبة. وصممت مدافعه في الوقت الذي قدره، وعندما تقدم العدو وأخذ في القصف، اتسع تشكيل عبد السلام لتشمل أرضه الدبابات المدمرة، لعل الأمر يختلط على العدو. وعندما لاحظ من حركة دباباته أنها تتقدم في زهو، أرسل إشارة للدبابات خلف التبة أن تنقسم إلى جزئين، ويتقدم كل جزء من جانب، فوجئ العدو بالقذائف تحيط به.

هلل العميد، وأخذ عبد السلام في حضنه، وهو يقول :

- عفارم يا سلم.

وعلق أحد الضباط

- لعلهم يقتنعون باستحالة ردنا للخلف.

قال آخر :

- لا أظن.

أحس عبد السلام بزمّة في الهواء، فنهض وهو يقول.. ليتها أعفتني من هذا الغداء.. وتذكر عندما ألح، نظرتها التي كادت تنطله. ثبت عينيه في عينيها، لتقلع، وهي لا ترمش، بينما يرى وجهه في عينيها، بشاربه الأسود، وحاجبيه العريضين، وشعره القصير الزيتوني فوق جبهته السمراء العريضة، محرم، كان عندما يفتش على ذقون الجنود في طابور الصباح، لا يرمش أحدهم.

تجاوز شارع الثلاثيني، وقد طالعتة أرصفته بزهور صناعية، فاقعة

الألوان، وأغصان خضراء داكنة، وخرم باتجاه حي المناخ بالقرب من بحيرة المتزلة، حيث بنوا عمارات شعبية مكان تلك التي أحرقها البريطانيون في حرب 1956.

كانت ثمة بيوت قديمة، ذات بواك وشرفات عريضة خشبية. أخذ يتفحصها، خشية أن يضل. صعد السلم الخشبي حتى الدور الرابع والأخير. طرق الباب برفق، وهو يطمئن نفسه، أنه لم يتأخر عليها، متعجلاً الانتهاء من الغداء، لتوصيلها إلى باص الإسماعيلية، وليعرف منها ما انتهوا إليه. وسواء وجهت إليه ضربة إحباط، أو ضربة نشوة، فسينتجلى بالصبر، حتى يخرجها. فتح له أحد الأولاد، أسرعت صفية خلفه وقالت :
- تعال.



ألم تقل :

«أنت بالذات.. لا أريدك أن تزعل مني».

هل كانت تراعي شعوره، وقد أحست بما يفور داخله، أم أن الموقف فرض الكلمات على لسانها. ولماذا لم تراع شعوره، حينما تحدث أحدهم على المقهي، عن فيلم جميل في سينما قريبة، وحين نهض المتحدث لمشاهدة العرض، رافقته، دون أن تلتفت إليه. أحس ساعتها بالغيظ وكنتم في نفسه.. حقاً.. ولماذا لا تذهب.. هل بينها وبينك شيء بصريح العبارة..؟!!

رجلا بنطلونه بللهما الماء. حذاؤه في يسراه. زيد الماء أعلى ساقيه. وطال رذاذ الموج قميصه، فشفف والتصق ببطنه.

نظر إلى يمينه، فأدرك أنه تجاوز المنطقة التي بها بيته، وقد ظهرت من خلفها ذوابات أشجار الكافور والجازورينا، بأسطة ظلالاً هشة على الدور المنخفضة.

كر راجعاً، ليغير ملابسه.

على باب معسكر الهايكستب، كان لابد من خلع جميع الملابس، وأن يدخل الإنسان كما ولدته أمه. تركوا ما يحملونه. فأخذوه فوراً لإعدامه. نظروا جميعاً، لبعضهم، وانفجروا ضاحكين. ليس من العري المفاجئ تحت أشعة شمس الظهيرة، وهم يدفعون بهم تحت أدشاش مياه ساخنة. وممنوع الخروج من باب الحمام، الذي دخلوا منه. ينتظرهم عند باب

آخر، جندي من قوة المعسكر، يناولهم ملابس جديدة، داخلية وخارجية، وحذاء وشراباً. كان ضحكهم على هؤلاء الذين احتالوا، للحصول على سجنائهم زملائهم في الأسر، حيث كانت العملية رائجة. واشتروا بها بطاطين، جديدة نوعاً، كان الحراس الإسرائيليون يسرقونها من المخزن، لينعموا بسجنائنا، بدلاً من سجنائ «العال» الإسرائيلية الرفيعة، التي يشحط دكانها في الزور.

وكلف المستأثرون ترزية من الزملاء، فصنعوا من البطاطين جاككات بأكمام دون ياقات، وأخرى دون أكمام أشبه بـ الصديري. وحين وصلت هدايا من مصر بها بيجامات، وغيارات داخلية وزنوبية وحلوى وسجائر اشتراها من فاضت معهم سجائر.

وزاد من ضحكهم، رؤيتهم لبعضهم، يخبون في ملابس كاكية جديدة، فضفاضة، ليست على مقاساتهم.

وكان لابد من المكوث في الحجر الصحي، عدة أيام، حتى يستوثقوا بخلوهم من أية أمراض. وجاءهم محاضر من قبل التوجيه المعنوي، وسرعان ما انهالت عليه الأسئلة..

تستفسر في حدة عما حدث في الجبهة في يونيو 67 وكأنه هو المستول عما حدث. وأوسع الضابط من صدره، وهو يرد عليهم.. ولكن.. كيف يخفف عنم كانوا في الأسر.

في معسكر مؤقت في بئر سبع، محاط بالأسلاك الشائكة، مبذور على أرضه، كور من الشوك تشبه شوك القنفذ، وطلبوا منهم أن يجلسوا..

كانوا ما زالوا يتفحصون أنفسهم.. من نجا.. ومن فقد.. في الباص الذي أقلهم من سيناء، منعوهم من النظر إلى جانبي الطريق. فجأة يصبح ضابط في عصبية، مشيراً إلى أحدهم :
- أنت نظرت.

وسرعان ما تلتصق فوهة مدفعه فى رأسه.. فيتكوم مكانه، تسح منه الدماء.

وفى المعسكر، صاح الحارس الإسرائيلى :
- هل فيكم أحد جدع ؟.

.....

- واحد جدع ..

قام أحدهم، فقال له الحارس :

- قل : أنا جدع.

فقال :

- أنا جدع.

عاجله بدفعة من رشاشه.

اشتدت حمية الشمس.. وأوشكت رؤوسهم أن تنفد، وإذا بضابط
إسرائيلى يدخل إلى المعسكر. أجلسهم الحراس ثلاثات فى صف طويل.
قال الضابط :

- بينكم ثلاثة فدائيين.. فليخرجوا.

لم يتحرك أحد. جاءت دبابتان، واحدة من أول الصف والأخرى من
آخره، وهرست كل منها ثلاثة أفراد.

زعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون.. ؟!

.....

عاودت الدبابتان فعلتهما. وزعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون.. ؟!

نظروا لبعضهم، يتساءلون بعبونهم عما يفعلون. خرج ثلاثة من
الصف. أطلق عليهم الضابط الرصاص.

اننصف النهار.. ولحظ المحاضر، أن حدة لهجتهم، لم تخف.. فأخذ يحدثهم عن تجميع فلول العائدين من سيناء غداة الحرب.. وإقامة دفاعات على خط قناة السويس.

بعد المحاضرة صرّفوهم حتى موعد الغداء.. وفي العصري.. حين جاء موعد المحاضرة التالية.. تخلف بعضهم.. وسرعان ما تألّقت عيونهم، ورفت بسمات على الشفاه. بعد المغرب. كانت جماعات، تتسلل من تحت سور الأسلاك الشائكة المحيط بالمعسكر. وقد اتفقوا على العودة في البكور، أو قبل أن يمضي النهار، لمن مسافتهم طويلة. لا يغيب عن ذهن حمدي، أبدأ هذا الألق الذي لمع في العيون، وقد توقعوا مفاجأة الأهل.. واستبد بهم فضول محرق، مبهج، وهم لا يعرفون بالضبط ماذا سيلاقون.

كانوا يجلسون في مقهى، على النيل في طلخا، أرادت صفة أن تمضي لتلحق بموعد خاص بعملها. استأذنت من حمدي، دون الجالسين جميعاً. لحظ ألقاً في عينيها، محملاً بالود. تباطأ في السلام مستمتعاً باللمحة، فاحمرت وجنتاها، وزاد من غيه فهز رأسه نافياً السماح لها بالإذن، اتسعت ابتسامتها راجية، فطارت سداة نبع الحنان في داخله، ووجد نفسه تحتويها، ورأسه تومئ بالإيجاب.

كأنما كانوا نائمين، وصحوا فجأة.. وجدوا أنفسهم وسط أنوار القاهرة المتألقة. أقلته عربية جيش حتى تماس صحراء مصر الجديدة مع العمران مع اثنين من زملائه. حاول حمدي، إيقاف عربية أجرة، لتذهب بهم إلى موقف عربات الأجرة بين المحافظات. يشير السائق إلى عداده، الذي تلقه فوطة صفراء، إشارة إلى أنه خارج العمل. قال حمدي :

- لن يقف أحد لزبائن مقشرفة مثلنا
- قال أحد الزميلين :
- يريد زبائن.. فرادى.. لياخذ من كل منهم ثمن التوصيلة.
- وقال الزميل الآخر :
- وتعلن الحكومة كل مدة عن بنديرة جيدة
- ضحكوا.. وعقب حمدي :
- العداد لا يؤبه له.
- قال الزميلان :
- كنا مستريحين..
- ضحكوا ضحكة ممطوطة. وأردف حمدي، ضاغطاً على الحرف الأخير :
- لا
- تشبهطوا في أحد الباصات المزدحمة حتى موقف «أحمد حلمي»..
- يتفادون بصعوبة دخول وخروج العربات.. ونداءات عمال الموقف :
- طنطنا نفر.. الزقازيق.. المنصورة.
- المنصورة.
- أشار أحد المنادين إلى جانب :
- عندك يا دفعة.
- قال أحد الزميلين :
- ممكن أنزل في ميت غمر
- تدفع أجرة المنصورة
- وهو كذلك.
- ركبوا ثلاثتهم، وسرعان ما اكتملت العربة. انطلق السائق وهم

لا يصدقون أنفسهم.. هل حقاً هم فى مصر.. وينطلقون على الطريق
الزراعية.. وفي الطريق إلى بيوتهم.. حلم أم علم..!!
دمعت أعينهم تأثراً.. لمحهم الراكب جوار السائق فى مرآة أمامه.
التفت إليهم:

- وحدوه.

- لا إله إلا الله.

- تصلون بالسلامة.

«من سيوصل عم عزيز». ما أن نطق اسم عزيز، حتى انفجر الواقفون
ضاحكين، وقد غادرهم شعور بالأسى والترقب منذ بدأوا الرحلة فى
البكور من عتليت، خشية أن يحدث ما يعطل رحلتهم. وقفت الباصات
المحملة بالأسرى قرب الشاطئ الشرقي لقناة السويس. أنزلهم الحراس
الإسرائيليون. حضر مندوبو الصليب الأحمر، لعمل إجراءات الاستلام.
جاءت لنشات من الضفة الغربية لتقلهم. فجأة وجدوا عم عزيز حارس
كنيسة فى القنطرة شرق بينهم :

- الرجال.. الأبطال.. يا مرحباً.

قال ريس أحد اللنشات مداعباً :

- نريدك معنا يا عم عزيز.

- لم بأن الأوان.

- دائماً تقول ذلك.

- ليس بيدي.

قال بعض العائدين :

- افعلها واركب معنا.

- بعد أن يمشي الكلاب.

تلفتوا حولهم فى اضطراب، مخافة أن يحدث ما يعطل الإجراءات.
بعض الحراس يجيدون العربية. نظروا لعم عزيز ولم يعلقوا. لحظ عزيز
ما اعتراهم، فأشاح بيده فى استهانة.

قال ريس اللنش الذى ركبت فيه الدفعة الأولى:

- ألا تريد شيئاً يا مقدس.

- سلموا لى على مصر.

وأعطاه بعضهم، مامعه من سجائر وملابس. بقيت من الهدايا المصرية
التي حملها إليهم الصليب الأحمر. نهاهم الحراس عن ذلك. وأخذوا
فى إطلاق الرصاص من رشاشات عوزى قصيرة المدى. اقتحم الواقفين
ضابط ملوحاً بمسدسه. لم عم عزيز حاجته، كأنه لا يراه ومشى نحو كنيسة
على مقربة. وقد بانّت واجهتها المخروطية على هيئة ثلاث ثمانيات،
الوسطى كبيرة. وتحت الثمانيات دوائر مكسوة بزجاج ملون، علقّت به
الأتربة. ولاح لراكبي اللنش جانب من الكنيسة، ظهرت به خروم، وتساقط
البياض عن بعض الأجزاء.. فظهر الطوب الأحمر.

لكز حمدي الجالس إلى يمينه فى اللنش، وأشار إلى عزيز قائلاً:

- الملعون

تطلع حمدي فوجده واقفاً بالباب الخشبي الضخم. لاحت قامته
الممصوسة، ولم يفلح جلبابه الأفرنجي الأبيض الهفاف فى إخفاء عظام
صدره البارزة. وقد انحنى رقبته قليلاً على صدره، وهاشت شعيرات
رمادية فى مقدمة صلته.. يحيط بها هلال من زغب أبيض.

لوح للنش المغادر بإحدى يديه.. وبالبد الأخرى يوزع ما كّمه على
صبية ونسوة بدويات تجمعوا حوله.

لفت نظر حمدي، عدم وجود رجال وشباب. فأسر إلى جاره فى
النش بملاحظته. قال:

- لحظت ذلك ونحن على البر، سألت عم عزيز فأخبرني أنهم يعتقلونهم.

صافحت عيونهم البر الغربي. وأصوات طلقات الرصاص ما زالت تلاحقهم. وكان أخشى ما يخشونه، وتنطق به نظراتهم القلقة، أن يصاب أحد، أو يموت، وهو على وشك الوصول إلى يته، وقد انتهت الحرب بالنسبة له منذ دقائق.

كان في استقبالهم ضابط برتبة لواء، ومعه ضباط برتب كبيرة. سلعوا عليهم بحرارة، وكان الدمع يطل من عيونهم، لكنهم يتماسكون، بينما العائدون، لم يملكوا أنفسهم، فاغرورقت عيونهم بالدموع، وقد صعبت عليهم نفوسهم فجأة، وتجمع ألم ثمانية شهور في الأسر في لحظة واحدة. حاولوا التخفيف عنهم بكلمات الترحيب، وحمداً لله على وصولهم بالسلامة. قدموا لكل منهم علبه «جاثوه»، وعلبة بها شطائر كباب وكفتة، وزجاجة مياه غازية مثلجة.

وصحبوهم بسرعة، بعيداً عن شاطئ القناة. وكانت الباصات في انتظارهم في القنطرة غرب. ما أن يكتمل أحدها، حتى ينطلق. على جانبي الطريق المسفلت حفر عليها شباك ممومة، ويدخلها جنود نصبوا المدافع، ويرتدون الخوذات، وعليهم شدة الميدان. نهض الجنود من تحت الشباك، ولوحوا لهم بالبنادق.

- حمداً لله على السلامة.

- شدة وزالت.

لم يتعدوا كثيراً، عن القنطرة غرب، حين دوت طلقات المدافع. أخبرهم الجنود المرافقون، أن الاشتباكات عادت من جديد.

من طرطشة الكلام، التفت السائق إليهم، كأنما ليتأكد أنهم بشر مثله.
تبادلوا النظرات، وعمهم صمت، جعل كلا منهم يفرق في أفكاره.
ما أن صعدوا إلى الباص الذي أقلهم من رفع سيئاء إلى داخل إسرائيل،
حتى أمرهم حارس بباب الدخول، بالهتاف : «يسقط ناصر».
تبادلوا النظرات، وتململت أيديهم في قيودهم خلف مقاعدهم. أطلق
الحارس دفعة من رشاش عوزي. مالت أجساد بعضهم على الكراسي،
وسالت الدماء على أرض العربة. قال الحارس في صوت أجش :
- يسقط ناصر.

خرج صوت بعضهم ضعيفاً :
- يـسقـط...ط...نا.. صر.

توقفت العربة عند منعطف.. وصعد شاب غاضب في ملابس مدنية،
وفي كتفه مدفع عوزي. تصفح الوجوه، كأنه يبحث عن شيء، فجأة أطلق
دفعة من الرصاص. قال السائق وكان مدنياً: دون أن ينظر ناحيتهم :
- قريب له مات في الجبهة.
زعق الحارس :

- عاش السيد ديان (وزير الدفاع الإسرائيلي)
تفادوا النظر إلى وجه الحارس، وخيل إليهم أن أجسادهم تتداخل
في الكراسي. أطلق الحارس دفعة من الرصاص فوق رؤوسهم اخترقت
إحداها رأس الجالس جوار حمدي.
خرجت أصواتهم واهنة، فأطلق الحارس دفعة جديدة من الرصاص
وحثهم على رفع أصواتهم.
- يـسقـط...ط...نا.. صر.

ولم يستطع أي منهم النظر في عيني زميله .

الرئيس عبد الناصر، الذي أحبه، واعتراهم الحماس خاصة وهو يهدد ويتوعد في مؤتمر صحفي عشية حرب يونيو، زاعقا في صحفي إنجليزي أنه ليس خروعا مثل ليندن رئيس وزراء بريطانيا.. وبعث صوته الوثائق الحمية في أبدانهم وهم في معسكراتهم، وأنهم سوف يهزمون إسرائيل لا محالة.

فوجئوا بالدبابات الإسرائيلية تقنحهم مواقعهم وهم من المشاة. وطاردتهم طائرات المستير في صحراء مكشوفة، وأمطرتهم بطلقات مدافع الفيكروز، وليس في أيديهم سوي تسليحهم الشخصي من مدافع قصيرة المدى. وحاول من معه بندقية سريعة الطلقات الإطلاق على الطائرات. لكن انقضاها أسرع، ودويها عند الاقتراب يصم الأذان، وينظرون بأسى إلى مدافع الميدان، غير مهيأة للعمل. كانت محملة على المقطورات الخاصة بها، استعدادا للرحيل إلى موقع آخر. وهم بالأمس فقط حضروا إلى هذا المكان.

الأسطولان الأمريكي والبريطاني، قريبان من أرض المعركة، يوحيان بتكرار ما حدث في 56، مع فارق أن أمريكا حلت بدلا من فرنسا، وحيث احتل الفرنسيون بور فؤاد، والبريطانيون بورسعيد، ومن خلفهما القوات الإسرائيلية في سيناء. وأذاع الرئيس الأمريكي تحذيرا بمغبة من يبدأ بالهجوم.

في يوليو عام 1882 وقف الأسطول البريطاني أمام ساحل الإسكندرية. أسرع عرابي لترميم طوابيها القديمة، وإصلاح مدافعها عتيقة الطراز، وكان مدي قذائف أغلبها، غير مؤثر على السفن.

أرسل قائد الأسطول تحذيرا من مغبة العمل في انطواي، لأن ذلك يهدد سلامة سفنه. وكأنما خشي الأدميرال أن يسأله أحد: ولماذا أتيت من

بريطانيا على بعد مئات الأميال، أسرع بإطلاق مدافع بوارجه. اشتعلت النار في بيوت الإسكندرية، وأسرع الجنود البريطانيون إلى البر. وكان بعض القادة قد حذروا من وجود قوات بهذه الكثافة في سيناء، دون عمل، خشية أن تنتقل المبادرة إلى إسرائيل.

وفي صباح السابع من يونيو صدرت الأوامر بالانسحاب.
- يسقط عبد الناصر

وصلت العربية إلى قرية ميت غمر. نزل زميلهما. ورفض السائق أخذ الأجرة. ودع حمدي زميله.. وغرق ثانية في أفكاره..

لا.. لم أهتف أبدا بسقوط ناصر.. كنت أحرك شفتي فقط.. كان الحارس في مواجهتي.. ربما يكون صوتي قد خرج ضعيفا.. مجارة للظروف فقط.. وهل معقول أن أهتف بحياة ديان.. لا.. أنا متأكد أن صوتي لم يخرج أبدا.. خرج.. لا أعتقد.

وعند أجا نزل زميله الآخر. حاول إعطاء السائق أجرة نافرين فأبى أن يأخذ شيئا. اعتدل حمدي في جلسته، وحاول أن يفرد رجله.. يلزمني سوء الطالع دائما.. عندما أنزل أعطيه أجر ثلاثتنا.. وغط نفسه، لأنه احتاط وأخذ سلفة من مقصف المعسكر أكثر من زميله. وعند سندوب، على مشارف المنصورة، سأل السائق عن موقف عربته.. وهل سيدخل إلى المدينة عن طريق كوبري سندوب.. أم سيلف من المدخل الآخر. قال السائق :

- أين بيتك؟

- بالقرب من ميدان الشيخ حسنين.

لف عجلة القيادة، ليعبر الكوبري، غير مصغ لكلامه ينهيه إذا لم تكن طريقه.

توقف عند الميدان. ناوله حمدي أجرتهم جميعاً فأيي.
- لا ذنب لك.

بكف السائق اليمنى أطبق يده على نقرده، وهو يقول :
- عيب.

وجد نفسه وحيداً في الميدان، في مواجهته جامع الشيخ حسين صامتاً. وتبعث من جنبات الميدان إضاءة خافتة، وقد أوشك الليل على الانتصاف. حركت ريح هيئة أغصان أشجار الحديقة التي تتوسط الميدان. طالعته نخلة قصيرة، ذات فروع عريضة. نخلة ملوكي لا تسمع مثل النخيل العادي. وسط الحديقة عامود، أعلاه مصابيح عليها قبعات زجاجية مصفرة، مكورة، وبانت أوراق الفروع ريانة. بالتأكيد لا تقترب منها الحشرات، فهي لا تثمر بلحاً يغريها. كان يحلو له قبيل الحرب، أن يستريح مع بعض زملائه، جوار ثلة من النخيل. وكان السينماوية يحضرون نملاً من الجبل يسمونه المقاتل. ويطلقونه عند جذوع النخيل. فيصعد ليلتهم أعداء البلح من دود وسوس أحمر.

وحتى يقطعوا دابر السوس، أحضروا قططاً، لترشدتهم إلى المسارب المؤدية إلى جحور الفئران، حيث يحلو للسوس الأحمر أن يضع بيضه فيها لئتم أطواره.



والمساء يضع هباءه، أحسن حمدي لسعة برد خفيفة. اتجه إلى مقصف الفندق، حيث يحجز الزجاج عن البحر والهواء. مني النفس برؤية سمية. نظر في ساعته، وتساءل.. هل سلمت..؟!

رفع رأسه، فوجدها أمامه. ابتسامة، تخايل وجهها :
- أفندم.

تخلص من وقع المفاجأة، وقال :

- ممكن أعزملك على حاجة سافعة.

- ممنوع أثناء العمل.

- إجابة لا تتضمن الممانعة.

- بعد انتهاء نوبتك.

- ممنوع في مكان العمل.

- مكان آخر.

- ماذا تريد.

- الكلام معك .

ضحكت وقالت :

- ماذا تريد أن تشرب

- أجيبني ينوبك ثواب

- عندك أمي

- ألا نتفق أولا.

نقرت بالقلم على مفكرتها.. وأشاحت بوجهها :

- أسرع :

- شاي سكر خفيف.

وهي تقيد الطلب، انزلق قلمها الصغير من بين أصابعها، على الترابيزة، أسرع بمنارلته لها، فتماست الأصابع. سري فيه تيار من دفء ناعم، مبطن برغبة مبهمه. رمقته بنظرة جانبية سريعة. أترأها تتساءل.. هل حدثت اللمسة.. بقصد.. أم صدفة. وهي تسحب النظرة، أحس فيها بدلال، واعتزاز، وتحذير.

أولته ظهرها. تأمل مقعدتها المكتنزة. استعاد نظرتها ثانية، محاولاً، سبر أعماقها. عيناها صفراوان، بهما لمعة بنية، غير ما انطبع في ذهنه عنهما سابقاً، أنهما عسليتان. لا.. ليست اللمعة بنية، ولكنها في اصفرار بلح أمهات، استوى على أبيه، أشع فيه ألق الأنثى، فبدأ أشبه باللون العسلي.

وبان له وجهها، أكثر استطالة، مما قدر سابقاً، وأمسى وجهها ولا يدري كيف، أكثر ألفة مما بدا سابقاً.. وأقرب إلى النفس. أحضرت مضيفة أخرى الشاي، فأدرك أن سمية غادرت. لفت نظره أن جمالها طبيعي، دون مساحيق. وبعدها معك..

رأيت فتيات راعني جمالهن، وعلمت أن بعضهن يهوديات. وكان بصحبتهن طلبة من كلية طب قصر العيني، يوزعون الصابون على الفقراء، ويتحدثون عن النظافة، حتى يمكن دفع الكوليرا، التي تفشت في مصر، عشية حرب 48 في فلسطين. والناس يرحبون بهم، ويقدمون الشاي.

سالت :

- من هؤلاء.. ؟

- شيوخيون.

البيت يعرف من عنوانه. لابد من محادثة الأم. لكنني لم أحسم أمري بعد. ولا أريد أن أعد بشيء.

هل ستقبل الأم، خطوبة غير معلنة، فإذا حصل توافق، وثقنا العلاقة، وإذا لم يحدث، فهي القسمة والنصيب.
تردد.. هل يذهب أم لا..

تردد في الذهاب لتوديع حميدة، عندما غادرت في آخر باص ترك العريش مساءً. خشي النظر في عينيها خاصة وهذه ثاني زيارة لها، وكانت عنده من وقت قصير، وهو لم يحسم أمره. كل ما وعداها به أنه سيحضر في القريب. وعليها أن تبحث عن شقة بسعر معقول. لوت شفتيها، ولسان حالها يقول.. وهل يوجد سعر معقول..؟!.. غير المعقول لك، معقول لغيرك.

يا ناس.. هل أذنبت لأن رائي لا يكفيني..؟! حصلت على مؤهل عال.. وذاكرت وحصلت على ماجستير، رغم الاعتقال والتجنيد والأسر، وحالياً أقوم ببحث.. ومن يدري.. أي بحث وأي ماجستير.. ارحل إلى بلد عربي.. حيث الأجر ضعف راتبك، اسم الله عليك، عشرين مرة على الأقل. وتعال.. كون نفسك.. الآن.. على مشارف الخمسين.. وهل طلب منك أحد أن تضيع عمرك.. وتقول لي بحثاً؟ أنست يا أستاذ بحث.

هل أريح نفسي، وأوافق على زواج حميدة. وأحضر أمي لتقيم معي. سيقول الناس، ناسب لحام أكسجين. وحميدة بصراححتها المعهودة.. أنت لا نهملك مصلحتي، كل ما يهملك ماذا سيقول الناس عنك. ونسيت أو تناسيت أننا أبناء مدرس إلزامي وأن عمك ميكانيكي.

توك عمي العمل عند الإنجليز، مع باقي العمال الذين رفضوا العمل في معسكرات الجيش الإنجليزي بخط القناة، بعد إلغاء النحاس باشا لمعاهدة 36 للصدقة مع بريطانيا. عينهم النحاس عمالاً في المدارس والمصالح الحكومية المختلفة، وطالب الإنجليز بالجلاء عن قواعدهم في قناة السويس.

لماذا لا يترك العمال الفلسطينيون العمل في المصانع والمستوطنات الإسرائيلية. أم تراهم لا يودون أن يخيب رجاء بريطانيا، وهي التي عملت على إنشاء إسرائيل، لتقيم فيها مصانع تعتمد على العمالة العربية الرخيصة.

فضل عمي العودة إلى قريته، جوار المنصورة، يفلح قطعة أرض صغيرة، ورثها عن أبيه.

حاول وضع الحقيبة فوق الرف. حالت المسافة الضيقة بينه وسقف العربة دون ذلك. وضعها تحت مقعدها، وقلبه يرتجف خشية أن تنفوه حمدية بشيء يجرحه.

وضعت صفيّة الحقيبة تحت مقعده، في محطة الباص. وجرت تسلم على أصدقائها، ولم تقل له حتى خل بالك.

راقبها، وهي تنتقل كالفراشة، قبل أن تبدأ رحلة إلى مرسى مطروح مع زملائها في العمل. فكر أن يسلم وينصرف.

تريث، ولا م نفسه بعد ذلك. لاشك أنها انطلقت على سجيّتها، واثقة بأنه لن يغفل عن حقيبتها. لا. لا. يا ست هانم، لن أكون الحارس الأمين بعد ذلك.

- سلام يا حمدية.

وهي على وشك الكلام.

- وحياة أبيك، لا تقولى شيئاً.

ضحكت، وتأملته بعينها الصافيتين.

وهو يغادر، طالعته، لوحة خلف مقعد السائق، عن آثار الأقصر، وبالخط العريض «نبح الحضارة». وتذكر النقاش الدائر فى بعض الصحف عن صراع الحضارات.. وهل هو صراع أم تعاون وتكامل.. وانشق فى ذهنه مقال بهاء الدين عن تخلفنا الحضاري، الذي سبب الهزيمة لهم حق يعالجوه فى مستشفى البحرية الأمريكية. عالجوا أم كلثوم فى نفس المستشفى، لا، هذه ضربة معلم، لينالوا شعبية على حسابها.

وهل لهم حضارة، أولئك المجلوبون من شوارع أوروبا، ومتى عملوا حضارة، فى فلسطين، ولم يعض على هجرتهم إليها أكثر من عقدين أو ثلاثة من الزمان. غادر المحطة، وهو يردد فى مسخرة :

فلسطين يفدي حماك الشباب.

فلسطين تحميك منا الصدور

قفز فجأة فى الهواء، إثر فرملة زاعقة من مرسيدس.

- فتح يا «أستاذ».

لم يتفوه بشيء وقد أصبح فى نصف ملابسه.

سارت العربية، وقد نفثت فى وجهه، دخاناً أسود. مرسيدس أربعة أبواب، وتعمل «بالجاز»، مستوردة من إسرائيل، ويقول بعض السائقين فى العريش: إن إسرائيل تعطيها لمن يطلبها مجاناً، فقط تعطيه جهاز تسجيل، ليسجل أحاديث الركاب، وأن يسلمها الشريط، كلما امتلأ.

ترك الميدان، الذي تحرك منه الباص، ومشى فى الشارع الرئيسي، وقد

بدأت المحال والمقاهي، تنير أضواءها، مزينة بلبشة المساء. أحس بأسى يتغلغل في كيانه. لم يفلح في إرضاء، حميدة، وقد جاءت تستجده به. ومن قبل لم يفلح في نجدة عم الهواري، معاشه لم يتجاوز اثنين وأربعين جنيهًا، بينما معاش المساعد أول الآن مبلغ وقدره، كتب له شكاوى، وكان الرد: أنت استقلت، وكان يقول له: هم فتحوا باب الاستقالة. وحاول أن يجعله يفيد من التأمين الصحي عندما اشتد عليه المرض، فاصطدما بعقبة الاستقالة مرة أخرى.

التقاء بعدها، لم يجده مبالاً للكلام، وقد تدلت شفته السفلى المكتنزة، واحترقت قمحية بشرته، وفقد هيكله الضخم شدته، وانطفأت من وجهه اللعنة الباهرة، عندما كان يحكي عما فعله في 73. فطن إلى كثرة الحريات والمؤن، وخمن أن في الأمر شيئًا. جمع من حول موقعه على ساحل البحر الأحمر، العلب الفارغة، والزجاجات المهملة، والمكسورة. فهذه الأشياء تعكس أشعة الشمس، وفي المساء تومض، إذا سُلطت أضواء كاشفة، فيظهر الموقع.

أحضر تموينًا إضافيًا من الوقود، لتشغيل ماكينات الديزل، لمحطة الرادار. وضحك عم الهواري حين ذكر الضابط الذي قال إنه معين في غرفة العمليات، ولا يريد أن يظل بالخارج. كان الإسرائيليون وقد ألقوا صواريخ صغيرة في حجم الإصبع، تصطاد الأفراد.

وعندما سقط صاروخ ضخم على باب الملجأ، طلب هذا الضابط أن يكون بالخارج.

انحرف في شارع جانبي إلى يمينه، متفادياً المارة والمحال. تُرى.. ماذا قالت حميدة لنفسها عنه. وماذا قالت بنت الهواري عنه. أتراها لحظته

يوم السوق. وهو يداري نفسه منها خشية إخراجها وهي تبيع البيض. تنبه إلى نفسه، وقد انبسط أمامه خلاء رملي يحيط حافة العريش الشرقية، ولاحت على البعد أشجار عالية.

رفرف طائر في الجو. ما الذي أخره عن المبيت، ومعالم الأشياء توشك على الضياع.

مر الطائر في اتجاه الجنوب. هل بجناحيه مستطيلات سوداء صغيرة، أم يُهيأ لي. وقدر جسده في حجم حمامة كبيرة. حاول أن يستعيد هيئة منتقاره، لكن مروره المخاطف، لم يجعله على يقين، وإن رجحه صغيراً معقوفاً.

أتراه.. صقر الباز.

من مدة لم يره، أو يخبر عنه أحد. كان يوجد دوماً قرب الشاطئ، يحمله من الطيور المهاجرة. هل تكاثرت عليه، فتزح جنوباً إلى جحور الجبال. هل عاوده الحنين، فخرج إلى الشاطئ أم طار يبحث عن شيء لصغاره، ولما داهمه المساء، أسرع عائداً إلى أفراخه.



قالت صفيّة :

- حفلة شاي، مقصورة على أفراد فلائل من كلتا العائلتين :

وقال عبد السلام :

- بعض الزملاء القدامى ..

- ليست صغيرة، وليست أول مرة.

- على الأقل اللواء جورج.

- لو بدأنا لن ننتهي.

- وحمديّة .. من العائلة ..؟!

- زميلة، وأكثر من أخت ..

- وماذا عن حمدي .. ألن ندعوه ..؟!

توهت في الكلام، ومالت بوجهها إلى جانب، ونشع احمرار خفيف

على وجنتيها. قال :

- أم زميل قديم .. سادعوها.

ألقت الطائرات قتابل عنقودية. قلنا : طائرات أمريكية. إسرائيل ليست

عندها قتابل من هذا النوع.

وحتى إذا زودوها بها على عجل أثناء الحرب، فهل يستطيعون

استخدامها دون معرفة سابقة. تنفرط القنبلة إلى كرات صغيرة، تشبه

كرات التنس. كل كرة إذا اصطدمت بأحد، انفرطت إلى حبات صغيرة من

البلي. كأنها طلقات رشاش، تنطلق في كل اتجاه في وقت واحد، ترشق

في عدة أماكن من الجسد، يتهطل الجسم الحي، وينشق الدم، ويصعب

وقب التزيف. كان هذا الزميل، خبير مفرقات، يجمع هذه الكرات برفق، ويأخذها إلى حفرة بعيدة، ويفجرها. ومن كثرة تَعَوُّده، اكتسب ثقة زائدة، جعلته يمشي على مهل. وذات مرة تعثر، فاصطدمت كرة بجسده. لو ترك حمله يتدحرج، لدمر الموقع كله. أحاطه يديه، وحذب عليه بصدوره، وجري بعيداً، انكفاً على وجهه، فدوى انفجار هائل.

اعترض عبد السلام على إقامة حفل زواجه في شقة شقيقها. بيت قديم، ربما لا يتحمل ما قد يفاجأون بهم من حضور، كما أنه لا يريد أن يضيق على الرجل وعياله.

قالت في حزم:

- اتفقنا على عدم عزومة أحد

- الأمر لا يسلم من مفاجآت.

كانت المفاجأة النقطة 149، وهم يقتربون من ممر متلا، استولوا على نقطتين حصيتين في أربعين ساعة تقريباً، وهذه قاومت، رغم قذائف المدفعية التي انهالت عليها. ومع أن أشعة الشمس مسلطة في عيون الإسرائيليين، ظلوا يضربون. أحدث الضرب خسائر عالية في الكتيبة، الجناح الأيمن، لقوة عبد السلام فاروق. إذا استمر معدل الخسائر، سوف تنكشف الميمنة. طلب قصفة مدفعية ثقيلة مركزة. كان له ما أودا، ومع ذلك ما زالت النقطة تضرب عليهم، كأن شيئاً غير مرئي، يوجههم للضرب على مواقعهم. وبمتهى الدقة.

بينما هم في حيرة من أمرهم، نبههم أحد الزملاء إلى نقطة المراقبة الدولية.. قال عبد السلام:

- أمعقول..؟!

- ولم لا؟.

أرسل عبد السلام ضابطاً وبضعة جنود، للتحري. أخرجوا من في الموقع. أحد عشر ضابطاً كندياً، وضابطين إسرائيليين، وقد رفعوا أيديهم إلى أعلي. آه.. الضابطان يوجهان الضرب للنقطة 149. أرسلوا الجميع إلى الخلف، وفي المساء تقرر شن هجوم صامت على النقطة بالمشاة فقط. التزمت باقي القوات الصمت طوال النهار، وبعد العشاء، تسلمت وحدة من المشاة، وبعد ساعتين، أبلغتهم، استيلاءها على الحصن. ومن استجواب من بقي حيًا، تأكد لهم أن الضابطين الإسرائيليين، كانا السبب فيما فعلته النقطة 149، وهي وحدة قيادة، بها أجهزة تكييف ولاسلكي، وأكثر من متنى سرير.

لماذا تشف صفة رأسها. لم يستطع أن يصدق أنها هي نفسها التي يراها في لحظات اللطف والصفاء هل يتراجع ولم يزل في مفترق الطرق. وهل هذا وقته. وماذا لو كان اللطف ليس ثوبها الحقيقي، وتشيف الرأس ثوبها الدائم. هون الأمر على نفسه، أن الحياة من هذا وذاك. كان من المهم بعد احتلال القنطرة شرق السيطرة على مفترق الطرق، أهمها الطريق الشمالية من القنطرة إلى العريش والطريق الموازية للقناة حتى بورفؤاد، وهذه المنطقة مهمة لإسرائيل لسيطرتها على مدخل الانجاء التعبوي الشمالي، ولحماية حصون دوريا وكتوبا وميلانو ومفربكيت، وعلى بعد حوالي ثمانية كيلو مترات، قوات احتياط لشن هجمات مضادة. في المفترق وقف ضابط يوجه القوات إلى خط السير. فجأة وجد عبد السلام قواته في الطريق إلى سهل الطينة، وهي أرض منخفضة سبخية، ممثلة بالمياه، تحدها من الجنوب منطقة رملية مسطحة، تمتد لمسافة عشرة كيلو مترات، صالحة لسير المركبات.

كيف لم ينتبه وهو الذي يحفظ أرض المنطقة جيدًا، وعسكر في مواجهتها زمنًا ليس بالقليل. عند بدء الحرب، تحركت قواته من قطاعه

غرب القناة، إلى القطاع المقابل في الشرق. وهكذا فعل الجيش كله. وبهذه البساطة لم ير الإسرائيليون أعدادًا كبيرة، تنقل من مكان إلى آخر، استعدادًا لشن الهجوم، وبالإضافة إلى ذلك كان الخبر مخفيًا عن الجيش المصري، فكيف سيعرف به الجيش الإسرائيلي..؟

توقف وتطلع إلى الخلف. القنطرة شرق رابضة على مسطح من الرمال الثابتة، وأمامها شرقًا منطقة مفتوحة بها هضاب رملية صغيرة.

ذهب به الضابط إلى منطقة للقتل. استعاد صورته في ذهنه.. يرتدي ملابس مصرية ويضع شارة الشرطة العسكرية.. سرعان ما انتهالت عليه القذائف، وجاءه صباح العميد جورج في اللاسلكي:

- أين تنجه بقواتك..؟

فخ، ود لو يعود بسرعة، ليقبض على هذا الضابط، مؤكد إسرائيلي متسلل. تراجع بسرعة، محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أصيب جنزير دبابه ودارت حول نفسها، قفز منها، وطلب من القاذف أن يستمر في الضرب لحماية انسحاب باقي الزملاء. أسرع إلى دبابة قديمة تحرس مدخل أحد النماير، سبق استخدامها في الحرب العالمية الثانية، قفز إلى داخلها، وأمر طاقمها بالتحرك. مدفعها يحتاج لمجهود في ضبطه، وباقي الأفراد يعترضون على انضمامهم لتشكيله، فالمدفع مداه لا يزيد على مئة متر، بينما الدبابة الإسرائيلية من طراز باتون ومدفعها مداه واحد ونصف كيلو متر، وفي العمر الأول، ويستطيعون إصابتهم بسهولة. وإزاء إصراره على اللحاق بقواته، رضخوا له، بينما كان يصرخ في اللاسلكي، طالبًا طلعة طيران. وعندما مرقت الطائرات فوق رؤوسهم، تنفسوا بارتياح.

تراجعوا إلى منطقة آمنة. وجاء العميد جورج يتفقد دم. كانوا واجمين، يقرأون الفاتحة على أرواح الشهداء. وقف إلى جوارهم، وفتح كفيه إلى السماء، يقرأ معهم.

وحين أنزل كفيه، تساءل.. هل بكر فى الدفع بسرية عبد السلام فاروق.
تغضن وجهه، وهم يتطلعون إليه. قال :
- من مات.. يرحمه الله.

وأشار بيده، فصعدوا إلى الدبابات. طلب قصفه مدفعية مركزة على
الحصون الإسرائيلية وعلى الطرق خلفها، ليقطعها على الاحتياطي. وظل
متحفزاً، لا يطاوع نفسه، كأنما يؤكد لرئيس العمليات ولأركان حربه،
أنه تروى تمامًا، قبل البدء بالهجوم. وعندما قدر أنه الحصون انعزلت
عما حولها، وأن الإسرائيليين قد طأطأوا رؤوسهم خلف مدافعهم، لا
يستطيعون رفعها، من شدة القصف، أعطى الأمر بالتحرك.
تظاهر بمطارعة صفية وهو يغادرها، واعتزم فى نفسه دعوة اللواء
جورج، على الأقل يحضر معهم قراءة الفاتحة.



فى الصباص الباكى؁ باءر اصحاب المبال بفتحبها؁ ورفعوا الأعلام المصرية. وتخللت الأشجار مصابيح ملفوفة بورق سوليفان أخضر وأحمر وأزرق وأصفر؁ وتدلّت كرات فضية وذهبية؁ عكست أشعة الشمس الهينة.

وسرعان ما استيقظ سوق الخميس. افترشت السيناويات الأرض؁ وصرصن أمامهن ثياباً بألوان زاهية؁ وبجانب سور مبني؁ قصير؁ علق بعضهم شماغات؁ عليها ثياب التدريب الرياضي. وفوق أقفاص من الجريد فرش أحدهم ملاءة؁ وضع فوقها زجاجات من العطور؁ مختلفة الأحجام؁ وعلباً من الكريم؁ لها علامات متعددة. وفي جانب فرشت سيناوية قطعة من الخيش فوقها كوم من اللوز السيناوي؁ صغير الحب؁ وأمامها ميزان؁ وغير بعيد منها جلست سيناوية أخرى؁ وأمامها أعشاب مختلفة.

برزت الشمس أكثر؁ وبدأت تتخلّى عن ستر لحيها؁ لكن السيناويات؁ لم يتخلين عن البراقع الحمراء؁ التى تنسدل فوق وجوههن؁ وقد أخفى مثلث من قصبة ذهبية أنوفهن؁ وإن برزت عيونهن السوداء؁ وجوانب وجناتهن المشربة بسمرة خفيفة. وتتوسط البراقع دوائر ذهبية. فى حجم قطع العملة الصغيرة؁ وتنتهى بثلاثة صفوف من نفس المعدن؁ مستعرضة؁ عند نهاية صدر جلبابها الأسود. المزركش؁ بطيور ملونة ترفرف؁ وعند الوسط حزام به دوائر زخرفية؁ بنسيج ملون؁ والكمان زرقاوان؁ من قماش فائلة؁ وبعض السيناويات يحطن رؤوسهن بمنديل من نسيج رقيق أسود؁

يتدلى طرفه على صدرها، فيخفي جزءاً من زركشته، ويلف بوجنتيها، فيبرز البرقع أكثر. وعيونهن جميعاً، تناديك، وهن يتوقعن ألا تخيب رجاءهن. همس سعد للباشمهندس :

- عجبك شيء.

- والله ما أنا عارف.

رجاء أن تعرف، ودعك من ترددك.. الشتلة، إذا كانت على وشك الإزهار، من الصعب ملمسها من الأرض، وإذا زرعتها في مكان آخر، ستزوي وتموت. فإذا أردتها أن تصح فلا بد من نزعها بصلاية كبيرة من الطين حولها، والتربة هنا رملية، فإذا انتهت مأموريتي، هل ستوافق، وهل ستوافق أمها، أن ترحل معي، أم سترفض كما فعلت مع السكندري حين نقل إلى بلده.

يا عم، وقتها تكون صلاية من العشرة، وربما من طفل، ومن الألفة قد تكونت. عربة يد، عليها أقمشة وملابس وقمصان، مصنوعة في تايوان وهونج كونج، وعلى جانب من العربة، وضع البائع صورة كبيرة مبروزة للرئيس السادات.

وطالعتهم الأعلام الصغيرة، في جوانب العربات، ولاحت الكبيرة، مرفوعة على واجهات المحال، في ذكرى جلاء الإسرائيليين عن سيناء. كان يحلوه وهو صبي، أن يمشي مع أقرانه، في شارع السكة الجديدة بالمنصورة بعد الخروج من المدرسة، يغازلون الفتيات، ويشاهدون المعروض في واجهات المحال. وعشية إحدي الاحتفالات بذكرى 23 يوليو، ذكرى استيلاء الضباط «الأحرار» على السلطة، كان مخبر يسير معه خيزرانة. يخطط بجانب باب كل محل، ويقول بصوت أجش : علق العلم. لا يجيبه صاحب المحل ولا ينظر إليه، كأنه كلم أحداً غيره، ويظل

المخبر يتلكأ، وعيناه جامدتان على صاحب المحل، حتى يعلق العلم على سارية تطل على الشارع، مائلة في جانب من باب المحل وفي اليوم التالي، حيث الرئيس عبد الناصر، سيلقي خطابه الممهور في هذه المناسبة، قبل العرض العسكري، الذي يسهب المذيع في وصفه، وفي استعراض قواتنا العسكرية، يطوف المخبر، مرة أخرى، ليتأكد أن الأعلام، مازالت مرفوعة، ويفاجأ الأولاد، أن أغلبها اختفي. يتراخم المخبر، حتى تعود الأعلام إلى سواربها. ولا يدري حمدي، لماذا انسحب من لسانه، أمام أحد المحال، تجاهل صاحبه المطلوب منه، والمخبر لا يتتبع، وقال : ليس عنده. ركب المخبر شيطان، وتخلي عن بلادته، ورفع خيزرانتة، التي طالت ظهره، وهو يقفز جاريًا، يلاحقه زعيقه : وأنت مالك يا ابن الكلب.

جمع من النسوة، علقن أكلمة صوفية، صناعة يدوية، تمازج فيها البني والأصفر بدرجاتهما، راحة للنفس والعين. وضع راحته خلف، أحدها:

- صوف

- جملي وخراف.

قلب في حقائق مشغولة بمنمنمات من الخز الملون. أمسك واحدة، وقد أشرق وجهه.

- من غير فلوس.

تمتم سعد، وحمدي يعرض عليها ما تريد من نفود دون مساومة :

- أخيراً

وأخذه من يده، إلى جمع آخر من النسوة، يعرضن عقودًا من الخز وألكهرمان الأحمر النقي، والفيروز، أخضر، فاتح وغامق، يشع بعضه بأزرق سماوي، ومجزع بخطوط هشة سوداء. وأساور معدنية. تناول حمدي إحداها وقال :

- فضة

- مطلية

وناولته، أسورة، وقالت :

-فضة، وقيمة.

فأمل حمدي نقوشها الرقيقة، متفهمًا، ومساومًا. ولفت سعد نظره لأحزمة عريضة، مشغولة بالكاتفاه في أشكال زخرفية، مربعات ومثلثات، وتدلّى منها خيوط من خرز دقيق أزرق وأخضر.

- يكم الحزام؟

همهم سعد :

- بسمونه سيرًا

قالت المرأة :

-بما تأمر به.

ضحك حمدي، وقد لفت نظره أن أكمام هذه النسوة ليست من قماش فائلة، ولكن من قماش أزرق وأخضر قاتم، عليها ورد أحمر ويمبي. انتفى سعد سيرًا لنداء، ولحظ تردد الباشمهندس في الشراء، فأشار إلى العقود. انتفى حمدي أحدها، ولحظت المرأة الجالسة أمامها شغفه، فقالت :

- كهرمان، لبس له أخ.

- كم.

- من أجل خاطرك، سبعون جنيها.

هز رأسه معترضًا، فأخذت السيناوية تباهي بالعقد على صدرها وتقول:

- أحسن من الذهب.
 وإزاء، تردده، عرضت عليه عقداً آخر، سألها مستنكراً، وقد لاحظ لونه
 الفاتح :
 - كهرمان
 - كباس، تلبسه المرأة بعد الولادة.
 همس سعد :
 - ليقبها من شر حاسد إذا حسد.
 لوحت المرأة بعقد من الفيروز أخضر غامق :
 - يحمي من العين.
 وأكمل سعد ضاحكاً :
 - ويفلق الحجر نصفين
 لوحت المرأة بعقد آخر من الفيروز أخضر فاتح :
 - وهذا يريح القلب
 تبادل حمدي وسعد النظرات، وأمسك سعد بالعقد، فعاجله حمدي :
 - لك، أم لندا.
 لم يلتفت إليه، وتطلع إلى السيناوية، فقالت :
 - من غير فلوس.
 أدرك سعد أنها ستهاون في السعر، وأمسك حمدي عقد الكهرمان
 الذي كان أعجبه، ولوح به ناظراً إلى سعد، فطمأنه بإيماء من رأسه.
 هبت نسيمات طرية من ناحية البحر، خففت من حرارة الزحام. وتخلل
 الهواء أعطاف السيناويات، فانتفخت جلابيهن الفضفاضة من أسفل،
 وتطايرت أجزاء من المناديل السوداء، التي تغطي رؤوسهن، وأجزاء من
 صدورهن، فبانت الزخارف المشغولة بالخيط الوردي والأحمر، والخرز
 الأزرق والأحمر والأخضر.

وبان الخجل في عيونهن الكحيلة، وهن يللمن الأطراف.. وبدت البائعات، والباعة، أقل شدة في مساومة المشترين، ولاحت، على البعد، الأعلام، فوق الدور، وعمارات الفنادق العالية، وكأن الهواء، قد بعث في ثناياها أصدااء ضحكات مرحة، فأخذت ترفرف، ممازحة، في بهجة وخفة.

عربة عليها بعض الدمى. شغل صاحبها عروساء، أخذت ترقص، وقد أفسح لها مكاناً، وتحلق الناس حولها.

كانت الدمية المحشوة بالقش، يتدربون عليها به الطعن بالسونكي، وهم يصيحون «هع». كان سعد يزعم، ولا يأتي صوته خشناً. طلب منه الرقيب التكرار، وحين يش منه، أشار لمن يليه، ليتقدم. لفت هذا نظر واعظ حضر إلى الكتبة لمحاضرتهم. فاستأذن من الرقيب أن يستبدل به هع، الله أكبر.

طاووعه الرقيب، مرخيًا ذراعيه إلى جانبيه. أشار لسعد، ونظر للواعظ، كأنه يريه آلا فائدة من الأمر.

صاح سعد : الله أكبر، ولم يصدق نفسه، حين سمع الرقيب يقول : أحسن. ويشير له أن يعيد الطعن.

الله أكبر فوق مياه القناة. الله أكبر فوق الساتر الترابي في الشرق وفي الغرب. كسب سعد وزملاؤه الرهان. أين الجندي لأخذ رهانهم منه. في البداية حدثت هرجلة، ثم انتظمت الأفعال.

المدفعية تضرب على حافة الماء في الشرق، ما أن وصلوا، حتى ارتفع الضرب إلى الطريق، لقطع أية إمدادات إسرائيلية، ولم تلبث المدرعات البرمائية أن لحقت بهم.

الصيحة في أمر القتال : الله أكبر. قبل فتح الفجوات، كان أحدهم يتسلق الساتر الترابي ويقف أعلاه، ويدلي سلماً من الحبال، بين عقده،

قطع من الخشب يرتقيها الجنود. حامل المدفع الثقيل ينتظر، حتى يصعد باقي زملائه. يربط مدفعه أسفل السلم ويرتقيه ويجذبه من أعلي. يطوي السلم ويلحق بزملائه.

من مطالعتهم لوجه الجندي، حين حضرت عربة التعيين، عرفوا أنه أدرك خسارته لرهانه. ألقى السائق كمية من السجائر على الأرض، وقال:

- نادوا على المسئول ليوزع على العساكر.

عبأوا جيوبهم بالسجائر، وخامرهم إحساس أنها ليست مناوراة الخريف المعتادة. وهرب المراهن بعينه من نظراتهم، حين أحضرت عربة أخرى، كمية كبيرة من الألغام.



خرج صفوت من بيته في عرايشية مصر. اتجه إلى محطة الباص، ابتاع جريدة، وفكر أن يتمهل قليلاً في مقهى في الشارع الذي به المحطة.. حيث البواكي قد صنعت ظلالاً لبعض البيوت. وتناثرت أمام بعض محالها أدوات ومساحيق التجميل، وأقمشة وملابس من البرلون.. والجينز.. بركات بورسعيد هلت.. وكلها.. أو أغلبها مصنوع من ألياف مستخرجة من النفط.. تسرع العرب في إعادة ضخه.. وأصغوا إلى المسئولين الأمريكيين الذين طافوا بالعواصم العربية سرّاً، بينما في العلن يصرحون أنهم يبحثون عن بدائل للنفط.. هل سيصنعون الملابس من رياح طواحين الهواء.. وهل صدقتهم اليابان وأوروبا.. التي ارتعشت عندما خايلها شبح البطالة.. واحتمال الموت برداً من شتاء على الأبواب.

عدل عن الذهاب إلى المقهى وقال : البدرى بدري. أظل رأسه بالجريدة، وصعد في الشارع المؤدي إلى خارج الإسماعيلية. وجد حاجزاً وضعه رجال المرور، ويحولون سير العربات.

وضعت الشرطة حواجز في عرض الشارع أمام اللجنة الانتخابية ووقفت غير بعيد عربة الأمن المركزي، وبها الجنود بالمدافع الرشاشة، وكلما اقترب أحد من الحاجز، زعق به ضابط يحيط به جنديان، شهراً مدفعين رشاشين : بطاقتك.. أسرع.. لا نريد جمهرة.

ولما كنت غير مزنوق على هذا، فقد عرجت إلى شارع جانبي ومضيت. وفي رأسي ما أذاعه التلفزيون في المساء، ويذيعه عشية كل انتخاب عن ضرورة ذهاب الناس إلى صناديق الاقتراع، وأنه لشيء مؤسف ألا يؤدي

الناس حقهم الدستوري. وبعد الانتخاب، ينسى التليفزيون ما أذاعه، ويتحدث عن إقبال الناس على الاقتراع، وحضور أكثر من خمسة وتسعين في المئة. صعد إلى الطوار، متفادياً الحاجز، إلى يساره مجري مائي، لطف قليلاً من الصهد الذي يبخره الأسفلت، وهبت نسيمات من أطراف بحيرة التمساح، خففت قليلاً من حرارة الشمس.

وطالعت على البعد لافتة زرقاء، وسهم يشير إلى طريق القاهرة. وإذا لم تخنه الذاكرة، فبيت المقاول، في ثاني شارع إلى يمينه. دعا الله أن يجده في هذه الساعة. سمع أنه في حاجة إلى لحام بالأكسجين. فإذا وفق إلى عمل معه، سوف تبطل حجة السيد حمدي.

ماذا يظن نفسه. هل سيصلح الكون. كان يحمل هم زيارته، لكنه أراد أن يقطع عرقاً، فنابته دروس في الجغرافيا والتاريخ، ولا بد من إرجاع فلسطين عربية، يا سيدي الحكومة ارتضت السلام الآن، فما شأنك أنت. ومن سيصغي لك، والكل ملخوم في البحث عن أكل المعيش. لوح بيده وأكد : هذا هو الطريق لأكل المعيش.

صمت يلوك في ذهنه : مصيبة حارة هذا الرجل، هل سانتظر دون عمل، حتى يتم القضاء على إسرائيل، بينما استمر حمدي : عندك العراق كان على وشك خلع ثوب الدولة النامية، أقام بنيته الاقتصادية، وعنده رصيد كبير من الدولار وغيره، وسنوات قليلة، وتجدد دولة متقدمة مثل فرنسا، فتحت له أمريكا بالوعة الحرب الإيرانية.. ابتلعت رصيده، وشبابه، ورصيد العرب من عوائد النفط. نظر إليه دهشاً، فأكمل : ألم تساعده الكويت والسعودية والإمارات، كل هذه النقود ذهبت لتجار السلاح في الغرب.

وعندما سأله ما دخل هذا بنا، ضحك وتحدث، كأنما إلى ساذج، وقال : ألم تقرأ في الجرائد عن ضغط الميزانية في السعودية.. تصور

السعودية تتكشف، وبعد قليل تستغني عن العمالة الزائدة، وفي مقدمتها عمالنا. قال صفوت في نفسه : ما لي وهذه المسائل، لقد جئت من أجل التحدث في خطبتي لحمدية، تدخلني في متاهات، ومحاولا التخلص: على أية حال مصر شيء آخر. وكأنما كان حمدي ينتظر هذه المقولة، قال: وماذا عن بالوعة حرب 67..؟ قال في نفسه : أنت فالح في الكلام، وخيبتكم قوية، وزاغبا في إنهاء النقاش : يا سيدي.. الله يصلح حالك.. ماذا قلت..؟ تطلع إليه نافذ الصبر : قلت عندما توفق إلى عمل، وتحصل على شقة، تعال نتكلم. هل ستكلم ثانية..؟

وهو ينهض، داعبه حمدي ضاحكا : حبيبك بهاء الدين كتب من يومين، مشيدا بالغزو الأمريكي لبنما، وبأخذ رئيسها لمحاكمته في أمريكا. هل القانون الذي درسه يدعو لخطف الناس، والاعتداء على سيادة الدول. حمله وهو يقول: عملهم وأخذوه، فعاجله : قصدك خرج عن طوعهم ويودون تأديبه. صمت وهو يقول في نفسه : ماله، بهاء الدين، كاتب وطني، وآراؤه يقدرها الجميع، عداك أنت الذي لا يعجبك العجب. ولم يشأ التسليم فقال : رأيه، وقد يخطئ ويصيب، ولكنك لا تستطيع القول أنه باع نفسه لهم، الدور، على من يبيع أرضه وعرضه. ولم يكن يدرى أنه بذلك فتح بوابة الجحيم، فانطلقت الحمم : يا أبا جهل هل تعرف ماذا فعل الإنجليز في فلسطين، ولم يصغ لاحتجاجه أنه لم يقصد إلى شيء من ذلك، واستمر : أمر الحاكم الإنجليزي بزراعة محاصيل للتصدير وأعطاهم السلف لذلك. وبعد نزوح المحصول منع التصدير، فانخفض السعر، ولم يجد الفلاحون مالا لتسديد ديونهم، فبيعت أراضيهم بسعر التراب للجمعيات الصهيونية، وليته اكتفى بذلك.. باع وقف السلطان عبد الحميد، من أخصب الأراضي في غور الأردن، لنفس الجمعيات،

وطرد المزارعين الفلسطينيين منها.

هذا هو الشارع، بالتأكيد، دعا الله ثانية، أن يجده، حتى لا يشمت فيه هذا الحمدي. وطمأن نفسه، أن الرجل خبره جيداً، فإذا كان في حاجة لمثله، فلن يتردد. كان يستعين، به، عندما كان في سرية الحراسة، حين علم أنه فني، في بعض المهام، التي كان يحتاجها العمل في إنشاء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات. وانتقل مع شركته من موقع إلى آخر على خط القناة، حيث تم صب ما يقرب من ميلوني متر مكعب خرسانة مسلحة ومليون ونصف خرسانة عادية، ورأي بعينه عمال شركات المقاولات والجنود ينقلون ما يقرب من خمسة عشر مليون متر مكعب من الأتربة، لإقامة سد ترابي في الضفة الغربية حتى لا يراهم الإسرائيليون، وهم يمدون مئات الكيلو مترات، من الطرق الأسفلتية، ومن الطرق الممهدة بمواد تثبيت للترية.

ما أن يصب العمال القاعدة، حتى تحلق الطائرات الإسرائيلية في الجوّ، يسرع العمال إلى الملاجئ، وتطارّد كنانب الحراسة الطائرات.. ما أن تختفي حتى يعود العمال.. ولم يكن الموقف يطاق عندما يسقط العمال، من قصف الطائرات.. ويضطرون لسحب الجثث تحت القصف، قبل أن تضيع معالمها. وذات صباح، ذهب ما أحسوا به من غصة، عندما لاحظوا أن الطائرات الإسرائيلية، فوجئت بحائط من صواريخ الدفاع الجوي.. لا ينسى هذا الصباح.. كانت الجرائد بالعناوين العريضة تعلن عن احتفال أول مايو بعيد العمال.. كان صباح الثلاثين من يونيو عام سبعين.. عندما سقطت ثلاث طائرات من خطاف السماء (سكاي هوك) والشبح (الفانتوم)،

وفي اليوم الثاني من مايو سقطت طائرتان وثلاث في اليوم الثالث.. وتوالي سقوط الطائرات، وبدأوا يتحدثون عن تآكل السلاح الجوي.. ولكنه وقتها لم يحس بأهمية ذلك تماماً.. أحس بذلك حقيقة، عندما كان في سيناء، فوق جبال سدر، وجاءتهم الأنباء أن إسرائيل أعطت تعليمات لطياريهما بعدم الاقتراب من خط قناة السويس لمسافة خمسة عشر كيلو متراً.. ساعتها اهتز جسده بفرحة داخلية طاغية.

قال لصفيّة :

- متى تعيشين حياتك.. وتنجين طفلاً نفرح به وبك؟

- صدقني.. لا ينقصني شيء.

- والسفرة التي ضاعت..؟!

- لم أعد أسفًا لضياعها.

نظر إليها مدهوئاً، فقالت :

- هل يرضيك أن أَرْضِخَ لفكر من العصور الوسطى.. مخرم..؟!

تفكر في كلماتها ملياً، وقال :

إذا كان الأمر خلافاً من وحي ساعتها، يمكن معالجته.

- وأكرر غلطة زواجي الأول.

لم يشأ أن يضغط عليها أكثر من ذلك، خشية أن يضطرها إلى ما لا تحب، وخشية أن تفسر كلامه أنه يزحلقها لتخلو له الشقة، مع أنه أفهمها أكثر من مرة، أنه يعتبرها شقة العائلة.. وأخوها شقته في بورسعيد على كف عفريت.. ومن الممكن أن يفاجأوا به وببعضه في أية لحظة. وتذكر عبارات، سمعها منها دون قصد. كانت حميدة عندها. وهو يرتدي ملابسه في المحجرة المجاورة، والباب موارب.

- لم احبه، ورضيت بقدري.

- لماذا تزوجتبه .. ؟!

- لاكون أما.

وبعد فترة أكملت :

- لا أذكر يوماً، ربت على كتفى، أو أراح ظهري على صدره.

- مشاغل الحياة.

- أية مشاغل، لم نتحاضن أبداً فى غير الجنس. هل تصدقين.. عذوبة

الجنس ليست فى الوصول للنشوة، لكن فى الإحساس بالحنان.

ويبدو أنها استشعرت وجوده فصمتت، وأحس هو بالخجل، وأسرع يكمل ارتداء ملابسه، وقد تعجب من كلامها، وهي الجامدة، التى لم تذر فمعة واحدة، يوم ماتت أمها، وود لو يحيط كتفيها بأحد ساعديه، ويشعرها بالحميمية.

أحس بالعطش. تردد فى الوقوف عند ثلاجة أمام محل بقالة، ممناً النفس، أنه سيشرب بعد قليل تحية المفاول. وسرعان ما قال فى نفسه: لا.. دائماً عندما أنتظر شراب المضيف، لا أجده، وإذا وجدته، يكون متعجلاً، المهم لأي سبب لا ينويني شىء. وأصبح يتشائم من انتظار هذا المشروب. فتح غطاء الثلاجة، يتقي زجاجة مياه غازية ساقعة.

كان العمال يصبون إحدى القواعد الخرسانية، بعد فايد بقليل، فى طريق السويس. تأخرت عربة الماء، والشمس تصبب الحميم. جس أحد المهندسين الرمال، بحثاً عن الرطوبة. دلهم على منطقة غير بعيدة، يحتمل وجود ماء بها. كيف يمكن سحب بعض العمال، وقد اسودت جلودهم، وكاد يستقطهم الإعياء، للحفر، تحت نار الله الموقدة.

أطلقت دبابة من الضفة الشرقية قذيفة وصمتت. تطلعونوا بانزعاج. قال صفوت:

- لا شيء، تقيس المسافة.

ولمعت عيناه فجأة:

- أين الهيئات الهيكلية.

أسرع بعض أفراد الحراسة، وسحبوا بعض الهيئات.. دبابات خشبية.. باب ملجأ.. قاعدة مدفع مموهة بفروع من شجرة.. ووضعوها قرب الرمال الرطبة.

سرعان ما جاءت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية، رصدتها، ولم يأت أحد لضربها.

نظروا إلى صفوت، في خذلان، لكنه قال:

- غيروا من وضع الهياكل، وأضيفوا لها هيكلًا على شكل قاعدة خرسانية، وعندما تأتي طائرات الاستطلاع، اضربوا عليها. أطفروا وقد ملوا النظر إلى السماء، وإذا بالطائرات القاذفة، تلقي قنابل الأعماق.

راقبوا بقعة الرمال.. ولم يمض وقت طويل حتى فاض الماء. أظل صفوت رأسه بالجريدة، وأخذ يطالع البيوت، حتى تأكد من الباب.



سُر لا اشتداد عود الشتلات قرب الحدود. وسُر أكثر لتنفيذ العمال تعليماته بالحفر أعمق لكنه ما زال على غير يقين من سرقة الماء.

أحس بالظما. واشتافت نفسه لفاكهة مرطبة.. مثل البطيخ، أو الكانتالوب، تنعشه. ترك الأغوار إلى الشارع الطويل المؤدي إلى الشاطئ. لا يمل من مطالعة البيوت المنخفضة إلى يساره، مقامة على رُبي رملية، تحيط بها أشجار أكاسيا، وتلمح من فرجات أسوجتها أشجار التين بأشواكها المشرعة. وكما تعود لم يחדش سمعه أى صوت، ولم يخيل نظره ظل لشيء يتحرك. ويكرر أمينته : لو يعيش الإنسان في مكان كهذا. وتطلع ببصره إلى يمينه، حيث لا توجد مبانٍ، وحيث تسلم حافة الشارع نفسها لرمال ممتدة، حتى سور الحدود. فكَر أن يتجه إلى الشاطئ، حيث لا يري سوى آحاد الناس، وحيث المياه زرقاء عميقة. لم تطاوعه قدماء، وعرج إلى الشارع المؤدي إلى بوابة الحدود، ولا يعبر منها سوى المشاة، بخلاف البوابة الأخرى والتي يسمونها منفذ رفع وتعبر منها سيارات الأجرة والخاصة والشاحنات المحملة بالبضائع، وفيها جمرك. طالته محال الفاكهة وبعض المقاهي على الجانبين، أسفل بيوت لا يزيد ارتفاعها عن دورين، ووشت هيئتها يقدم موادها من الأجر والخشب.

أنعشته رائحة الكانتالوب، فجلس على مقهى بالقرب منه عربة يد تحمله، وبينما يعد له العامل « البوري » ويحضر شايبه، تطلع ببصره عبر امتداد الشارع. صدمته بوابة الحدود الضخمة. عالية بعلو السور الممتد إلى البحر من يمينها، وإلى ما لا يدركه البصر من يسارها وترددت عيناه

فوق القوائم الحديدية التي دُقت في الأرض، وفوق شبك الأسلاك العنكبوتية الممتدة بينها.

جذبت انتباهه جمهرة عند البوابة. نهض لإشباع فضوله، متجاهلاً قدوم العامل بالبورى في يد وبالأخري يلوح بمصفاة فيها جمرات، ليزيد من توهجها.

اقرب من البوابة، نظر إلى البوابة المقابلة، يفصلها عن بوابتنا بالعرض طريق طويلة، ممتدة بامتداد السور، والجنود الإسرائيليون يمنعون امرأة من العبور، وهي تصرخ وتولول. صاح جندي في وجهها :
- ليش ما جئت في الميعاد.

فجأة اصطدم طائر للقلق بشبكة السلك، أحدثت قوة الصدمة نزيفاً، وأخذ دمه يتساقط أحمر قانياً. وحتى لا يسقط أخذ يتشبث بفتحات السلك، ويخمشها بمخالبه.

تشبث صفة بذراعي القريب منها، وأحسست بأظافرها، رقيقة ، مستجيرة، وكنت ألس قميصاً بنصف كم، في جو صيفي طري.

اندفعت المرأة، فاعترضها الإسرائيلي ووضع مدفعه الرشاش بالعرض على بطنها، وشهر باقي زملائه مدافعهم في وجوه جمهرة تجمعت ناحيتهم.

فجأة وجدنا أمامنا مجموعة من الكلاب الضالة. كنا عائدين من سهرة عند أحد الأصدقاء وسرقنا الليل والكلام. وقفت الكلاب على بعد غير قليل. لمعت عيونها الفسفورية، وفتحت أفواهها نصف فتحة. بانت أنيابها، وأخذ لعابها يسيل. نظرنا إلى بعضنا بعضاً في خوف، وزادت صفة من تشبثها بذراعي. قلت لهم: تجاهلوها واستمروا في المشي.

رفرف اللقلق بجناحيه، محاولاً الطيران. نحت المرأة المدفع جانباً، واتجهت إلى طائر اللقلق. قفزت محاولة الإمساك به. عادت إلى الجنود

وأخذت كرسياً، وضعتة عند السور وصعدت فوقه. أخذت الطائر في حضنها، غر مبالية بالدماء التي خضبت بلوزتها البيضاء بزهورها الوردية المنمنمة. أحاطت الطائر بإحدى ذراعيها، وأمسكت بالأخري الكرسى. وضعتة في غل عند الجنود. زادت من حذبها على الطائر، وولت وجهها ناحية البوابة المصرية، وسارت بخطوات ثابتة.

كان لا بد أن نمر بجميع الكلاب، لكي نعبّر الشارع وإذا تراجعنا فسوف تطاردنا. سمعنا زوما مكتوماً، متحرشاً، باحثة، فيما بدأ، عن تكئة لتتشب أنيابها في أجسادنا. حذرتهم من أى اضطراب، مدارياً رعباً في داخلي، وحين مررنا بالكلاب، زاد غرس الأظافر في ذراعي، بينما أحاول التماسك، والخطو بثبات. لو أحسّت الكلاب بلمحة ضعف، ستنفص علينا.

تخطيناها، فتنفسنا جميعاً بارتياح.

عبرت المرأة البوابة المصرية، ووضح أنها في عجلة من أمرها، اقترب منها حمدي، ومد يديه إلى الطائر. وقفت برهة مترددة، فطمأنها أنه سيذهب به إلى طبيب بيطري، في الوحدة عندهم، ووسد يميناه زغب صدر الطائر النافر، ثم مسح على ريشه الأبيض، العامر بالسواد في جانبي جناحيه، والتي نالت من زهرة سواده بقع الدم المتجلطة، والطائر يحاول في ضعف إزالتها بمنقاره الطويل، وحمدي يهدئ من حركة رقبتة الطويلة، محاولاً طمأنته. غادرت المرأة، فجأة دون كلمة، فتمتم أحد الواقفين.

- ربما لتلحق بأولادها.

تطلع إليه حمدي متسائلاً، فأردف الرجل :

- كثير من العائلات مقسمة، بين رفح فلسطين، ورفح سيناء. الأب يعمل هنا والأم بصغارها تسكن هناك أو العكس. من قبل لم يكن هناك مشكل، كانت كمدينة واحدة.. والناس تروح وتجيئ.. لكن الآن (وأشار نحو البوابة).

ترك ورقة مالية على منضدة المقهى، ثبتها بطرف كوب الشاي الذي لم
يمسه، وأصبح كل همه أن يجد عربة، تسرع به إلى العريش.
حاول أن يزحزح الطائر إلى اليسار قليلا، حتى يتمكن من إحاطته
جيدا بسترته، لكن هذا كان يتشبث بمخالبه في قميصه، وقد استراح لدفع
صدره، واستكان منقاره بالقرب من إبطه الأيمن. استعاد حمدي إحساسه
بلمس غرز الأظافر في ذراعه. ملمس أنثوي، منه للذكور والرجولة،
أفصح عن ود دفين. تساءل : لعل ما دفعها لذلك هو إحساسها بخاطر
مفاجئ، وليس في الأمر ود ولا يحزنون. ولكن.. لماذا أنا وكنا ثلة من
الأصدقاء. لعل كنت الأقرب إليها أثناء السير.
وراح يعصر ذاكرته : هل كنت الأقرب فعلا...؟
أحسن باستكانة الطائر، داعب ساقيه الطويلين الحمرارين، وضمه إلى
صدره.



وافقت ندا أن تجالسه، مدة قصيرة، في طراوة العصرية. وها هو سعد، الذي ما صدق أنه نجح في محابلتها، قد وقع في حيص بيص، لا يدري أين يذهب بها، بعد أن اتفقا على الالتقاء عند قلعة سليمان، بالقرب من البحر. اقترب من أطلال القلعة، بقايا أعمدة حجرية، زحفت الرمال بينها، صانعة تباهاً صغيرة. اقترح أن يذهب إلى مقهى أحد فنادق الشاطئ، وقد احتاط لذلك بسلفة عاجلة من الباشمهندس، لكنها تمنعت، فأغلب مرئادها من الأجانب، وقد يتعرف عليها أحد العمال.

- وماذا في ذلك.. ألسنا..

أطرقت بوجهها إلى الأرض، وقد وشت عيناها بفرحة غامضة. قالت في خجل:

- لم نعتقد..

فكر في مقهى صغير، اعتاده، في حارة رملية، متفرعة من الشارع الجديد، أو حسب تسمية الباشمهندس، العريش الجديدة، وهو مواز للشارع الرئيسي، غرباً، وقد حفل بالعمارات والمقاهي الحديثة والفنادق، وتخلت عمارته، عن النمط العريشي، حيث البيوت من دور واحد، أمامها باحة، محاطة بسور، تطل منه النخيل. والمقهى رواده قليل في هذه الساعة، وهوؤه طيب، لقربه من الشارع الموازي للشاطئ. ما أن أبدي رغبته، حتى قالت مستنكرة:

- مقهى....

طرفت عيناها، وظلال الأعمدة، تنسحب إلى الخلف، ووشوشة البحر تتخللها، تلقائياً جلسا على الرمال، وطالعتة براءة تغلف وجنتيها،

وقد برزت ذقنها قليلاً، بياضها الأخاذ.. وعندما نظر في عينيها، طالعه السؤال. قال :

- قريباً أنزل مع الباشمهندس إلى الزقازيق، وليتك تمرين على محال الأثاث بالعريش، لعل طرازاً يعجبك.

حركة يديها، كأنها تريد التخلص من كميتها الطويلين، وابتمت :

- وهل قلت شيئاً..؟!

- أقول يعني..

- ما تحضره سيكون جميلاً.

ود لو يحتضنها، ويقبلها، ويداعب ذقنها بأصابعه. نظرت إلى بعيد، كأنها تهرب بنفسها من أمامه. أمسك بكفيها، وهي تعافر.

- سعد.

- عين سعد.

صعدت ببصرها إلى السماء، تنبهه إلى بشائر المساء.

- لم أشبع

نهضت، فشبك ذراعه اليمنى في ذراعها اليسرى، وغير وجهتها إلى الشاطئ، بدلاً من المدينة.

اقتربا من البحر، صامتين، متناغمين، وأطراف الأمواج، تداعب حواف الشاطئ العريض الممتد تحت غلالة المساء الشفيفة وقد أطلت سعف النخيل وبعض الباسقات من الكافور من خلف البيوت المنخفضة، المتناثرة على حافة الشاطئ من الجهة الأخرى. بينما تنسحب بقايا الأشعة، وقد رقت، وازدادت الرطوبة، وتلاقت العيون. أحاطت خاصرتهما بذراعه جهتها، فاستطابت لبونة مستكينة، مدت يدها من الجهة العكسية، تزيح يده، برفق، فتشبت بها.

- وبعد..

- ولا قبل.

تلففص في دلال، وهو بذراعيه على جنبها. كفاه أعلى ظهرها، وعيناها بثران من المودة والترقب. اختلطت الأنفاس الدافئة، وضغط أكثر، وقد تذوق رضابها.

أحس فجأة، أنه لم يعد وحيداً، وزايله إحساس باليتم، كان يعاينه. تملي في عينيها، وقبلها ثانية. كفت عن المفصصة، وقد تسرب الحنان عبر شفتيه، وبادلت حناناً بحنان. وصلا إلى الشارع المسفلت بموازة الشاطئ، طلبت منه في خفوت، أن تمضي خشية أن يرهما أحد. استجاب دون قناعة داخلية.. ولم يلبث أن رجح ما ارتأته..

ربما رآهم أحد وأفسد الأمر كله، ألا يكفي أنه ليس من قبيلتها وليس سيناً، ووافق أهلها على زواجها منه. فكر أن يذهب إلى الباشمهندس، لكنه لم يجد في نفسه ميلاً للكلام، سار على مهل، مخلفاً القلعة وراءه. ولا يدري، لماذا بعثت صورة أحجارها، التي انطبعت في رأسه، المنيا، ومقهاه في شارع غير بعيد عن النيل. يتقل الإنسان فجأة من الأبنية الحديثة والفنادق الملاي بالسياح، إلى مبان قديمة.. يظهر طوبها الأحمر من ظهورها، ومن واجهتها أحيانا دون طلاء بالأجر، والمقاهي البلدية بكراسيها المجدولة من سعف النخيل، والحرفيون وباعة سوق الخضضر وعمال المحال التجارية، يدخنون المعسل، ويشربون الشاي الثقيل.

كان يحلو له بعد جلسة المقهي، أن يمشي على النيل، حيث النجيلة في مساحة عريضة.. عليها دكك خشبية، تحف بها الأشجار.. وأمامه على الشاطئ الآخر، جبل، تتعاقب عليه الألوان، من رملي فاتح، إلى رملي داكن، مع حركة الشمس. والقوارب بين الشاطئين، وحين يصل الرجال إلى الشاطئ الآخر، يخفون بين شعاب الجبل. سأل أباه مرة، فضحك مبرزاً لساناً بين نايتين صفراوين وقال :

- أرض مزروعة في جوانب الجبل يوالونها.

كثيراً ما تمنى أن يعبر ويجوس في الجبل. الدار أخذا الأحوال. رحمك الله يا أمي. ورحمك الله يا أم ميلاد، وماذا لو كانت عاتشة.

الرحمة تجوز على الميت والحي. كان لا يحلو لها وضع فرشتها إلا بالقرب من ترازياتهم في المقهى، الممتدة إلى جزء من الشارع. تعلق على أحاديثهم، ويوصونها أن تحتفظ لهم بما يريدون من خضراوات. يشاكسها عامل المقهى، لتبتعد بفرشتها قليلا. تتصعب وتقول :
- لا تتخير عنه.

يتساءلون متصنعين السذاجة :

- من ..

- وهل هناك غيره.. كلمة مسموعة ويد ملطوعة (تطلع عليها القبلات) وفلوس مدفوعة.

يفرقون في الضحك، لتأورتها على القس، الذي لم يوفق بعد في الحصول لها على حجرة في المساكن الشعبية.

لنتك كنت هنا يا أم ميلاد. عمارات المساكن الشعبية في المساعيد لا تجد من يسكنها، لكن إلى متى ستظل العريش بعيدة عن غول الزحام.
يا سلام يا «غول» ..

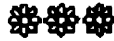
في صباح التاسع من أكتوبر نشط لواء مدرعات تدعّم المدفعية والمشاة في شن هجوم شامل، على القوات الإسرائيلية لإجبارها على التراجع. موهوا أماكنهم جيّداً، وفي انتظار أوامر جديدة، احتدم القتال، وضغط الإسرائيليون ضغطاً رهيباً، أجبر القوات المصرية على التراجع إلى وادي النخيل، لإعادة التنظيم لمعاودة الهجوم.

رأي سعد الدبابات يتصاعد منها الدخان، والأنفاز تجري. طلب منه قائد الفصيلة أن يوجه مدفع دبابته ناحية اليمين، وأي قوات تعدي، يقصفها.

استمع للأمر في اللاسلكي ولم ينفذه، مر القائد، فاستشاط غضباً.
قال القاذف :

- لا شأن لي، سعد هو المستول..

أخرج القائد طبنجته ووجهها إلى رأس سعد، فقال :
- يا أفندم.. أراقب المعركة، والقوات القارة من عندنا.
بدا القائد غير مقتنع، فطلب سعد أن ينادي قيادة اللواء أو قيادة الكتيبة
ليعرف الحقيقة. وبينما فوهة الطبنجة في رأسه، أخذ القائد ينادي :
- نعم يا «غول».. حول يا «غول» .
ولم يكذ القائد يقول : الجانب الأيمن، حتى سمع سعد من قيادة
اللواء: لا تقترب من جهة اليمين، فاسترد أنفاسه.
قرب الظهر مر قائد الفصيلة :
- ما اسمك
- عريف مجند خمسة مليون خمسمئة أربعة وعشرون سعد الدري يا
أفندم .
- ما زلت تحفظ رقمك..
داعب شعر رأسه بيمنه، ومضى.



قال حمدي أبو زيد :

- دخلنا في الجدد ..؟!

ابتسم سعد الدري ، وقال :

- عقيب لك .

ضحك حمدي ، وأردف :

- من فمك لباب السماء .

سأل سعد :

- ما رأيك .. هل نحضر الأثاث من دمياط ..؟

قال حمدي :

- نكتفي بحجرة نوم ، ونلتقط طقماً من النوع الأسيوطي ، أم اشترعوا

عليك شيئاً .. ؟

قال سعد :

- قالوا : بينك .. افعل ما تشاء .

- صمت حمدي قليلاً وقال :

- في البكور نطمئن على الزرعة .. ونخلع إلى الزقازيق .

ولم يمر دهشة سعد أهمية واستمر :

- هم أيضاً يحضرون العظام (هياكل الأطقم الخشبية) من دمياط ،

ويكونها ويدهنونها .

قال سعد :

- لكن السعر يكون أعلى .

عاجله حمدي :

- دمياط مشوارها طويل ، فكر في النقل والبهدلة ، وكله بشفته .

وصلا محطة الباص ، وهو على وشك الإقلاع . ولما كانت العربية مزدحمة ، فكرا في النزول . لحظهما السائق ، فطمأنهما أن بعض المقاعد ستخلو عند المساعيد ، على طرف العريش . المساعيد . هل كان حقا عيدًا بالنسبة لعمر بن العاص ، وكيف يكون عيدًا وقد وصله خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ينصحه إن لم يكن دخل أرض مصر ، أن يعود من حيث أتى .

هل أخفي عمرو الخطاب ، ودخل مصرًا واعتبر ذلك عيدًا ، أم الصحيح ما يردده العريشيون أن عمرو حين وصل إلى هذه المنطقة ، دون مقاومة تذكر من الرومان ، قال لمن حوله : المساء عيد ، وأصبحت عبارته من ساعتها اسمًا لهذا المكان .

مط حمدي شفثيه . اهتزت العربية ، وكاد يقع على أحدهم ، لولا تماسكه وسط الواقفين ، وقد لفحته أنفاسهم .

رفعت رأسى إلى سقف العربية ، فى طريقنا إلى رأس البر . كانت صفية جوارى . ورغم الزحام ، لم يتلامس جسدانا . كيف كانت تحاذر ، رغم الزحام ، وتتفاداني . لكنها لم تفلح فى منع أنفاسها ، أو لعلها لم تنبئ إلى ذلك . كنت مترددًا فى البداية ، كمن يتلمس تذوق طعام لم يصادفه من قبل . وسرعان ما تركت نفسي على هواها ، وقد شعرت براحة ، ونشوة غامضة .

- المساعيد .. النازل .

جلسا . من النافذة ، تأمل حمدي البيوت الواطئة ، من دور واحد ، متباعدة وسط التلال الرملية ، تحيط بها النخيل ، مخففة من وحشة الصحراء المترامية .

بالقرب من الطريق ، رأى حجرة ، منفردة مهجورة ، وقد زحفت إليها

الرمال من كل جانب . أتراما لملاحظ السكك الحديدية ، عندما كانت تمر من هنا قبل عام 67 . لماذا لم يمدوها ثانية .. ؟!

وصلا إلى الزقازيق، وقد استتب المساء . لم يحذ سعد أن يطوفا على المحال ليلا . فالتيقن من جودة الأشياء فى ضوء النهار أفضل . ولكن أين المبيت . هل نشد عجلنا إلى المنصورة ، ونتحمل ساعة أخرى من الزمن، أم نبحث عن أي خن فى الزقازيق .

وصلنا الزقازيق ، وقد أفصحت الشمس عن هويتها . ركبنا بعض الشاحنات، وطفنا فى شوارع المدينة ، أعجبنى بحر موسى ، تلك التربة التى تقطع المدينة طوليا ، فوقها جسور صغيرة ، وثمة ترعة أخرى ، متحورة معها ومع الشوارع فى تناغم وونس . والخضرة تحف بالترعتين والأشجار تتدلل عليهما ، وباعة الفاكهة والخضراوات يتشرون على الشطآن والناس غير ملقية بالآ ، لهذا الجمال ، الوجوم ينضح على وجوههم ، وتكاد الأسئلة تقفز منها :

هل سينجح البريطانيون فى السيطرة على بورسعيد ، ويتقدمون صوب الدلتا، بعد أن أمن الفرنسيون ظهرهم باحتلالهم بور فؤاد ، أم سيواصل البريطانيون زحفهم للاستيلاء، على مدن القناة ، واحدة تلو أخرى ويشهد عام 1956 انتهاء حكم «الضباط الأحرار»؟ وفي الحالين ستكون الزقازيق مهددة . وهل سيتجاسر الإسرائيليون ، ويقتربون من حافة قناة السويس ، ام يقنعون بما حدده ، الإنجليز والفرنسيون لهم ، ويظلون قابعين خلفهم فى سيناء .

ورغم هذه الأسئلة القلقة ، كنت تلمح همة واستبشارا على وجوه الناس، فقد أمنت شركة قناة السويس العالمية للملاحة ، وعربات الجيش ذاهبة وآتية ، غي حركة لا تهدأ . ومنذ قليل خطب الرئيس عبد الناصر ، من فوق منبر الجامع الأزهر .. منها كلماته ب : سنحارب .. سنحارب .

ونحن نهذر من فوق الشاحنات بآيات لزميل شيوعى :
من خاف فى الصف يرمي بعار من خائنا سوف يلقي الدمار
لن نستجيب لصوت الهدوء إن الكفاح هو الانتصار
ونلوح بالبنادق فى الهواء :
شعب الشمال وشعب الجنوب وحد أبادي ووحد قلوب
نرمي بها قلب مستعمر فالاتحاد سلاح الشعوب
عند الظهيرة ، وصلنا قرية أبو حماد . وجدنا متطوعين كثيرين سبقونا .
نظرت إلى الهوارى ، وقلت :
- الولد سمير لم يأت .

أردف :

-- ولا رجائى .

- أوهمانا أنهما سيحضران .. ضحكا علينا .

- لا تيال .. عيلان .

كنا سمعنا أن مكتب محام يحيى الحسينية بالمنصورة ، يجمع متطوعين
للسفر إلى الجبهة ، فاتفق أربعتنا على الذهاب .

رنة البشر والتفاؤل ، وأصحابها الوافدون من جهات شتى يتعارفون ،
خففت من مرارة ما أحسست به تجاه سمير ورجائى . وأهالي القرية
تجمعوا حولنا ، فانطلقنا نردد ، والفلاحون يحاولون مجاراتنا .

يا شعوب الشرق هذا وقت رد الغاصبين
فاركبوا الهول الشداد واصطلوها بأسلين
طال عهد النوم فيكم والأعادي ساهرون
أنعيم وبنوكم في المنافي تائهون
شتونا في المنافي واملأوا منا السجون
سوف تأتيكم ليال برقها حثف المنون

قادنا الفلاحون إلى قاعة أعدت لاستقبالنا ، مفروشة بالحصر . وجدت

الهورى قد سبقنا ، ووقف فى ركن ، يجمع فيه البنادق من الداخلين .
وقبل أن أسأله عما يفعل ، انطلق ضاحكا :
- السلاحك .

جاوبته بضحكة عالية . فهو لا ينسى عادته فى أي مكان نذهب إليه .
أشار إلى ركن آخر وضع فيه بعض الجرائد ، وكتبا ، لا أدري من أين
حصل عليها ، وقال :
- المكتبة ... !

أحضر الفلاحون وجبة بسيطة ، على حد قولهم . خضرة ، جرجير
وفجل ، جبن وحلوي طحينية ، عيش مرحرج ، مفروود ، طري ، يسيل
اللعاب .

اختارا فندقاً متواضعاً ، قريباً من محطة السكك الحديدية . طالعتهما
أنوار النيون البيضاء ، منبعثة من محال الحلويات الشرقية . اللديدة
المصنوعة من المبشور العريض لجوز الهند ، وأقراص الشكلمة الصغيرة
من المبشور الرفيع لجوز الهند . ومحال الفول والطعمية ، ذات الروائح
الحريفة . ومحال الفاكهة وقد صفت حبات البرتقال واليوسفي فوق
مدرجاتها الخشبية الهرمية . تداولا فيما ينبغي شراؤه أولاً ، وهل يأكلان
على المقهى ، أم يأخذان زادهما ويصعدان إلى الفندق .

قال حمدي :

- الخبز أولاً .

رد سعد :

- لن نجد خبزاً بلدياً الآن .

بعد أن لفا في بعض الشوارع ، وقفا أمام فرن أفرنجي . عند الحساب
وجدوا سعر رغيف الفينو عشرة قروش . لم يستطع حمدي أن يحفظ
لسانه :

- معدل .. ولا محسن .

رد الرجل :

- خارج التسعيرة .

ضحكنا ، وقال سعد :

- أي تسعيرة يا حاج .

نكس الرجل رأسه ، وانصرف إلى بضاعته . تمت حمدي ، كأنما يكلم نفسه :

- من قرش إلى عشرة .. والبلدي من خمسة مليمات إلى خمسين ..! حدثت هزة في الشارع ، تجاوزت أصداؤها في البيوت والحارات . وعلت الفرحة وجوه الناس . سألت أمي . أخذتني في حضنها .. أطلقتني برفق وقالت :

- النحاس رخص الرغيف .

وسرعان ما جاء أبي متهللاً ، ليزف البشري ، فوجد أمي قد عرفت . جريت إلى الشارع ، أتفافز مع الأولاد ، ولم نتفق على لعبة معينة ، كما تعودنا ساعة العصاري . واستطعنا أن نلتقط من أفواه الكبار ، أن رئيس الوزراء خفض ثمن الرغيف من ستة مليمات إلى خمسة ، وقلت في نفسي ، لن يربك المعلم أمي وهي تحاسب أبي عما أنفقت من العشرة قروش ، التي يعطيها لها مصروفًا يوميًا للبيت .

لم يجدا في الفرن كيسًا بلاستيكيًا ليضعا فيه الخبز . نزع حمدي الصفحة الأولى من جريدة كانت في يده . شد عيونهم عنوان بالخط العريض : الحكومة تشدد رقابتها على المتلاعبين في وزن رغيف الخبز . سارا صامتتين حتى وجدا مقصفًا مازال ساهرا ، نظر حمدي إلى سعد وفجأة :

- ها .. ها ..

- ها .. ها .. ي ..

ومعًا :

- ها .. ها .. هاى .

اشترى بيضًا مسلوقًا ، وكيسًا من المخلل وطعمية . سارا بجوار بحر
مويس ، وقد غشتها الظلمة . سمعا حفيف جناحي طائر . تطلع حمدي
إلى أعلى وقال :

- يبدو غرابًا ..

- معقول .. ١٩

الغريبان اختفت من زمن ، ولكن أحد أنواعها ، لمحته فى مكان
مهجور، على شط البحر ، لعله تسلل ، بحثًا عن طعام . وغالب ضحكة
وهو يقول:

- يهوي بيض الصقور .

جاوبه سعد ضاحكًا :

- نقه على شونة .



- بالمرّة .. نشترى الدبلتين .

نظر حمدي إليه مستطعلاً . أخرج سعد من جيبه فتلة بيضاء ، ناولها له .
وجد علامتين متباعدتين بالكويبا ، ففهم أنه أخذ مقياس إصبع ندا . حاول
لفها على إصبعه ، فاعترض سعد :
- من فضلك ..

لوح الجندي الإسرائيلي بالرشاش المعلق في إحدى كتفيه ، وبأصابع
يده الأخرى تحسس دبلة فضية في إصبع لي . تعلق بعينه . وضع يده
على صدره ، مكوراً ثمدي امرأة . هزرت رأسي إلى أسفل . ربت الجندي
براحة يده الهواء إلى أسفل ، بما يعني وجود أطفال . أبرزت له أربعة
أصابع . ترددت أصابعه على الدبلة ، برهة ، ناهت فيها روعي . ألقي بيدي
جائئياً . تنفست ، غير مصدق . دبلي عادة تعصّلج في إصبعي . ولن يجد
حرجاً ، مثل غيره ، في قطع الإصبع ، وأحياناً قطع اليد كلها ، وإذا انبثق
نزيف ، فرصاصة في الصدر أو الرأس ، تنهي كل شيء .

قال حمدي :

- ليتك أحضرت ندا ، تشتري بنفسها ، وفرصة لزهة معاً .

تفسحنا في النيل أمام رأس البر . القمر يفرش أشعته فوق الماء ،
والدرايفيل تتقاذف حول المركب مداعة . نمد أيدينا إلى الماء ، فتغطس
رؤوسها ، وتعاود الظهور . أخوتي وأصدقاء لنا يتسامرون . عينا على

عيني شقيقة الهواري . أحس بجاذبية خاصة لسمارها وجسمها اللدن .
«أنا قلبي إليك ميال» . ظللنا جميعا نحاول اكتشاف ماهية الصوت الجديد
الذي أعلن عنه المذيع منذ لحظات . «والبهجة أنت فرحتها ، والفرحة
أنت يا حبيبي حلاوتها وابتمامها» .

- كلمات جديدة .

- اسمها

- فائزة أحمد

زحفت ساقى القرية منها ، تتحسس سمانة رجلها المجاورة لي ،
حركت ساقها قليلاً ، دون أن تلفت نظر أحد ، أو .. تنظر في وجهي .
نزلنا من المركب ، ومشينا في الطريق إلى اللسان . هذا الطريق
الخرساني ، على يمينه النيل ، وعلى ياره موج البحر الأبيض المتوسط .
والرذاذ بناغي وجوهنا ، وأحياناً موجة تقل أدبها ، تصفع سيفاننا وتتناول
إلى الأفخاذ وقد تطايرت الفساتين ، تتعالي صرخات البنات ، ويحاولن
تفادي الموجة ، فتلتصق بعضنا ببعض .

ووجهها يقارب وجهي ، والرذاذ يغمرنا ، وهواء النيل والبحر ، في
أول الليل ، ينبت في أجسادنا أجنحة ، تحمل قلوبنا وأرواحنا ، إلى بهاء
ورحابة الأفق ، الحادب على البحر ، ويتلاشى قوس التماس في غموض .
وثمة أشرعة بيضاء ، تظهر وتختفي .

لحظ الهواري حالي ، فألمح لي : على سنة الله ورسوله .

ذهبت إلى بيت الهواري . شككت في الأمر . عدت إلى اللائحة الزرقاء
المعلقة في أول الشارع من جهة سوق الخواجات ، عليها بخط أبيض
شارع على محمود طه . قالت المعجوز في محل البقالة في المواجهة ، لما
كان ، من الناحية الأخرى من الشارع :

- وقع من زمان .

وأخبرتني أنهم ذهبوا إلى مساكن الإيواء . عمارة وسط المساكن الشعبية ، في أحد أطراف المدينة . احتلت النسوة المدخل . هذه تنقي أرزاءً وتلك تقمع بامية ، وأخرى تطرقع بلبانة ، ويلكن فى الحديث، تأملنتي بعيون جريئة ، ولم يجبن بسهولة ، مررت من بين أرجلهم ، وأنا فى نصف ملابسي ولم أكد أرتقي السلم ، حتى اصطدمت بالأطفال يلعبون .

قادني أحد الأطفال إلى ممر طويل ، ضيق ، على جانبيه أبواب مخنقة . وقف الطفل أمام أحد الأبواب وتركني وجري . طرقت الباب .. لم يجني أحد . صفقت بيدي وأردفت :

- يا ساتر .

أطل وجه امرأة شابة

- جماعة الهواري

- في الآخر على اليمين

كانت الحجرة بجوار الحمام . بالقرب منها وقفت شابتان ، بينما شاب يخبط باب الحمام ، مستعجلاً من الداخل . مرقت فتاة من الحمام كالسهم ، قاصدة الحجرة . طرقت الباب ، فجاء صوتها :

- وبعدها معكم .

تنحنحت ، وقلت :

- لو سمحت .. ؟!

واريت الباب قليلا . كانت القوطة تلف شعرها المبلول ، وقطرات من الماء تتساقط من جيبيها .

- ماما موجودة .

- اترك عنوانك ، وعندما تشفى
- يا آنسة .. افهميني .
- خلاص .. شف لك غسالة أخرى.
- أنا زميل الهواري .
- اضطربت الفتاة ، ووسعت من فتحة الباب ..
- لا مؤاخذه .. تفضل.
- وجسدها لم يزل يعترض فتحة الباب ، حتى جاءت أمها . ما أن رآته حتى نهزت الفتاة وهي تنحيها عن الباب :
- اخص عليك .. ألم تعرفيه .. كنا جيراناً .
- كانت أيامها طفلة .
- زغدت الفتاة صبياً ينام على كنية فى الحجرة لتوسع مكانا ..
- لا تؤاخذنا يا بني
- طالعتني على الحائط ، المواجه لى صورة لعبد الوهاب وأم كلثوم ، وقد مال كل منهما إلى الجانب الخارجى للإطار من أعلى .
- ياه يا «هواري» ..
- لا أذكر هل كنا أمام باب الدرجة الثالثة لسينما عدن ، أم لسينما ركس . والأولاد يدفعوننا بعنف ، والرجل بالباب الحديدي لا يريد أن يفلتنا من الفتحة الضيقة ، إلا إذا تحقق من التذكرة . وبعض الأولاد لم يطبقوا صبرا، فقفزوا فوق الرؤوس، بأقدامهم، وحشروا أجسادهم بيننا وبين الباب الحديدي ، لينزلوا ، والهواري يزاحم بيد ، وبالأخرى رفع صورة عبد الوهاب وأم كلثوم التى أعطاها له بائع التذاكر ، مقابل المليمات الباقية من ثمن التذكرة ، وكانت من نصيبي صورة أعضاء «مجلس قيادة

ضباط يوليو». وبعد أن دخلنا وأخذنا مكاننا على دكة خشبية فى طرف من القاعة، لوح الهوارى بصورته ، ووشت عيناه بالانتصار ، وقد رأى ما بقي فى يدي من مزق الصورة .

كثيراً ما عنفت نفسي لقيامي بهذه الزيارة ، ما كان يصح لى أن أراهم على هذا الحال . لاشك أن ذلك أكرمهم ، ولكن ماذا كنت أفعل .. أليس من الخسة أن أنقطع عنهم وقد ذهب الهوارى .. ؟!

تري .. هل أنفذت سنة الله ورسوله شقيقة الهوارى ، من هذه المعيشة ..

عزمت صفية على الذهاب إلى رأس البر . قالت : وإن شاء الله على السنة المطهرة..! دلقت فوقى جردلاً من الماء ، وأخذت أتساءل .. هل أردت من خلالها ، استعادة نشوة الحب الغض ، أم أملت أن توجج الذكريات حبي لها .

ماذا لو هاودتني ، ومشينا معاً على اللسان ، وجلسنا على أحد المقاهي المنتشرة على النيل فى الطريق إليه ، والمطاعم تسوي الكباب فى أسياخ فوق فحم متقد يشع بالأحمرار .

وفى الجانب الآخر ، المقاهي والمسارح ، وباعة الفيشار والسودانى ، بعرباتهم الصغيرة ، يتصاعد دخان أبيض من مداخنها . وباعة الحلوى الرخيصة : أساور من العظام ، ملونة ، ومن القشرة الذهبية . والمناديل مختلفة الألوان ، أطرافها موشاة بالترتر الذهبى والفضي ، عندما كنت أرى منديلاً مثلها يلم شعرة شقيقة الهوارى ، كان قلبي يطب من فرط ما أضفاه عليها من أنوثة ، وما يشع من حيوية وجهها ، التى جعلته محمراً ،

شمس الصباح عند البحر ، وقد تقشر جلد رقيق أبان البياض تحته أعلى
وجنتيها ، وزاد من سمرة ما حوله أعلى ذراعيها .

وهمسات ، يحملها نسيم المساء الطري .. عبد الوهاب يجلس
فى مقهى الجندول . الممثلة فاتن حمامة تجلس فى مقهى أبي طبل
وحيث يقدمون الفطير واللبن ، ومعها الفنان عباس فارس . هل سيغني
عبد الوهاب الليلة . حضر للتصيف وليس للغناء . فى مسرح المقهى
المجاور يعرضون رواية جديدة . لَمَحَت الممثل زكي رستم . انظر من
هذا الجانب لتراه . فى المقهى المجاور استعراض ، رقص شرقي وغناء .
أسحبها من إحدى يديها ، تطيعني ، نبص على عبد الوهاب ، وأحياناً
الممثل يوسف وهبي .

طافا شوارع الزقازيق ، وعبر الجسور ، فوق بحر موسى ، والشرقاويات ،
البيضاوات ، بملابسهن السوداء الطويلة ، تتلعب أجسادهن داخلها ،
وزاد الكحل على الجفون من إبراز بياض أديم العيون ، واسوداد النبي .
وعصن رؤوسهن بالمناديل السوداء ذات النسيج الرقيق ، وتدلّت من
أذانهن أقراط على رسم أهلة كبيرة ، ذات ألوان فاقعة .

وهما يذفان إلى محل جواهرى ، سأل سعدًا :

- أحبيتها .

تطلع إليه بعيتين ، تغنيان عن أي بيان .

«أنا قلبي إليك مبال» . عزمتها على فطيرة عند أبي طبل . الفطيرة
الممتازة ، المحشوة بالزبيب والمكسرات بخمسة قروش ، وشوب اللبن ،
بخيره ، ينج ، بثلاثة قروش .

. قال حمدي :

- هل سنحبس بالشأى بعد العشاء...؟!!

- ولوح بجنيهين ، من طرفيهما بين سبابة وإيهام يمناه وقال :

- باقى الورقة أم عشرة .. وفى كلام فارغ.. عيش وطعمية وبيض...!!

كانت أمي دائمة الشكوي من تصاعد الغلاء . وحكت لنا عن البيضة

التي كنا نشترىها ونحن صغار بسبعة مليمات ، أنها كانت تشتريها وهي

طفلة بمليمين . كثيراً ما ضحكنا منها ، غير مصدقين أن تكون الأشياء بهذا

الرخص . وهل سيصدق أولادنا أن بيضتنا بخمسة عشر قرشا .

- قالوا: الثمانينات بداية الرخاء ، ما هى أوشكت على الانتهاء . قالوا:

بعد السلام مع إسرائيل سيعم الرخاء .

تطلع حمدي وهما يسيران إلى مياه بحر موسى الغامضة . وتساءل ..

أين التربة الأخرى وتذكر ترعة أم الجلاجل فى المنصورة وسوق الثلاثاء

جوارها ، والذي كان خالياً طوال الأسبوع حيث يلعبان كرة القدم . وترعة

البحر الصغير ، وتسابقهم فى الماء وبلبلة أولاد الحي وهم يعلمونهم

السباحة ، وقد أصبحنا شارعين مسفلتين .

كانت عربات النقل تسرع فوق الأسفلت بجوار بحر موسى ، وهم

فوقها ، ينشدون:

لكل شجاع إلى الانتصار مضى فى ثبات إلى حتفه

سلام يزلزل قلب الطفلة يحطم من ليس يحيي به

سلام عليكم رفاقاً أباة ومن جاد منكم بأنفاسه

سلام يقبم بناء الحيسة نعيم الملايين فى ظله

لمحت شقيقة الهواري خارجه من محل . أحسست ولست أدري

كيف أنها تداري نفسها مني . وقفت في طريقها . ارتبكت خطواتها .
وقفت مستسلمة . ابتسمت ، فاستعدت ما كان منها ومني في لحظة .

- سعيده

- بعني

لحظت أن ملابسها ، ليست ولا بد ، فخجلت من نفسي .

- لماذا هذا بالذات .. ؟!

غادرت حينها وجهي ، فأحست بالخرج ، وندمت على تسرعي
بالسؤال.

طال اعتقالي ، وكانت الدنيا أيامها مظلمة ، أو ربما حاولت الهرب من
مساكن الإيواء . لكن مع من .. مع فاشل في تعليمه ، يخب في ركاب ،
أحد مقاولي هدم البيوت وبيع أنقاضها ، وكثيراً ما تعرض لسخريتنا ،
وكانت هي من أوائل الساخرين .

نظرت إليها وقد حز في نفسي . لماذا أوقفتها .. لماذا .. ؟! دخلت
بيتي ، ولم أكن فعلت منذ شهور . ذهبت لأشعل البوتاجاز . فتحت باب
الفرن .

عدة فئران غضة ، تحرك أعضائها الرفيعة بالكاد ، صنعت لها أمها
حضانة من ندف القطن .
وقف مذهوشاً .



لملمت الشمس غزلها الرهيف من فوق البيوت ، ومن رمل
الحارات ، وألقت به فوق مياه البحر . تغطس به حيناً ، وتطفو به حيناً ،
والموج يداعب القرص الأحمر . يرتفع ويرتفع حتى يكاد يغطيه ..
فيستبدل بخيوطه فى ذهبية لون القمح ، خيوطاً من سكر غزل البنات ،
المشبع بالاحمرار .

يرتفع الماء .. وتحول الشمس وجهتها ، لتشر خيوط غزلها فى مكان
آخر من العالم .

وسعد قد هيا نفسه ، ليطلب إجازة يومين لندا ، وحين شرع فى الكلام ،
سبقه حمدي أبو زيد :

- غدا ، سنبداً حملة لمدة أسبوع لإزالة جميع النفايات أسفل سيقان
الخنوخ .

استبوخ سعد ، أن يفتر من حماسه ، وقد استطالت سيقان الخنوخ
واشتدت .

ومن قبل ، حاول إنشاء نداء عن الإجازة ، لعلمه بما ينتويه الباشمهندس ،
لكنها أصرت . تحدث أخوها تليفونياً من بالوظة إلى خالها فى العريش .
عندهم حملة لتحصين الأغنام ، ضد مرض حمى الوادي ، وفي حاجة
لها .

- ألم تخبريني أن أخاك فى المدرسة .

- يترك الأغنام ترعى فى البكور ، ويذهب إلى المدرسة وبعد خروجه
يكمل يومه معها .

- ومتى يذاكر .

- وهو معها .

لم يجد ما يقوله فاستمرت :

- حين كنت فى سنه ، لم تكن فى بالوظة ، أو بالقرب منها أية

مدارس .

أمسك إحدى يديها ، فتركتها وهى تقول :

- أُمى عجوز

- ومالك .. والغنم

- كنت راعية ، قبل أن يلحقنى خالى فى هذا العمل بعد وفاة أبينا .

حار ، كيف يقنع الباشمهندس .

- أقول يعنى ..

- لا نقل شيئاً .. وبعد هذا الأسبوع سنعمل رشة باللندين ضد ذباب

الفاكهة .

علق سعد :

- وهل هنا ذباب فاكهة .. ؟!

تفكر حمدي ملياً .. وقال :

- نسأل .

- أقول يعنى .. أستاذك فى إجازة يومين لندا .

انتفض حمدي :

- هذا وقته ..

- ظرف طارئ .

- انطارئ عندنا

وومضت عيناه بالثق فرح ، واستمر :

بعد نزع الزائد من ساق النبات ، وترك عدة أفرع منتقاة ، نكون حلدنا
هيكل الشجرة مستقبلاً .

عزّ على سعد ألا يجاريه ، ولكن ماذا يفعل وقد وعد ندا . لم يجد بداً
من شرح الأمر ، فتفكر حمدي قليلاً ، وقال :

- أمرنا لله .. يوم واحد فقط .

عاجله قبل أن يرجع في كلامه :

- وهو كذلك .

خبأ حماسه ، وتطلع إليه بعينين مترددتين .

- ماذا ثانية .. ؟!

- العربية .. أوصلها وأرجع ، حمامة .

أطرق حمدي ، رفع رأسه وقال :

- أنا لم أقل شيئاً .

وقف سعد متردأ فزغده في صدره :

- ماذا تنتظر .. ؟!

لحظ العميد جورج أديب ترددهم ذات مرة لحظة الهجوم فصاح :

- الله أكبر يا رجال .

فصاحوا جميعاً :

- الله أكبر .

بعد الهجوم ، اشتكوا له من قائد التشكيل ، فقال :

- تعرفون المطلوب منكم .. تصرفوا حسيماً يمليه الموقف عليكم .

تقدموا لاحتلال تبة القيادة في القطاع الأوسط . أصر قائد التشكيل أن
يصعدوا راكبين العربات المدرعة بـ ك . رآهم قائد يحتل تبة مجاورة ،
فتحدث مع قائد التشكيل تليفونيا .

علموا أنه أخبره أنه ليس ضرورياً أن تتركب قواته كلها المدرعات ، ليقفل من الخسائر ، فرد عليه : أقتحم راكباً كما فعل جنرالات الحرب العالمية الثانية . وحين قال له الموقف مختلف ، لم يرد عليه . لحظوا أن فصيلة من قوات التبة المجاورة ، تشغل جانباً للإسرائيليين من ناحيتها ، فقدروا لقائدها صنيعة ، فقد خففت القصف على القوات المهاجمة . كانت كتيبة سعد هي التي ستقوم بالجهد الرئيسي ، وباقي القوات أجناب لحمايتها . هجوم بطريقة المروحة . ثبتوا كتيبة ، وتحركت أخرى نصف حركة ، وشرعت ثالثة في التطويق .

انشغل الإسرائيليون في الرد على الجانب الذي فتح النار . لحظ جانب آخر الموقف ، فخفف عنهم بفتح نيرانه . ومع ذلك لم يتمكنوا من احتلال التبة . غيروا في مواعيد الهجوم هاجموا ظهراً ، وفي آخر ضوء ، وأخيراً في أول ضوء في صباح اليوم التالي . ولم يتم لهم احتلال التبة إلا في المساء .

وكانت عربية القيادة ، وبها العميد جورج أديب ، تتقدمهم . وكانوا يطلقون عليها : الأدبية . الأدبية راحت . الأدبية جاءت . فجأة تعثر جنزيرها في لغم . توقفت العربية ، ويبدو أن الإسرائيليين هرشوها ، لكثرة الهوائيات التي تتصاعد منها ، فركزوا مدفعيتهم عليها . أمر قائد التشكيل فصيلة سعد ، أن تتقدم منها ، وتقدم تغطية بالنيران ، حتى يمكن إخراجها من بداخلها .

تقدم سعد بدبابته . وضع المعمر الدانة ، جري المقذوف ، نصف الخرطوشة في الداخل ونصفها في الخارج . ماذا جري . . وكان الإطلاق جيداً منذ الصباح . لو أبلغ سعد قائد الفصيلة سيقول : لماذا لم نتش على ذخيرتك قبل العملية . وهل يستطيع أن يقول له أنهم لم يناموا من عدة أيام . لن يجدي أي اعتذار . وحتى إذا وجد دانة ملققة ، متى كان سيرجعها ، وأين . . ؟! آه . . لا وقت لمثل هذا الحوار . فلو أبلغ قائد

الفصيلة قائد التشكيل ، سيوقع به أشد العقاب ، خاصة ، وثمة شكوى فى حقه منذ قليل . تناول المعمر دانة أخرى ، ودفع القاذف بكعبها الدانة الواقفة ، جرت الدانة وانطلقت . عمر دانة أخرى .

سعد يعد : ألف وواحد ، واثنان ، وثلاث وأربع وخمس . وثبت بالدبابة حتى يطلق القاذف . نفس المشكل ، أخذ سعد بناور بالدبابة ، سائراً بسرعة ستة كيلو مترات فى الساعة ، ليتيح له الفرصة للضرب ، والمفروض أن يسير بسرعة خمسين كيلو متراً ، ليتفادي القصف الإسرائيلي ، وليلحق بعربة القيادة . أبلغهم قائد الفصيلة أنهم تأخروا فى الضرب . فالمفروض أن يطلق الدانة فى حوالي خمس ثوان . قال سعد : عطل بسيط يا أقدم وتم التغلب عليه . مصيبة لو غررت به الدانة الثالثة . بم . تراخ . . وتنفس طقم الدبابة براحة .

تقدمت الفصيلة بتشكيل رأس سهم ، ونظراً لاشتداد القصف الإسرائيلى ، أمرهم قائد الفصيلة ، أن يتقدموا فى شكل «زجاج» خاصة وقد لاحظوا أن طائرات إسرائيلية تحوم فى الجو ، تود التدخل فى المعركة .

إشارة عاجلة من العميد جورج إلى الدفاع الجوي : احذروا الطيران المنخفض .

فهموا أنه يطلب منهم ألا يلتفتوا إلى الطائرات المرتفعة ، كانت على ارتفاع يزيد على عشرين كيلو متراً ، وترسل عادةً أبيض ، لشد الانتباه ، ولتستجلب الصواريخ ناحيتها ، وهي غير مؤثرة عليها فى هذا الارتفاع . وفي نفس اللحظة تظهر طائرات على ارتفاع منخفض جداً ، حتى لا تراها شاشات الرادار ، فلا تكاد الصواريخ تنطلق من قاعدة ، حتى تدكها على الفور . ويدو أن الإسرائيليين أدركوا من عدم استجابتهم للعدم الأبيض أنهم لم يتخذوا ، فلم يرسلوا طائراتهم المنخفضة .

اقتربوا من عربة القيادة، فأمرهم قائد الفصيلة أن يأخذ التشكيل رأس
سهم معكوس.

رئيس العمليات ، أصيب بشظية فى ظهره ، حمله أحد الضباط ،
وأراحه على الأرض ، بينما العميد يصبح :

- تقدموا يا رجال

شملتهم حالة من اللامبالاة بالقذائف التى تترى حولهم ، وتقدموا ..
استولوا على التبة الحصينة . وجدوا ثلاث دبابات إسرائيلية مدمرة ، وكذا
بعض المدافع . أخذت قذائف الإسرائيليين تنحسر شيئاً فشيئاً . وانتبهوا
لرئيس العمليات المسجى على الرمال . وجهه أسمر ، مشرب بخيوط من
الدماء ، وتنشع من فودية ومقدمة رأسه شية خفيفة ، أضفت عليه هيبة .
ولم يجسر أحدهم على الاقتراب منه . يرفضون تصديق موته .

أمر قائد السرية ، بحمل الجثمان إلى التبة . أقاموا له قبراً أعلاها ،
وأطلقوا اسمه على التبة . بعد وقف إطلاق النار ، رفضوا نقل الجثمان
من مكانه . حضر قائد الجيش الثانى وحدثهم برفق .. وأن الجثمان من
حق أهله .

وافقوا بعد لأي . احتفظوا بشاهد فى مكان استشهاده ، وغرسوا حوله
بعض النباتات الصحراوية .



وردت إشارة :

أغلق الإسرائيليون قبل رحيلهم آبار العياء ، يرجي العمل على إعادة فتحها . والتأكد من صلاحية مائها للاستخدام .

أربعون بئراً . كيف أجد وقتاً لإعادة فتحها . ولعل بعضها قد فسد ، أو هربت المياه منه . اقتربت العربية من رمانة . طالعته خضرة أشجار متناثرة ، حينا ، وكثيفة ، حيناً . وبقع من الأرض معشوشبة . وبيوت بين منخفضات الرمال ، تحيط بها أسوجة من سعف النخيل ، جارت عليها الرمال ، وجارت الشمس ، فتغير لونها إلى ما يشبه البني المؤكسد . وبيوت فوق الرُّبى ظهرت شبائيكها ، بألوان خضراء وزرقاء ، باهتة . ولاحت مدرسة على الطريق ، جوارها أبنية ، مخروطة السقوف ، أغلب الظن ، حظائر سيارات ، ومخازن لمواد بقالة أو زراعة . لمح مقهى على الطريق ، أعد بشكل ، كما حدث نفسه ، يسمح باستقبال السائحين أو أصحاب العربات الخاصة وما أكثرها الآن على الطريق .. باحة عالية ، تصعد لها بعدة سلالم .. ونرايزات متناثرة .. فوقها مظللات ملونة ، مثل شماسي الشواطئ .. وراديو يبعث أغنياته .

طلب من السائق أن يركن ، التماساً لشئ من الراحة ، ولكوب من

الشاي ..

آه .. لو هفت نفسى وقتها لكوب من الشاي ، لعددتها مجنونة . فقط
جرعة ماء .. جرعة .. ! .. فقط بَلِّ اللسان المشقوق يقطرات ..
لسعتنا الشمس .. لسعتنا .. ؟! .. شوتنا .. أحرقت جلودنا . رأينا أمامنا
صفًا من الدبابات الإسرائيلية ، لا يقل عن الأربعين ، يعني كتية ، العسكر
فى حالة استرخاء ، أطل بعضهم من أبراج الدبابات ، وآخرون قفزوا منها .
وعربات موزن اقتربت ، ومساعد كرشه ساقط أمامه ، وذقنه ، نبت فيها شعر
أبيض . التف حوله العسكر . ناولهم زجاجات مياه غازية ، فيما أحسب ،
وقطعاً من الشيكولاته ، وعبوات من البسكوت . وحين زادت الجمهرة ،
خلع القايش ، وطوح به فى الهواء ، وهم زائطون ، غير مباليين .
زادت رائحة الشياطين ، ونحن ميتون فى جلودنا ، فى خنادق مبعثرة
على جانبي الطريق المسفلت ، العاري من أية مبان ، فقط ثمة أخصاص ،
من جريد ، متناثرة بين كتبان من الرمال ، وأمعز ، تنبش فى الأرض .
- قنبلة يدوية يا عالم .

وتذكرت ما تدربت عليه عام 1956 ، قنبلة فى البرج ، وأخري فى
الجنزير ، دبابة فى الأمام وأخري فى الخلف أو الوسط ، وتنعطل الكتية ،
ويصبح أفرادها فى متناول بنادقنا الآلية ورشاشاتنا .
حانت منى التفاتة لزملائي فى الخندق . منكمشون خشية أن يلحظوا
وجودنا . وحين سمعت أصوات تحركهم ، أغمضت عيني بشدة ، واهتز
جسدي ، وأنا أتخيلهم قد عملوا مربعاً ناقصاً ضلعاً ، حول أحد مواقعنا ..
وأين يوجعك ..

فى الطريق إلى العربية ، انسابت .. «أنا قلبي إليك، مبال» .. رفّت

روحه، خضره، غضة، في نشوة بكر، ودّ لو يعود إلى كرسيه، لكن نظرة إلى السائق الذي سبقه، جعلته يتبعه.

- اقتربنا من بالوظة .

- على وشك .

طالعه خضرة، وشجر، ومبان جديدة، ومدرسة .. لا .. اثنتان فيما أفطن . وتساءل في نفسه، لماذا هذه المنطقة مشجرة هكذا . هل نسبة المياه الجوفية أكثر . أم أن فرع النيل القديم كان يمر من هنا، وترك غريثاً احتفظت به الرمال، وترك ماءً في الأعماق؟

ماذا كان يجري لو إسماعيل خديو مصر، أو من قبله محمد على، أراحني أحدهما وحفر ترعةً هنا، تضاف لما حفراه من ترع كانوا يفاخران بها. أم تراهما تعمداً عدم الحفر ليسبباً لى وجع القلب. ومن يدريك.. ألن يستطيع الإسرائيليون تسميم الترع؟ يسمونها.. آه .. لكن يغلقوها، كما أغلقوا الآبار لا، لماذا سعادتك زعلان، يردمونها.

هدأ السائق من سرعته . انحرف إلى جانب من الطريق . بينما يفك السائق ركبتيه، تطلع إلى الشجر. لو سمم الإسرائيليون الآبار هنا، لانعكس ذلك على مظهر الشجر.

تنبه إلى أن هذه الأشجار لا تروي من الآبار . إذاً لظهر الأثر في الزرع.. تطلع أمامه على مرمي البصر، وقال :

- بنا .

مالي أنا والآبار وقتلناها . لابد من حسم الأمر . هل أظل أجري وراء سراب اسمه صفية ، أم أتوكل على الله وأتزوج سمية . أنت في من لا تتحمل التلكؤ، وإلا فمتى تربي طفلاً ، لو جاء . وماذا إذا لم يأت الحب المنتظر ، وأطلت من الوجدان صفية..؟ ماذا أفعل حيثئذ ..؟!

- هنا .

وأشار ناحية الزرع . أخضر ومرعرع . لمح مجري منحدرأ ، مبطن
بالأسمنت ، مسور من الجانبين ، لأصطياد مياه المطر من تل قريب ، حتى
لا تهرب . جميل .. لم يكد يرفع رأسه ، حتى حضر إليه عماله من خص
وسط الزرع لم يلحظه ، كأنهم كانوا فى انتظاره . تبادلوا الشكر ، بعد أن
أخبرهم عن مهمته لإعادة تشغيل البئر فى ناحيتهم وصباته . شمروا عن
سواعدهم . وحذرهم من استخدام مائه حتى يخبرهم بنتيجة فحص عينه
أخذها .

مال السائق بالعربة إلى مقهى ، بجانب الطريق . تطلع إليه ، وقد افتقد
سعداً :

- ريفي نشف .

أحضر صاحب المقهى ، فيما بدا ، براداً من الصاج الأزرق ، وكوبين
زجاجيين ، تحتها طبقان من الصيني .
- عنك .

أخذ حمدي البراد ، وشرع يصب الشاي ، وهو يتشمم البخار .
- من بورسعيد..؟

- رفع

رقمه بدّهشة ، فبورسعيد على بعد خطوتين ، وكمنطقة حرة مليئة
بالبضائع المستوردة ، والشاي هناك من مختلف الأنواع وبأسعار
رخيصة .

- عربات الأجرة ، تذهب إلى رفع يوميًا ، محملة بالعمال ، بعضهم
يعبر إلى رفع فلسطين ، يعملون ويتسوقون .

قَلْبُ السكر . وتأمل رسماً لكونت وكونتيسة على الطبق . قالت صفية : كان نفسي تشوف طقم فناجين شاي روميو وجوليت الذي اشتريته من غزة . منه لله موظف جمرك القنطرة شرق ، على حافة القناة . أصر على ضرورة فتح العلب الورقية كلها . كنت أحشر بين الفناجين قمصان نوم من النابلون ، حتى لا تنكسر من الشيل والعط . ظنني أهربها . حاول المشرف على الرحلة أن يقنعه بحسن النية ، زنجير طالباً تصريح سلاح الحدود بالمرور في سيناء . خشى المشرف أن يطلع فيه القبط الفاطسة، فسكت . نزع الموظف القمصان في لا مبالاة وأخرج محتويات باقي العلب . أعدتها كيفما اتفق . ورصتها زميلة فوق ذراعي . سرت منحنية عليها بصدري . وضعت قدمي على السلمة الحجرية ، للنزول إلى المعديّة . وعدوك.. لا أدري ماذا يجري.. تراقصت العلب . طرحة أُمى فردها الهواء، وقميص نايلون حريمي، شبك في أبزيم حدائي. وصوت دشدشة. آذان فناجين مشورة، وأطباق شرشرت حوافها. وكسّره روميو، وآخر به جوليت .

هبت نسيمات ملطفة لحرارة الجو ، معبقة بشذا الأشجار . لاشك أن عمرو بن العاص توقف هنا لا عند طرف العريش الغربي ، ليقرا خطاب الخليفة عمر بن الخطاب ، إذا لم يكن دخل مصر أن يعود أدراجه .. هل كان يقصد مصرأ ، أم وادي النيل .. ؟! .. على أية حال كان عمرو على عكس السينائيين ، لم يعتبر الوادي بعيداً، بل على مدي فرقة حافر خيل، واعتبر نفسه قد دخله ، أم تراه ، أسرع ، حتى يجب الزمان والمكان ، وتصيح رسالة ابن الخطاب غير ذات موضوع ، لا شك أن موقع «الفرما» كان هنا .. أو بالقرب من هنا .. وأن هذه الخضرة ، أغرت بدويًا مثله ،

ليعسكر بجيشه ، يأخذ أهفته للوثوب على وادي النيل ، ومواجهة الحامية الرومانية.

سأل حمدي صاحب المقهي ، وهو يحاسبه :

- ألا توجد عربة أجرة من هنا إلى بورسعيد .

- تذهب إلى القنطرة .

مرح حمدي ببصره ، المعيز تبحث في دأب عن كلاً ، وكبش في جانب، أضخم منها حجماً ، يحرك رأسه ذات القرنين الملتوين إلى الخلف .

وصل الباص محملاً بالأسرى إلى بئر سبع . توافد الأهالي في هرج ومرج ، يحملون الترامس وشطائر وكعكاً للمجنود ، ويحملون إلينا البصقات ، تكاد تخترق زجاج العربة . وحين أنزلونا ضرطوا في وجوهنا بأفواههم ، ورطنوا بالعبرية ، وقد كسروا عن أسنانهم . مر بنا شخص يحمل دلواً من الماء ، أشار إليه الحارس وقال :

- عربي

طالعتني منه بشرة بيضاء ، شمعية . قال الحارس :

- أخبرهم .. كيف تعيشون معنا .

نظر إلينا الفلسطيني ملياً . سحب نظره ببطء ، ومضي .

وعند تبة بالقرب منا ، أطل وعل . صخب الجنود الإسرائيليون ، وأسرعوا في أثره ، وهم يطلقون الرصاص .

ظهرت رأس وعل . أعجبني لونه البني المائل إلى المشمشي ، لا يكاد يبين من لون الجبل في غرب أسوان ، وقد التف قرنائه للخلف ، وخيل لي أن طول الواحد منهما يزيد على المتر . زيتنا وقد ظهرت وعول

أخرى، الواحد منها فى حجم العجل الذي شب عن الطوق، أذناه أقصر من أذني الحمار، ذيله قصير جداً، وأرجله أبيض على أسود. وجارانا فى الزينة والجري بعض تلاميذ رحلة الثانوية العامة إلى الأقصر وأسوان من المدارس الأخرى، الذين تصادف وجودهم معنا. وكنا حين نظن أننا اقتربنا من إحداها خلف نتوء نجدها قد أطلت من خلف نتوء آخر. تقطعت منا الأنفاس، وقال أحد الطلبة.

- دوخ الإنجليز وضيوفهم.

التفت إليه. بشرة سمراء لامعة، وعود سمهري. عاود الحديث:
- تنظف الجبال من الحشرات ولا تسمح لغريب بارتياها، طاردوها بالبنادق، ففرت إلى تلال وجبال المعادي وبعضها إلى سيناء. لم تسلم من رصاص حاميتهم فيها، فذهبت إلى سدوم بفلسطين.



وجده منهمكًا في ملاحظة العمال والعاملات ، وقد لاحت شجيرات الخوخ في الأغوار ، والأراضي المنبسطة ، وأصبح لها منظر .
اقترب سعد منه ، فلم يزد حمدي عن إشعاره ، بإحساسه بوجوده . قال سعد :

- تمام .

صعدا إلى العربة . تمتم سعد :

- الله يترور .

طاقت عيونهما بالشجيرات . أدار سعد العربة ، وبينما ينطلق ، قال :
- أدع لمن تركك تزرع وتقلع على حافة القناة .

كانت الطائرات الإسرائيلية تطلع للتصوير أولاً . ثم تأتي للقصف بعد ذلك . الديابات تتخندق ، ويخفون أية ظلال . يعرفون من ظل المركبة نوعها وتسليحها ، يضعون شجيرات وفروعًا من أغصان الشجر في جوانبها ، كي ينبعج ظلها ، ولا يظهر نوعها من الصور الملتقطة ، حتى عربة التعيين ، كانوا يخفون آثار عجلاتها على الرمال ، وعينوا مناوبًا لمراقبة ذلك . وكانوا يعرفون أنهم أجادوا التمويه ، عندما تقصف الطائرات بعيدا ، ولا تغير عليهم .

نزل حمدي عند المحافظة ، لتخليص بعض الأوراق ، وأخبره ، سعد أنه سينتظره ، في مقهى . وذهب إلى الحارة الرملية ، بالقرب من شارع الشاطئ .

أسلم نفسه لظهر كرسى من الجريد . تخللت ظهره راحة ، وودَّ لو يتمطى، ويفرد ساقيه ، وقد خابله غير بعيد ، سعف نخلة ، استسلمت مطاوعة ريحاً هينة .

وغير بعيد من المقهي ، كانت نخلة ، حركت سعفها ، ربح جافة ، من جوف الصحراء ، وأم ميلاد ، وقد أصبحت لها عربة يد خشبية ، وضعت عليها سباطات من البلح الأحمر . ومع ذلك لم يسلم القس من لسانها . تتلفت حولها ، مشيرة إلى المحال فى السوق .

- ألسنت مثل هؤلاء .

- احمدي الله .. بعد الفجل والجرجير .. بلح وفاكهة .

- حمداء قبل أن أراكم .

فينطلقون جميعاً فى الضحك ، مفوتين عليها الاسترسال فى الحديث ، حتى لا ينالهم رذاذها . حكى له أصدقاؤه ما فاتته من صباح السابع من أكتوبر على أرض سيناء . فوجئوا بامرأة تطلب مقابلة القائد . فوق رأسها مشنة ، أطلت من حوافها ، شقق طرية من العيش الساخن ، وفى قمة المشنة سباطات من البلح الأحمر .

أخذ ضابط السرية بعض الجنود ، نكتةً ، للقاء العميد جورج ، الذى كان معروفاً عنه عدم لوم الضباط فى حضرة الجنود .

حين رآهم ، تجهم وجهه ، وأمسك نفسه بصعوبة ، وهو يقول :

- هذا وقته يا حضرة الضابط

وكانت تُسمع على البعد أصوات انطلاق الدانات ، ودفقات متقطعة من رصاص الرشاشات .

مال عليه رئيس العمليات ، بإتسامة هادئة ، وقال بصوت خفيض :
- حضرت المرأة وانتهى الأمر .. لا تكسفها سعادتك .
قال العميد من بين أسنانه :
- شكراً يا ماما .

ولكن هذه تسمرت ، رافضة إنزال حملها . تطلع العميد جورج حوله ،
فأسعفه رئيس العمليات بإيماءة من رأسه إلى المشنة .
تقدم العميد جورج فى نفاد صبر ، وأخذ فرعاً من البلع . عندئذ أنزلت
المرأة المشنة وأطلقت زغرودة . فلم يملك العميد جورج نفسه من
الضحك ، وانتهر الموجودون القرصة ، فقال قائد السرية :
- سعادتك لم تر الفلاحين .. رجالاً ونساءً يحملون «الصباحية»
صَوَانِي، عليها قُرَص وفطير مشلت ولوازمه من الجبن والقشدة والحسل
الأبيض ، والشاي باللبن . ويمشون فوق المعابر .
لوح العميد بيده إلى السماء ، بما يعنى : وغارات الطائرات ..
قال رئيس العمليات :
- ولا فى دماغهم ..

تناول العميد جورج ، بلعة وضعها فى فمه ، ليزيل الحرج عن
الحضور ، فمدوا أيديهم وأمر بتوزيع ما أحضرته الفلاحة على الجنود .
قال رئيس العمليات :

- أراهن أنها لا تملك سوى نخلتين ، أحضرت لنا بلحهما .
تطلع سعد فى ساعته . تأخر الباشمهندس . فكر أن ينصرف ، لتدبير
الغداء .. تريث قليلاً .. الرجل سيجمع أقساط الجمعية . وربما تأخر فى
انتظار أحدهم ، ليأخذ قسطه . هل أستطيع أن أطلب منه أن يتم جميله
ويقرضنى باقى ثمن حجرة النوم ، لا .. يكفي تنازله لى عن دوره .

ماذا سيكون حاله ، لو جاء ، ولم يجدني .. يا للنذالة .

الضابط الذي تخلف ، اصطاده حين عودته ، ليضرب كمدفعي ، على باب أحد الحصون ، مع المدفعية . كانوا يضحكون عليه ساعة الهجوم .

واقف في فتحة برج الدبابة رجل في الخارج ورجل في الداخل .

- يا أفندم انزل .. أنت هكذا معرض للخطر أكثر .

وفي عصبية قال سعد ، وكان الضابط قد تسلم منه قيادة الدبابة :

- أنت الآن تعرضنا لأية شظية قد تسقط من الفتحة .

جلس القرفصاء على مقعده ، مستعداً للقفز في أية لحظة .

حاول سعد تعديل وضعه دون فائدة . ركبته تخبطان في ظهره .

أطلق قذيفة ، أسكتت المدفع الذي كان يطلق عليهم من تبة الإنجليزي . في ارتداد المدفع ، ليس مسماز مثبت شدواقي المدفع في إحدى ركبتي الضابط . نزل سائل أبيض ، أعقبه دم . أخرج سعد رباط الميدان وربط له ركبته ، فهو يملكها جواره . وطلب منه أن يغادر الدبابة ، ليجث عن عربة تقله إلى الخلف للعلاج . فجأة ، تغير وجهه ، وقال أنه سيحارب معهم حتى النهاية . في المساء ازداد عليه الألم ، وعجز عن تحريك ساقه تماما ، وأخذ يصرخ ، اضطروا لحمله ، وإرساله إلى المؤخرة .

في صباح اليوم التالي عرض قائد الفصيلة أن يحتلوا تبة بالقرب منهم ، تدعم موقفهم عند الهجوم على تبة الإنجليزي . اعترض سعد :

- الآن الشمس في عيوننا .. يروتنا جيداً ونحن لا نراهم .

وافق على الانتظار حتى المساء ، على أن يكون الهجوم بثلاث دبابات فقط . قال أحد الزملاء :

- أفاد الاستطلاع بوجود خمس دبابات على التبة .. لازم الهجوم يكون متفوقاً.. على الأقل 3 - 1 .

قاموا بهجمة ، لم تنجح ، فانسحبوا استعداداً لهجمة أخرى ، وزاد القائد عدد الدبابات المهاجمة .

كانت تبة الإنجليزي صعبة . وتستطيع أن تري منها الاسماعيلية على مسافة خمسة وعشرين كيلو متراً تقريباً ، كما تري منها الفردان والقطرة غرب . وصعوبة التبة ، ليست في ارتفاعها فقط ، ولكن لأن تبة أخرى اسمها تبة العسكري تحميها، والقوات المصرية في باطن التبة الأولى ، ولم تصل إلى الثانية بعد .

هجم لواء مدرع ، ولم يتمكن من احتلالها . تقرر الهجوم بالمشاة، على أن تساندتهم كتيبة مدرعة . حين أخبرهم قائد الكتيبة بالمهمة ، رجفت قلوبهم ، فالتبة حاكمة ، لن يتخلى عنها الإسرائيليون بسهولة . سبق أن احتلوها ليلاً واستردها الإسرائيليون بسهولة ، بعد أن قصفوها من تبة العسكري ، ومن قواتهم الاحتياطية في الخلف .

قامت الطائرات المصرية بعدة طلعات . ومهدت المدفعية ، قبل أن تتقدم كتيبة سعد المدرعة ، مساندة للمشاة . أخذت المدرعات ميمنة قوات المشاة المهاجمة . اشتعلت الدبابات حمية ، ولم تصمت مصادر نيران العدو . تسلقت الدبابات المصرية جاتاً من التبة . استرعى انتباه سعد وجود دخان أبيض داخل دبابته خلافاً للدخان الأسود المتخلف عن إطلاق القذائف .

- يا جماعة كل واحد يفتش مكانه .

- لا شيء

- افتحوا فتحة الذخيرة للتهوية .

دخل هواء جديد ، أطل سعد خارج الدبابة ، وصرخ :

- الدبابة مشتعلة .

التفت للملازم أول الذي خلف انضابط المصاب .

- يا أفندم افتح البرج واقفز .

- لا .. لا بد من التقدم .

- الدبابة ستفجر .

- تقدم وأطلق .

وضع المعمر دانة ، وأمسك بيدي البرسكوب يراقب اليمين والأمام ، وأطلق الرامي ، فأخذ يراقب اليسار والأمام ولم يشعر سعد إلا بنفسه يدفع الملازم إلى الخارج ، ويقفز ، ووراءه باقي الطقم .

انبطحوا بعد عدة أمتار ، وسرعان ما انفجرت الدبابة . تطلع سعد إلى وجوههم ، وقد عمق إحساسه بالأسى . فهذه الدبابة حاربت معه أسبوعاً ، ولم تخذله أبداً . قرروا العودة إلى وادي النخيل انتظاراً لدبابة أخرى . لكنهم وقعوا في مطب ، فقد نسوا الطريق التي شقها المهندسون وسط الألغام قبل بدء الهجوم . حاولوا الاهتداء بآثار جنزير دبابة . وجدوه مطبوعاً في مكان ، ومطموساً في آخر .

كانت مدفعية العدو تطلق على الموقع ، فاهتدوا إلى فكرة . كلما قصفت المدفعية مكاناً تقدموا إليه . وهكذا ظلوا يتقلون من مكان إلى آخر ، تلاحقهم القذائف ، فإذا سمعوا تكة مكتومة «بم» ، انبطحوا فوراً . وإذا سمعوا صوتاً يشبه الصفير ، أيقنوا أن المقذوف تخطاهم ، وسيسقط

بعيداً عنهم ، فبواصلون السير ، حتى وصلوا إلى المؤخرة . فى المساء علموا أن قواتنا احتلت التبة ، ولما لم يكن هناك استعواض ، فقد ظلوا حتى آخر الحرب دون دبابه.

وانتهزوا الفرصة لزيارة قائد دبابتهم السابق الذي أصيب فى ركبته ، فى المستشفى بالزقازيق . ما أن رأهم ، حتى هب فى سعد :
- شفتني ميتاً ، حتى تشهد عليّ .

وقال سعد فى نفسه : يا خبر .. رغم أنك حققت بالأترويين ، كنت واعباً .

وتابع الملازم أول :

- الحمد لله .. أن جاءت هكذا .

كانت ساقه ، وجزء من فخذه قد بترتا ، لتغلغل الغرغرينا .

- الحمد لله أنني ما زلت أعيش .

وأشار إلى ابنتيه :

- أمل وصفاء .



- أين الخطر .. ؟!

قال صفوت :

- لييا .

- ملمحًا للتوتر على الحدود المصرية الليبية . عاجله ضابط التوجيه

المعنوي :

- حمار

جلس صفوت منكسرًا ، واستمر الضابط :

- الشرق .. الغزاة دائما يأتون من الشرق .

وقال صفوت في نفسه : مازلت حمارًا ، كيف وافقت على لقاء

عبد السلام فاروق ، أخرجت نفسي وأخرجته ، فليس عندي ما أقوله عن

صفية . وكيف كان يستطيع رده حين جاءه صوته في التليفون : ليس كما

توقع ، عندي موضوع مهم .

أعطاه عصًا ، كانت بحوزة اللواء جورج وقال :

- تخصص العقيد مصطفى عبد الله .

- من مصطفى عبد الله ..

- مصطفى عبد الله .. !!

- آه .. رئيس العمليات .. يرحمه الله .

انتشرت عادة حمل العصا بين كبار الضباط ، فيما يبدو ، تشبهًا باللواء

محمد نجيب ، الذي تصدر حركة «الضباط الأحرار» ، بوجهه البشوش ،

وشخصيته الودودة التي أكسبته شعبية هائلة .

أمسك صفوت العصا . تأملها وقال ساخرًا :

- ماذا يسمونها .. ؟!

- عصا المارشالية .

أوما عبد السلام برأسه إلى قمة العصا .

تملي صفوت من الرسم ، واستمر في سخريته :

- وماذا يعني ..

- عين حورس يا جاهل ..

تطلع صفوت إلى الرسم وقال :

- عين امرأة من حي المناخ ، لطختها بالكحل

انفجر عبد السلام ضاحكا ، وقال :

- على أية حال .. الكحل اختراع فرعوني .

- وما شأني بالعصا؟

- وجدها اللواء جورج في عربة القيادة بعد وقف إطلاق النار ،

وطلب مني توصيلها لأبنائه ، فوعده ، ولأنني أعرف أن لك أصدقاء

في منيا القمح .

آه .. دُبت ولا مفر .

وهو يغادر سأله عبد السلام عن مسعاه في العمل مع أحد المقاولين،

كما سمع .

- سافر إلى الكويت .

جاء مندوب من الإدارة المالية ، ومعه حقيبة بها ستة وعشرون ألف

جنيه ، مرتب شهر للجنود ، تبرعت به الكويت .

كان الجنود قد شدوا أغراضهم فوق ظهورهم ، وعقولهم مشغولة ،

بما هم مقبلون عليه ، والمندوب يريد توقيعهم على استمارات الصرف .

أخذه صفوت إلى قائد الوحدة . كانت أمامه بعض الخرائط . أصدر بعض الأوامر ، ولوح بإحدى يديه لصفوت قائلاً :
- تصرف .

أخذ صفوت الاستثمارات ، واختلى في موقعه مع بعض الجنود ، ووقعوها . ابتسم المندوب ، أخذها وناولهم النقود . ذهب صفوت إلى القائد ، طالباً مهلة لتوزيعها . رد في عصبية :
- أيعلم أحدكم .. هل سيعود أم لا .. ؟!
- يا أفندم .

أخذ الحقيقة ، وأطاح بها فوق الرمال .
بعد العمليات ، التقى صفوت القائد ، صدفة . قال الأخير :
- تعرف يا ولد .. ليتنا احتفظنا بالنقود .

فتح صفوت التلفزيون ، لشاهد مباراة بين مصر والجزائر ، مريحا نفسه من التفكير في العمل وخلافه . ودعا الله ألا يركب العصبى لاعينا ، لا لشيء ، سوى أن الجزائريين فازوا من قبل مرة أو مرتين .
أعلن المذيع عن أسماء اللاعبين . وأذن الحكم ببدء المباراة .. كرة ضالة عند خط الـ 18 .. ولم تجد من يتابعها .

بالقرب من الكيلو 101 على طريق السويس ، كانت تعسكر وحدة جزائرية ، وجوارها وحدات رمزية أخرى ، سودانية ومغربية ، وغير بعيد نقطة حراسة إسرائيلية .

كانت الطائرات الإسرائيلية قد قصفت السويس عدة أيام متتالية . وألقوا منشورات تدعو الأهالي للتسليم . وانسحب شارون بفرقة المدرعة من أمام الإسماعيلية ، وانضم إلى فرقتين مدرعتين أخريين ، نجحتا في التسلل إلى الغرب وشرعوا في اقتحام المدينة . انبطح الأهالي بجوار رصيفي الشارع ، في مدخل حي الأربعين ، وبالقنابل اليدوية أعطبوا

جنازير الدبابات ، وجنود الجيش الثالث ، استخدموا الر - ب - ج ، ودمروا جميعًا ، للإسرائيليين أربعين دبابة .

ومن خرج حيا اصطاده الأهالي ببنادقهم من الشرفات والنوافذ . وجرت قوة منهم ، واحتمت بقسم شرطة الأربعين . حاصرها الأهالي ، والتقط أحد رجال التليفونات إشارة يستجدون فيها بقائد الجبهة الجنوبية جنرال جرين .

وهرب من بقي حيًا من قسم الأربعين ، حين حط الظلام ، ولم تعاد الدبابات الهجوم ثانية على السويس ، وقد تداخلت خطوطهم مع خطوطنا ، حين نفذ قرار وقف إطلاق النار .

وكانت تمر من أمامهم ، قافلة المؤن ، خضراوات ، ووقود للسيارات ، وأغراض طبية ، إلى الجيش الثالث في سيناء . ودائما تحدث مشادة بين جنودنا ، وبينهم . . وبعد أن يتبادلوا الشتائم في حراسة القوات العربية ، تمر القافلة ، ويفاجأ قائد المنطقة بالجزائريين يطلقون النار على الإسرائيليين . يرسل مندوبًا ليكفوا عن الإطلاق ، فقد مرت القافلة وانتهى الأمر . يعدونه بذلك ، وما أن يغادرهم ، حتى يعودوا إلى إطلاق النار .

كاد أن يفعلها قلب الهجوم المصري ، ويسجل هدفًا مبكرًا . ضحك صفوت من نفسه ، وقد ضبط جسده ، قائمًا نصف قومة ، يتابع الهجمة . وضحك أكثر حين تذكر مباراة سابقة ، شاهدها معه حمدي أبو زيد . كانت مع تونس ، يومها سجل التوانسة هدفًا مبكرًا ، وناموا عليه ، الوقوع أرضًا ، وادعاء الإصابة لإضاعة الوقت ، حتى شاطت أعصاب المصريين وعجزوا عن التعويض .

بعد المباراة انفجر حمدي ضاحكا ، بينما كان صفوت يغلي . قال حمدي :

- أفتي زميل لنا .. بما أننا دولة متخلفة ، وذوقًا نقول نامية ، وكل شيء

متخلف.. زراعة وصناعة وتعليم ومواصلات ، فلماذا تشذ كرة القدم..؟!
اقتنعت بهذا المنطق زمنًا .. وبدأ كأنه تحليل ماركسي لا يخر الماء .
ردد صفوت في نفسه : الرجل رغم غلاسته ، لا يخلو من ظرف .
قال :

- لا ماركسي ولا يحزنون .. فقط أحد عشر ولدًا يجيدون الرمح زمن
المباراة ، مع صقل مهارات اللعب .
تلقف حمدي الخيط :

- لفت نظري أن تونس دولة صغيرة .. واقتصادها على قدها وتفوز
علينا .. والبرازيل من أفقر الدول ، وكثيرا ما فازت بكأس العالم ، متخطية
الدول الغنية ، والمتقدمة في التقنية .

وانفجر ضاحكًا .. تجاوز معه صفوت .. وقد بدأ يخفف من غلوائه
عليه في داخله ، وردد في خاطره .. يبدو أن عنده ، نفس عرق الظرف
الذي عند حمدي .

رجته مرة ، أن يعبر بها من السويس إلى بور توفيق في سيناء .
فوجئت بالوحشة تلف العمارات . أغلبها من طراز واحد كالعمارات
الشعبية وقد شوهت طلقات الرصاص واجهاتها ، وأحدثت الدانات
ثقبًا في الحيطان والشرفات . والريح تعبث محملة بالغبار في
الشوارع . نظرت إليه ، كأنما معتذرة . لف ذراعه الأيمن حول
خصرها ، وقادها ، برفق إلى مدخل إحدى العمارات .. تطلع إلى
عينها . اختفت يماماتها الوديع ، المنطلقة إلى المرح . حك أنفه
بأنفها ، وأراح خده الأيمن على خدها الأيسر ، وحكه ببطء . مستمرًا
نعومة مثل نعومة حبة الجميز . استكانت إليه واستكان إليها ، وشملها

بود . قطرات خفيفة من العرق فوق شفتيها العليا . مزااة البرتقال
الشموتى بين شفتيها . استنشق عبر جسدها بعمق ، حانت منه نظرة
خاطفة إلى عينيها . يمامة منكسرة تحرك رقبتها وعينيها فى ترقب .
سارا صامتتين وقد أحس بمتقار العصفور ، ينقر فى صدره . استغيبته ..
لكزته بذراعها جهته .. توه فى الكلام ، وقال :

- أليس غريبا تسمية هذه المدينة باسم الخديو الذي خان مصر .

وكانما استردت لياقتها فى الشقاوة فجأة ، قالت :

- لو أسموها بور عرابي لاحتلها الإسرائيليون ، وما تركوها أبدا ..

علت ضحكته ، وجذبها نحوه فى مودة .

الجزائريون يهاجمون . يريدون خطف هدف ، ليتلفوا أعصاب
المصريين . وهؤلاء أقاموا خط دفاع قوي . هل سيصمد طويلاً .. وهل
ستقع أخطاء يستغلها المهاجمون . أخذ المذيع يردد :

«صرح المدرب قبل المباراة ، أننا لسنا فى عصر الكرة الذهبى ، أيام
الخطيب وحسن شعاعته» .

قال له الصحفي الذي يحاوره ، أي مدرب يتمنى أن يكون عنده
أساطين اللعبة مثل ، بيليه وبوشكاش ودي ستيفانو ، ليفوز . البراعة أن
تفوز بما لديك .

استمع الرئيس السادات لطلب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى ،
من الأسلحة والمعدات الحديثة . ولكن .. من أين .. الغرب لن يعطينا ،
والروس لا يلبون كل طلباتنا . قال الرئيس حسماً للأمر : معك قوات
ومعدات تفوق ما كان مع مونتجمري فى صحرائنا الغربية فى الحرب
العالمية الثانية .

ثغرة فى الدفاع المصري ، مهاجم جزائري ، أطلق قذيفة أرض جو ..
الحمد لله .. مرت فوق العارضة .

أخبرته صفيه ، أنهم عاشوا ساعات لا يعلم بها إلا المولي . سمعوا أصوات قذائف ، وانتشرت الأنباء في الإسماعيلية ، أن شارون على رأس فرقة مدرعة ، يطرق أبوابها .

ابتسم صفوت ، وهو يستمع لها . كان الجيشان المصريان الثاني والثالث ، قد دمرا خط بارليف ، وكشعا الإسرائيليين إلى الخلف ، واستوليا على منطقة بطول القناة ، عرضها من عشرة إلى خمسة عشر كيلو مترا ، حين تفتت حيلة الإسرائيليين عن دفع بعض قواتهم إلى الغرب . كانا ، يتغديان ، وقد قلبت صفيه سمك الدنيس ، المفضل لديه ، وأعدت جواره الأرز الأحمر الذي يعشقه . نفذ أرزه ، فمد ملمعته إلى طبقها . جذبت الطبق ناحيتها ، مهددة ظهر يده ، بشوكة ظهر سمكة التهمتها . لكنه لم يتراجع ، وغرف بملعقته من طبقها .

واستمرت صفيه : تصور .. ضابط مدفعية مضادة للطائرات ، حول مدفعيته وأخذ يقصف الدبابات الإسرائيلية ، وأسرع الناس وفتحوا المياه في منطقة الجنانين ، ووجد شارون دباباته في مخاضة موحدة ، فأسرع هاربا بقواته .

أراهم المخرج أفرادا يسخنون خلف مرمانا ، والمذيع يعلق : «هل سيبدل مهاجما بمهاجم ، أم سيدعم الدفاع .. أرى أن يدعم الهجوم .. فإذا لم نكسب على أرضنا .. فأين نكسب» .

خيب المدرب توقعه ، واستعد لتدعيم الدفاع .. وبعد أن وقف اللاعب على خط التماس استعدادا للزول ، غير المدرب رأيه .. وأجل التبديل .. هجمة جزائرية .. والمذيع في ضراعة :

«استر يارب» .

مرت الكرة بجوار القائم الأيسر . تنهد المنيع وقال :

«الحمد لله» .

وقع أحد اللاعبين الجزائريين على الأرض . استدعى الحكم رجال

الإسعاف. انتهز اللاعبون الفرصة ، وتلقفوا بعض زجاجات المياه .. هذا يشرب ويناولها لزميل .. وآخر يدلّق الماء على رأسه ووجهه .
قال المساعد :

- نتوضأ ونصلي

- يا أقدم الماء لنّ يكفي الشرب .

- واجب ربنا أولاً .

توضأوا جميعاً ، وحين شرعوا في الصلاة ، صفرّت دانة . نظر المساعد إلى أعلى وصاح :

- الحفر

أسرعوا ، وهم يتماّلسون عليه .

أغلق صفرّات التليفزيون ، بعصية ، وفي كل مرة تلاعب فيها مصر دولة من الشمال الإفريقي ، يقرر عدم رؤية المباراة حتى لا تتلف أعصابه ، ولكنه يفعل .

ولم يكّد ينهض ، حتى سمع ما يشبه «هيه» في الفضاء ، فأسرع وفتح التليفزيون :

- مصر سجلت هدفاً .



لحظ سعد أن ندا تخطت جامع العباسي ، ولم تعرج ناحية قلعة سليمان ، كما طلب منها . كانت لاوية بوزها طوال النهار ، فخمن أن في الأمر شيئاً .

اقترب منها ، فأمرعت في مشيتها في الشارع المسفلت بحذاء الشاطئ.. حاول اللحاق بها ، قبل أن تقترب من منطقة الفنادق ، حيث سترفض الحديث خشية أن يراها أحد .

كلما اقترب أسرع أكثر . عليه بالصبر ، حتى تتخطي الفنادق . حانت منها لفظة ، فراعته احمرار وجهها .

في الضحى ، وبينما كانوا سعداء بدفء شتاء هذا العام ، إذا بالباشمهندس حمدي ، بخشي ، أن يخدع الدفء النبات ، فيزهر قبل الأوان .

اجتازت منطقة الفنادق ، وبدأت الأرجل تقل ، ولسعة برد خفيفة . لو زاد البرد ، ربما ذبلت الأزهار ، وتلفت البراعم .

ذاب الشارع وسط الرمال الشاسعة ، حيث نمت بعض الأعشاب على الروابي والمنحدرات ، وحدت الطريق ، ناحية البحر ، أشجار نخيل قصيرة ، وقد ظهرت واحدة طويلة ، وسط كل مجموعة كأنها ترعاها .

- على مهلك .. قلبي وقع .

- لا كلام لك معي .

- ماذا حدث .. ؟!

- ما تقرب مني أربعين مربعاً ، ولو قربت عليك أربعة مربعات .
وقف سعد حائراً ، لا يدري ماذا اقترب ، بينما استمرت ندا :
- في الصحراء ، ممنوع الاقتراب مني لأكثر من أربعين خطوة .
ضحك سعد .. وقال :

- لسنّا فى جوف الصحراء
أشارت ندا لما حولهما من رمال ، امتدت على مرمي الأفق ، وإلى
يمينها ، كان الزبد ينداح عن الأمواج الفاروزية ، ويرغي على حواف
الشاطئ .

حاول إمساك إحدى يديها ، فهددته :
- خطوة واحدة ، وأشكر لشيخ القبيلة ، تغرم عشرين ألف جنيه .
- شغلي طوال عمري ، وطوال أعمار أولادي من بعدي .
أشاحت بوجهها عنه . قال :
- لكننا فى المدينة ، ولسنا فى الصحراء .
- من سيصدقك .
لمس فى لهجتها شيئاً من الدلال ، فأدرك أنها على وشك أن تلين .
قال :

- فى الصحراء .. ألبس مسموحاً بالاقتراب من أجل شربة ماء ؟!
- ليس معنا ماء .
- للسؤال عن الطريق .
- لا نفتفي الأثر .
- لم يبق إلا إبداء الرغبة فى الزواج .

جاء صوتها موشى الحواف بغنة مستترة :

- كسبت يا خائن !!..

..... -

- منذ وصلت شقيقة الباشمهندس ، وأنت لازق هناك . أوصلي يا

سعد ، فسمحني ياسعد ، وآخرتها معها إلى الموقف لتركبها بنفسك .

ضحك سعد ، مقتربا منها . أمسك يديها ، وقال :

- تغارين .. !؟

لوت شفتيها ، وحولت عينيها .

- الباشمهندس يعتبرني كأخ أصغر ، وهذه ضيفة .

ارتخت يداها في يديه ، فترك إحداهما ، وطوق خصرها .

- نحن على الطريق .

دفعها برفق ناحية النخيل ، وقد استشعر ليونة جسدها ، وحرارته .

- احذر .. الغرامة .

- عرج بها ناحية البحر .

- الغرامة تكبر .

التصق بها أكثر ، وجاسا في الشاطئ ، وهو يضمها قائلاً :

- عليه العوض لي ولذريتي من بعدي .

ضحكت ، فلم يملك نفسه ، وقد تدفق الوجد من نظراتها ، ومن

انفراجة شفتيها . قبلها بسرعة ، فأدارت وجهها . انطبعت القبلة على أحد

خديها . أحس بحرارته ، فعاود المحاولة ، لكنه أحس بنفور جسدها ،

فانبثقت في ذهنه خشية الباشمهندس حمدي : أن التزهير قبل الأوان قد

يعني الذبول السريع .

أخذ راحة يسراها في يمينه ، ووضعها على صدره ، وقد تلامس جنباهما المتجاوران . نظرت إليه بحجة . اقترب برأسه من وجهها وهو يمد شفتيه ، تراجعت برأسها في خفة .

- أردت أن أثبت لك .

وضعت سبابة يدها الأخرى على شفتيه ، وهمست :

- لا تثبت شيئاً .

كان سعد جريحاً فوق الرمال ، وقد نال منه العطش . تقدم منه الملازم مجدي الشبة . أعطاه جرعة ماء بقيت في زمزميته ، وربط له ذراعه المجروحة . وذهب ليملاً زمزميته قبل الرحيل ، فأخبروه أن المياه معطلة لبعض الوقت .

كانت وحدة خاصة ، تمد أنابيب المياه ، خلف القوات كلما تقدمت ، مجلوبة من الضفة الأخرى ، على طوف فوق مياه القناة . وخلف القوات ينشئون خنفيات ، وكان الجنود يسمون الحنفية الغراب . ذهب الملازم إلى الغرب ، ليسأل عن سبب تعطيل المياه . في الضفة الغربية لمحاه القائد السابق لعمليات الفرقة ، وكان يعرفه .

- شبة .. ماذا تعمل هنا .. ؟!

- المياه تأخرت

- العساكر عطشت .. ؟!

ورفع يمينه ، وضربه قلمين .

- على وحدتك فوراً يا ابن الكلب .

- يا افندم .

- يا جبان .. يا ابن الكلب .

رجع مهموماً وحكي لهم عما حدث ، ولم تمض ساعات حتى كانت وحدثهم تستعد للهجوم . انهالت قذائف مدافع الإسرائيليين .

نزلوا إلى الحفر حتى تنتهي القصف . فجأة ، خرج مجدي الشبة من حفرة ، وصاح :

- الله أكبر .

وتقدم إلى التبة المطلوب الاستيلاء عليها ، وسقط قتيلًا .

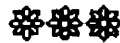
بعد انتهاء القصف ، تقدموا واستولوا على التبة . وقتلوا بعض الإسرائيليين ، وفر آخرون ، وأسروا ثلاثة . وأخذت الحمية الجنود فتقدموا حتى مدي اثنين وعشرين كيلو متراً ، ولاحتقتهم الطائرات الإسرائيلية ، فاضطروا للعودة إلى التبة القائدة ، ومع أن مدي صواريخنا المضادة للطائرات اثنان وعشرون كيلو متراً ، إلا أنها عندما تطلق مائلة ، يصبح مداها المؤثر ستة عشر كيلو متراً . وفي هذا المدي ، لا تستطيع طائرات إسرائيل التحليق .

عندما أحسوا بإمكان التقاط الأنفاس . أخذوا أوراق الملازم الشبة ، ومتعلقاته الشخصية لإرسالها إلى أبيه . حكي مجدي الشبة عنه أنه كان عامل ترحيل ، امتلك قطعة أرض في مديرية التحرير . وكان حلمه أن يري ابنه ضابطاً مثل الضابط مجدي حسنين ، الذي أنشأ مديرية التحرير في قلب الصحراء الممتدة من القاهرة حتى الإسكندرية ، وخضرها بالزروع . وقد نشأ مجدي مع بنت عمه إجلال . وتعاهد الأهل على زواجهما . وحين

كبرا أحب كل منهما الآخر . وتحقق حلم الأب في ابنه ، بينما تخرجت
إجلال من مدرسة المعلمات ، وعملت في مدرسة ابتدائية .

استخسر الأب ابنه الضابط فيها . وكان الأب يطلب من ابنه أن يرتدي
بدلة الفسحة ، حين يحضر في إجازة ، ويضع عصا تحت إبطه كما يفعل
كبار الضباط ، وينتظره على محطة إيتاي البارود ، ويحمل عنه شنطته ،
وأراهم مجدي خطاب أبيه ، الذي طلب منه فيه ذلك ، دون خجل ، وقد
قربت بينهم الأيام على الجبهة . فأحبوه لصراحته ، وروحه المرححة ،
التي جبت عدم وسامته . كان جلده أسمر غطيسا ، بوجهه آثار بثور حب
الشباب ، وشعره مجعد ، والشيء الوحيد الذي خالف أباه فيه ، عدم قطعه
صلته بإجلال ، واستمر في حبه لها .

اقترح أحدهم إرسال أوراقه إلى خطيبته إجلال .. تبادلوا النظرات ..
علت الابتسامة وجوههم .



هل يرون ما يراه . قابلوه بترحاب ، والبشاشة تغمر وجوههم . في قرار نفسه يعتقد أنهم لم يدركوا حقيقة ما رأي . اشتد عود الشتلات ، ومدت في الأرض . هواء البحر ، وريح الصحراء ، رخاء بالنسبة لها . تتمايل بثقة ومرح . وتستوي حيناً ، شاخصة إلى سماء لبتية صافية .

دقق في جنين الزهر . خيل إليه أنه رأي جنين التبرعم ، أو هامته . لا يستطيع أن يلمس ، ويتحقق . رأي في التبرعم الدقيق جداً جداً ، الثمر القادم . الاستدارة الناعمة ، في أحجام مختلفة . الغور الصغير المستدير في قمة الثمرة ، أملس ، مائل إلى البياض . لون الثمرة الأحمر القاني ، مائل إلى الأبيض الخمري ، وإلى أصفر الليمون البتزهير المشيع بالانخضار ، وإلى أحمر القطيفة الفاتح والداكن ، والزغب الخفيف ، الدقيق ، كزغب الشفة العليا لعذراء شقراء . يستشعر ملمس النواة الحمراء المنداة ، المجزعة في تجسيم بارز ، والملتحمة بجسد الثمرة ، عند نزعها تتخلف بقايا على بعض حوافها . لا .. خووخ سيناء مختلف . تمسك الحبة ، تضغط عليها بالسبابة والإبهام ، تنزلق النواة بسهولة ، مثل انزلاق نواة مشمشة مستوية . ومع الضغطة ، ينبثق عصير حلو ، سكري بمرارة ، مستحبة ، ومزازة نجعل النفس لا تجزع ، مهما تناول الإنسان من الثمر . هل هذا ، ما جعل باعة الفاكهة الأخرى ينادون عليها ، أنها مثل الخوخ شراب الررد .

لن ينسكب العصير بسهولة فيما بعد ، ولن يتسبب في إخراج من يأكل أمام أحد ، لتساقطه من جانبي الفم ، ولن ييقع الملابس في غفلة منه . هذه

السيولة التي تسبب سرعة العطب للثمرة ، وتجعل تخزينه ، ونقله إلى محافظة أخرى متعذرا ، حتى لو حفظ في ثلاجة .

آه .. لم نجحت هذه الزرعة .. وحمد الله أن الزارع هنا ليس مدينا لأحد ، مثل الفلاح في الوادي . يستدين من « القومسيونجي » شتاءً ، ويرد الدين خوفاً في الصيف ، بثمان بخس ، ويضطر للاستدانة ثانية ، من أجل المحصول القادم ، ويظل في دائرة « القومسيونجي » ، التي يصعب الفكك منها .

استقل حمدي عربته الجيب ، من ناحية أغوار رفح ، في اتجاه العريش . في كل غور ينزل ويتأكد ، وكلما وجد الريح رخاءً ، والأعواد تتمايل معها ، اهتزت أعطافه . واستشعر في فمه ، طعم الخوخ السكري الممزق . اقتربت العربة من الشيخ زويد . لاحت له بيوتها المنخفضة ، على يمين الطريق المسفلت متناثرة ، إلى ما قبل شاطئ البحر بقليل . تتصاعد الأبنية وتنخفض ، تبعاً لري الرمال الحقامة عليها . لفت نظره غور قريب . تحسس الأعواد برفق . بداية تزهير .. أكيد .. ريح هينة من هواء البحر المالح ، مختلطة بهواء الصحراء الجاف ، داعبت وجهه وذراعيه ، فأحس بانتعاش ورغبة في الانطلاق .

واشند به الشوق ، ليري ثمرات الخوخ .. ويتحسس يديه ملمسها القטיפي .. لكم ود أن يمسك وجه صفية الخمري ، ذا الزغب الخفيف ، براحتيه ، ويقبلها قبل طويلا ، يودعها حنانه ، ويستشعر تريق قمها على لسانه . أترأه يكون مسكراً مثل شراب الخوخ . وهل تعترية مزة حين تشتعل رغبته .

نهض الأصحاب فجأة للذهاب إلى السينما . ولم يرغب حمدي في الذهاب ، انتبه فجأة أنه سيتحمل حساب المشروبات . وأعلنت صفية أنها لا تريد أن تتأخر . وجدا نفسيهما وحدهما ، وكانا مكنيهما منعزلا

بين الأشجار . تبادل النظرات وابتما . كان ، خشية أن تصده ، في انتظار إشارة أو علامة . تكرر تبادل النظرات ، فقال وهو يكاد يغيب عما حوله :
- عيناك جميلتان .

اشتعلت وجتها ، وجاء صوتها ناعماً ، منها :
- « يا سلام .. ! »

كاد أن يفقد توازنه ، وحار في ردها . بالتأكيد ، تعرف صدق مشاعره تجاهها . نهضت وقد ازداد احمرار وجهها ، فلم يملك سوي مجاراتها ، وهو يردد في نفسه . حلوة كشجرة الخوخ ، ولكن لا يستطيع الإنسان أن يستظل بها مثل شجرة التوت أو البرتقال .

عندما قدر أنها وصلت إلى بيتها ، فكر أن يتلفن لها ، لعلهما في الأسلاك يعبران عن نفسيهما أفضل .. عازيه الحماس ، وتساءل .. وماذا عساي أقول لها . وكان ماحز في نفسه ، عجزه عن التصرف . لا يدري حقاً كيف يسلك معها . نزع ملابسه ، ووضع نفسه تحت الدش ، وكلما فكر في وقف إسالة الماء والخروج ، انتظر لا يدري لماذا .. وتذكر عندما كانوا يجمعون الخوخ ، وينفضونه بقطعة من القماش لتخليصه من وبره اللاسع ، فيعلق بهم . ولا تجدي أية محاولة لإزالته ، سوي خلع الملابس كلها ، ووضع جسده تحت الدش ، وكلما فكر في الخروج انتظر ، خشية ، أن يكون بعضه مازال عالقاً برأسه ورقبته ، فلا يستطيع الجلوس مستقراً ، كمن ووضع في قفاه مسحوق (بودرة) العفريت .

لم يكد يستقر ، حتى حضرت مفتشة من الجهاز المركزي للمحاسبات . هل هي دسيمة ، لشغله عن تجاربه ، وإذلاله ، أم حضرت بظروفها . رفع رأسه ، وهو لا يعرف ، ماذا يقول عن دفاتر يجهل ماهيتها ، ولم يسدد خاناتها ، وقال :
- أهلاً .. وسهلاً .

حين رآها ، لا يدري ما الذي حدث له ، وأية نشوة هزت كيانه . وجهه صبح ، مشرب بحمرة ، لا طويلة ولا قصيرة ، فخذها من حز الفستان عليهما ، عندما جلست ، أبانا عن سخائهما . قدماها الأيضان ، وأصابعهما الصغيرة ، الطالة من حذاء صيفي ، بأظافر دقيقة غير مطلية ، مست حواف شجونه .

صدرها راسخ ، دون تزيد ، فلقته سمراء بلون الظل ، عيناها واسعتان ، دعجوان .

أحس ، ولا يدري كيف ، كأنه يعرفها من زمن ، وأن شيئاً ينبعث منها ، لا يدريه يشده لتأمل جسدها ، والتطلع إلى وجهها .
أرته بطاقتها الشخصية ، ليتأكد أنها عضوة بالجهاز . تطلع إلى البطاقة ، ولم يطالع شيئاً . نحي يدها الممدودة بالبطاقة بهدوء . وهو يفعل ، ارتعشت يدها ، وفي لحظة خاطفة ، لمح انكساراً في عينيها ، اعترته الدهشة ، وأدرك أنها تعاني مثله ، ولم يكذب يدرك ، ولم تكذب تدرك أنه يدرك ، حتى استأذنت لدقيقة .

خرجت من الحجرة ، وظل في انتظارها ، تعاوده الذكرى .. والحين .. وهي لا تظهر . وكم سأل نفسه .. كيف حدث هذا مع إنسانة لم أرها من قبل ، وكيف أحسست بهذه الرغبة الطاغية .. وأنها تريدني ، وأنها تخصني .. وليس هذا بالضبط .. إحساس بالحميمية .. وكيف تولدت نفس الأحاسيس عندها ، وإلا ما اختفت هكذا ، وبسرعة ، ولم تعد أبداً . هل أدركت أنها لو استمرت في عملها ، لن تستطيع الصمود ، ففضلت الهرب . لماذا هربت يا سيدتي ، وأنا الإنسان الوحيد المتم لك . وأين أجذك ، وأنت المرأة الوحيدة ، التي عشقتها ، وأردتها ، وأحسست أنني سأذوب فيها ، وبها ، في لحظة كشف باهرة ، مفاجئة ، لحظة كدت فيها أمتلك الحياة كلها .

أكيد ، ثقتك بنفسك ، جعلتك تقدمين بطاقتك الشخصية ، ليتني تيقنت من اسمك وعنوانك ، وحالتك الاجتماعية ، وهل كنت أعلم .. ؟!

لماذا ، الأنثى الوحيدة ، التي أودتها وأرادتني ، دون تفكير ، أو تلثم في لحظة خاطفة ، لا أراها ثانية . لحظة خاطفة ، كانت تعني التحقق كله ، والحب كله ، والعشق كله ، والجنس ، برغبة نابغة من الأعماق ، رغبة المسام للمسام ، رغبة امتزاج الأنفاس بالأنفاس ، رغبة الانجذاب العفوي ، الصادق ، النقي . أين تكمن أنثاى الآن .. نري .. هل سر انجذابى لسمية أن نظرتها قريبة من نظرتها .. لكن الأخرى صريحة .. واضحة .. أما سمية فحبية بعض الشيء . نفس الحجم تقريبا ، واقتراب الملامح .. لحد ما .. هل سأعشق فيها تلك الحبيبة .. وكيف لي أن أحضن بصحيح ، وأقبل بصحيح ، وأحب بصحيح .

صار بخطوات متمهلة ، وقد شمله شعور بالآسى ، لا يفلح معه أي عزاء . فجأة سمع طائرا يبيع بصوت مشروح . التفت إلى مصدر الصوت .. طائر قادم من ناحية الشاطئ .. استعداد بحة صوت «هنا الصافي» فى الخمسينات ، تبث حنينها المفعم بالشجن ، من إذاعة فلسطين بالقاهرة : طير الطاير من عنا (عندنا) من عند الأهل .. خبرني يا طاير .. وحياتك يا طاير .. كيف حال الزرع بموطننا .. كيف حال الأهل .

اقترب الطائر ، يان جسمه الأبيض فى حجم بطة كبيرة وظهر جناحاه المفرودان كمروحة بيضاء ، شابها شريط أسود ، قبل نهايته حز أبيض رفيع ، رجلاه طويلتان رفيعتان ، يميل اللون فى أسفلهما إلى الأحمر البصلى . هبط بحذاء الماء ، أرسل بحته ثانية ، ولما لم يجبه أحد ، مد رقبته الطويلة ، خبط الماء بمنقاره ، وأخذ يعبه .

هل يطفى الماء ، المالح غليلك .

سرعان ما قذف الماء .

يالي من غبى ، كان يصفي الطحالب الدقيقة في قمه ، لعله يسد جوعته.

سرعان ما رفرف بجناحيه ، وطار فى اتجاه الجنوب . هل إلى بحيرة البردويل .. لينتسل ، ويصيب شيئاً من الراحة . أم إلى الملاحات بالقرب من بور فؤاد ، بعد رحلة للبحث عن غذاء ، لصغاره ، الذين تركهم فى عش ، آمن من الجوارح ، وسط مياه ضحلة ، آسنة ، سبخة ، لزجة ، ملينة بالبقع الملحية ، البيضاء ، والحمراء ، عانت الدبابات الإسرائيلية عن التقدم لاحتلال بور فؤاد عام 67 . غيبت سحببات بيضاء الطائر عن عينيه . تراءى له منظر الملاحات فى البكور ، وطيور البشاروش خارجة وسط الضباب ، وقد علقت بأجنحة بعضها ذرات الملح الحمراء ، كأنها طيور النار ، خرجت لتوها من الجحيم ، وعلقت بأجنحة بعض آخر ذرات الملح البيضاء ، كأنها بعثت من عدم البحيرات الملحية ، حيث لا تجرؤ طيور أخرى على الاقتراب منها . هل لهذا احتفى بها أسلافنا ، وطالعتها على آثارهم . لماذا أوقفت وزارة التربية والتعليم رحلات طلبة الثانوية العامة إلى الأقصر وأسوان .

لمح الطائر يحوم فى الأفق ، كأنما يروم اختراقه ، وبانت السماء زرقاء صافية .



خرج أفراد الرحلة من الحصن ، وسألت تلميذة :

- هل الساتر الرملي رمل .. ؟!

ضحك الأولاد وصخبوا .

هدأهم صفوت بيديه ، راجيًا ألا يسخروا من زميلتهم ، وقال :

- لا .. ليس رملا . قاعدة خرسانية ، فوقها قضبان سكة حديدية ،

عليها عربات قطر ، ملأوها بالدبش والتراب ، وفوقها طبقة من الرمال أو

الطفلة ، روى أن تكون هشة ، حتى يصعب تسلقها . وارتفاع الساتر ، يزيد

على خمسة عشر متراً ، وعليه تجهيزات ، تسمح بصعود الدبابات ، والسد

محاط بأسلاك شائكة مكهربة .

وسأل أحد التلاميذ :

- كم حصناً في خط بارليف .. ؟

رد صفوت :

- خمسة وعشرون حصناً ، أو قلعة . كل حصن يتكون من ملجأين ،

كل ملجأ عبارة عن عربة سكة حديدية ، مدفونة في الأرض ، وعليها أكوام

من الرمال يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين متراً ، وحول الحصن بشت

الألغام . وفي الداخل قاعة للسينما وأخرى للتلفزيون ، وبالحصن ثلاجة ،

وحمامات مياه باردة وساخنة .

ذات ليلة فاجأهم قائد السرية ، وأخذ من كل فصيلة فرداً ، وأمام باب

أحد الملاجئ ، نزلوا عدة درجات . دفع القائد الباب وصاح :

- انزلوا .

إزاء الظلام والرهبة ، ترددوا . قال :

- خائفون .. !

تخطى الباب ، وسلط كشافاً فى أرجاء الملجأ . وقفوا مصعوقين .
رقاب حزنهم سكاكين ، أو سناكى بنادق . بطون مبقورة بطلقات الرصاص .
خيوط دماء متجلطة على الأجساد وعلى الأرض . عيون تحجرت على
نظرات فزعة .

تسلل القائد بإحدى يديه ، تحت رقبة أحدهم ، ورفع سلسلة ، بها
قطعة معدنية بيضارية ، قربها من كشافه ، وقال :

- مصريون .

مشى بضع خطوات ، وفتح باباً جانبياً ، وسلط كشافه . معلبات كثيرة ،
لحوم ، مريات ، فول مدمس ، علب بسكوت .

- حملوا

ترددت خطواتهم .. يستوعبون ما حدث .. فى أحيان قليلة ، بعد أن
يسقط الحصن فى أيدي قواتنا ، يسترده الإسرائيليون .

- هيا .

أطاعوا ببطء ، فتعينهم نفذ تقريباً ، وأثناء الخروج تحاشوا النظر ، أو
الملامسة . وفى السرية أمرهم القائد أن يستعدوا الجولة ثانية . شبح الجنود
لأول مرة ، من مدة ، أما من ذهبوا مع القائد ، فكانت أنفسهم مصدودة .
اقرب القائد ، من صفوت ، أقدمهم رتبة ، وقال :

- لا تكن أحمق .. ألا تود العودة لزوجتك .

- لم أتزوج .

- لخطيبتك .

- لم أخطب .

- لأهلك .

دمعت عيناه .

- كل .. حتى يأكل زملاؤك .

تطلع صفوت إلى الأولاد والبنات ، لا يكفون عن الأسئلة ، وخشى أن يتأخر عن مواعده مع حمدية ، وإن شابه الفتور . ماذا عساه يقول لها . وجد وظيفة معاون في روضة أطفال . وعندما ألمحوا أنه لا بد أن ينتظر بعد انصراف العاملين ، لأن بعض الآباء يتأخرون عن موعد أطفالهم ، أدرك أنه في الحقيقة مساعد فراش . يكاد يسمع صوت حمدية : اقبل حتى يأتي الأحسن . بعض الأولاد خرجوا من أحد ممرات الحصن ، وبأيديهم أحذية قديمة ، وبعض الملابس المتهرئة ، والتساؤل في عيونهم . تفحص صفوت ما يحملون ، طمس الزمن والإهمال معالمها ، ولم يستطع أن يقطع هل هي لنا أم للإسرائيليين .

وكل ما رآه الحلفاء المنتصرون في معسكر « أوشفيتز » النازي ، أحذية ونظارات وملابس مهملة ، ممكن أن تكون لأي ناس ، لكن أمريكا المنتصرة في الحرب العالمية الثانية ، أجبرت ألمانيا المهزومة ، على دفع تعويضات لإسرائيل ، بزعم أن هذه الأشياء تخص يهودًا ، تم إعدامهم في غرف الغاز ، وقد اعترفت حكومة بولندا فيما بعد ، أن هذه الغرف التي يشاهدها السياح ، بنيت عام 48 بعد انتهاء الحرب بعدة سنوات ، كما دفعت ألمانيا تعويضات لإسرائيل ، عن أعمال السخرة التي فرضها النازيون على يهود أوروبا ، مع أنهم ليسوا مواطنين إسرائيليين ، وكيف يكونون وإسرائيل لم يكن لها وجود وقتها .

واستطاعت إسرائيل بهذه الأموال ، البناء في فلسطين .. مدت خطوط السكك الحديدية ، وسفلتت انشوارع ، وأنشأت المدن والمطارات والموانئ ، وأكملت ما بدأه الفلاحون المصريون في الحرب العالمية الأولى .

كان البريطانيون، الذين يحتلون مصر، يهجمون ليلًا على القرى، ويأخذون الفلاحين، وفي النهار يخطفونهم من الأسواق والشرائع ويقيدون كل خمسين فلاحًا من أقدامهم في حبل طويل، يسيرون في طابور إذا وقف أحد تعطلوا جميعًا، وإذا سقط أحد سقط الباقون. ويقتادونهم إلى مراكز الشرطة، حيث ينتظرهم ضابط بريطاني، يشحنهم في القطار إلى سيناء وفلسطين، لرصف الطرق ومد خطوط السكك الحديدية وأعمال الحفر، ونقل ذخائر ومعدات الجيش البريطاني بالجمال. وكان البريطانيون يجبرون الفلاحين الأميين والعمال على ختم طلب بالتطوع، ومن يرفض، يضرب ويجلد حتى يفعل. وفي بعض المراكز كان يقيم صانع اختام على الباب، ليصنع ختمًا لمن لا ختم له. ومات الآلاف من أصل مليون وسبعين ألف رجل، تم تسخيرهم للعمل في سيناء وفلسطين، والعراق وخلف خطوط القتال في الجبهة الغربية في فرنسا وفي جزيرة «موردروس» بالبحر المتوسط، برصاص وقنابل الألمان والأتراك، ومن الجوع والمرض، حيث كانوا يتركون عرايا، دون ملابس أو خيام، فقط ما يستر عوراتهم ولم يتقاض الفرد في أغلب الأحيان أي أجر، وإذا أعطوه، لم يكن يزيد على سبعة فروش في اليوم في أحسن الأحوال.

كانوا مستجدين، وعُينوا حرسًا على البوابة، وقال القدامى:

- أية عربة تمر من البوابة، بها رتب عالية، لابد أن تعظموا

مرت عربة، ضربوا سلام سلاح، دون أن يجرف أحدهم على النظر، والتحقق ممن بداخلها. وعلى مقربة، كان القدامى يمسكون بطونهم، وهم يلتوون من كثرة الضحك. وصاح أحدهم:

- عربة زباله يا بهائم.

سأل أحد التلاميذ، عن مواسير النابالم.

ضحك صفوت، وقال:

- مواسير النابالم .

اقترح أحدهم ، أن تعبر وحدة صاعقة ، وتقطع المواسير الموصلة إلى القناة ، من خزانات النابالم على الضفة الشرقية ، حتى لا تشتعل فور وقوع الحرب ، وتحيل سطح القناة إلى جحيم . ولكن هذه العملية ، قد تُكشَف ، ويمكنهم إصلاحها بسهولة .

اتفق على مد فوهات المواسير في الماء ، بالأسمنت . لكن الأسمنت سريع الشك لم يكن متوافراً في مصر ، فاستوردوا كمية بسرعة من أوروبا . وبقي مشكل .. الأسمنت في حاجة إلى شبكة حديدية ، حتى يتماسك . لو تصرفوا مثلما يفعل البناؤون في الخرسانة المسلحة في إقامة البيوت ، سيستغرق ذلك وقتاً ، وهم يريدون العمل والانهاء عشية الحرب ، دون أن يشعر بهم أحد .

وجاءت الفكرة من أحد الجنود . البقالون في الريف يعلقون على حيطان محالهم سلالاً منسوجة من الأسلاك ، يحفظون فيها البيض ، المعروض للبيع . وهذه السلال في حجم فوهات مواسير النابالم .

اقترب وقت العصر . لا يصح تركها تنتظر . عزمه القائمون على الرحلة ، ليستريح معهم في أحد المقاهي ، وشرب شيئاً مرطباً . تعلق بموعده في المنصورة ، فأخبروه أنهم يستطيعون توصيله في طريقهم إلى دمياط . استأذن ليغير ملابسه . وفي البيت تناول لقمة كيما اتفق ، وتناول بنظرونًا وقميصًا مكويين . استعرض ثنية البنطلون ، وكان يفضلها حادة كالسيف . لحظته صغية وقالت :

- إلى أين العزم .

رد مداعباً :

- عندي فرح

- من إن شاء الله

إمعاناً في المداعبة :

- حمدي .

سهمت برهة ، وقالت :

- يادملك .

تطلع إلى ساعته . لا وقت ليخلق ذقنه ، وقد تفوته عربة الرحلة ،
ويتأخر أكثر ، فتغضب حمدي ، وتفقد روحها المرحية .

كانا يسيران غداة الحرب في حي الأربعين بالسويس . وأنقاض البيوت
في كل مكان .

قالت حمدي :

- الفقراء دائماً قارفتنا ، يضرب زلزال بيوتهم فتقع ، تقوم حرب ،
بيوتهم تقع ، لماذا لا يسكنون عمارات حديثة .

نصعب وقال :

- ليس لهم حق

طالعتما بعض العمارات ، وقد أحدثت الطلقات ، والدانات ، بعض
الثوب في الحيطان ، والشرفات ، لكنها متماسكة ، بخرسانتها المسلحة .
وتساءل صفوت : هل طمع الإسرائيليون في الاستيلاء على الإسماعيلية
، أو السويس ، لإحداث فرقة إعلامية ، تغطي على ما أحدثه تحطيم مصر
لخط بارليف واستيلائها عليه ، من أثر في العالم .

وعندما لم يتحقق لهم ذلك ، وانكشف نشرهم صور الأسرى المصريين
عام 67 في صحف أوروبا وأمريكا ، على أنها صور من حرب 73 ،
أشاعوا أنهم حاصروا الجيش الثالث في سيناء . وتذكر ما رواه له صديق
من الصاعقة ، كان ضمن قوات الجيش الثالث غرب القناة . بينما كانت
الطائرات الإسرائيلية نشطة على طريق مصر السويس لقطع الإمدادات ،
عن بعض قوات الجيش الثالث في سيناء وعن مدينة السويس ، جمعهم

قائدهم وطلب نقل كميات من الأدوية والمحاليل الطبية للنقاط المتقدمة في سيناء . تسابقوا للمهمة ، فأجرى الفرعة ، وكانت من نصيب صديقه . وتألفت عيناه بالبريق وهو يخبره ، أنها أعظم رحلة في حياته . شعر بقيمة المتعة ، حين اعتلت سيارته المعبر فوق القناة . فصف الطائرات لا ينقطع ، ودوي المدافع حوله ، والماء تحته ، والسما فوقه ، وسيارته ، تكاد تطير ..

وسحبت إسرائيل قواتها من الغرب ، بعد وقف إطلاق النار ، دون أن تطلب مصر ، ودون أن تنص على ذلك ، اتفاقية الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، فقيم كان عبورهم إلى غرب القناة .. ؟! . خطا صفوت ليعبر الشارع . وهو يلحظ بعينه نيتي البنتلون ، يتأكد من استقامتهما . مرت أمامه عربة مسرعة ، أحدثت عجالاتها طرطشة من ماء في مطب . وقف متضايقاً .. رغم علمه ، أن هذه الطرطشة ، لن تلبث أن تجف ، وأن أية حبات من الطين قد تعلق بينظلوله ، يمكن فركها ، بعد قليل ، بسهولة .



حين تلقي صفوت مكالمة حمدية التليفونية ، للقاء حمدي ، أشفق على نفسه ، لا يريد أن يسمع سخافات .

ايشي ايشي ضرب البلد ومشى .

رد عليه ، كما النكتة ، بهتاف أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي (التنظيم السياسي الوحيد وقتها) :

- ناصر .. ناصر .

أجابه بلهجة السادات الممطوطة :

- الله يرحمه .

وضحك متهمًا إياه أن به عرقًا ناصريًا ، فرد عليه وأنت بك عرق ساداتي ، وأراد إغاضته :

رفع السادات رأسه من التعش ، وسأل وزير الداخلية :

- كم عدد الحضور في الجنازة .

- 99.9.850 (إشارة إلى نسبة الأصوات ، التي يعلنها وزير الداخلية ،

في كل مرة ، على استفتاء رئاسة الجمهورية أن الرئيس حصل عليها) .

- ادفن .

دخلوا نقطة في خط بارليف ، وجدوا بعض القتلى ، بينهم صبي صغير ، حاروا في أمره . قال أحدهم لعله طالب في مدرسة ، وكان في رحلة لمشاهدة خط بارليف .

- وهل يأتي وحده :

- ادفن

لم يرد أبداً للأمور أن تصل بينهما إلى هذا الحد ، لكنها دائماً تفلت منه . هل يذهب للقائه والسلام .

أخبرته حمدي أن زميلاً قديماً له في الرقازيق ، عنده ورشة للحام بالأكسجين ، ونظراً لكبر سنه يريد من يطمئن إليه ، ويحل محله إذا غاب .

على قدر ما انبسط ، على قدر ما امتعض . لم يكن يريد أن تأتي من جهته . الرجل أتعب نفسه ، وحادث شقيقته ، ودبر لك موعداً ، فلماذا لا تكسبه في صفك ؟

علموا أن الإسرائيليين ، ينون مطاراً وقاعدة عسكرية بالقرب من شرم الشيخ . لابد من الاستطلاع . أقلمت طائرتان والشمس في عيون الإسرائيليين ، بين العصر والمغرب ، وحين عادتا ، كانت الشمس قد تحركت وأصبحت في عيونهم أيضاً .

لم يستقر على قرار ، فنهض وشغل التلفزيون . كانت الراقصة المصرية نعيمة عاكف ترقص في مهرجان لرقصات الشعوب في موسكو ، وفي خلفيتها جدارية فرعونية ، حيث راقصة تتمايل على إيقاع من يصفقون على الواحدة ، ولفت انتباهه رشاقة نعيمة ، التي لم يلحظها من قبل في أفلامها .. وكأنها ترقص على إيقاع المصنفين .

كانوا يشاهدون فيلماً عربياً ، ودخل حمدي ، حين كانت راقصة تنهذى كمهرة تتعاجب بنفسها . جلس دون كلمة ، وعيناه لا ترمشان . وعندما أدرك أن صفوت لحظه ، هرب بعينيه وتوه في الكلام . عجب صفوت من التوافق بين الراقصتين .. هل هي براعة من المصور ، أم من المخرج .. أم هي رهافة نعيمة عاكف ؟

كان لابد أن يتم الكوبري في الوقت نفسه الذي يتم فيه إنشاء فتحة في
السد الترابي في الغرب الذي يستر قواتنا . لو تمت الفتحة قبل الكوبري،
قد يعبر منها الإسرائيليون ، لو الكوبري تم قبل الفتحة ، قد يقصفه
الإسرائيليون ، ومن الممكن أن يعبروا فوقه .

إذا لم يذهب للقائه ، سيفتح على نفسه فتحة ، لن يستطيع سدها بأي
عذر ، ولن يسلم من لسان حمدي .

وكان لابد ألا يعرف العدو أين الفتحات الرئيسية ، وإلا عرف أين
منضع الكباري . عملوا متى فتحة تقريباً ، وسدوها بشكائر من الرمال .
وحضر أهالي بليس للمساعدة . وكانوا يحضرون الكباري من القاهرة
إلى الجبهة ، ثم يعودون بها ثانية ، وهكذا دواليك ليموهوا على عدو معه
مخابرات الدول الغربية ، بأقمارها الصناعية واستطلاعها الإلكتروني . فقد
سبق للصهاينة خدمتهم . خدموا المخابرات الألمانية في الحرب العالمية
الأولى ، وعندما لاحت الهزيمة ، نقلوا أسرارها إلى بريطانيا ، وحصلوا
على وعد من الوزير بلفور بتمكينهم من فلسطين . وحين استقلت مصر
والعراق ، وبدأ نفوذ بريطانيا ، يضعف في المنطقة ، نقلوا ولاءهم إلى
أمريكا ، التي كانت شركاتها تنقب عن النفط في الأراضي العربية .
قال حمدي :

- تسرع العرب في ضخ النفط ، وإسرائيل ما زالت جاسمة في
المرتفعات السورية (الجولان) والضفة الغربية ولم تعد بشيء ، بينما
كان الناس في أوروبا وأمريكا واليابان يرتعشون من احتمال استمرار وقف
الضخ والشتاء على الأبواب .. وكثير من مصانعهم مهدد بالتوقف .
قال عبد السلام فاروق ، وكان حاضرا :

- فعلها كيسنجر ، وضحك على العرب .. ضحك حمدي وقال :
- الأغرب أن الأمريكيين صرحوا أنهم في طريقهم لإيجاد بدائل للنفط . واسترسل في الضحك بتؤدة .. وقال :
- هل سيستخرجون من الطاقة الشمسية ، أو من طواحين الهواء أليافاً لمصانع النسيج ، وعشرات المواد الكيماوية ، و مواد لصناعة المنظفات ، والقار ، ووقوداً لتطير الطائرات ، ولتسير العربات .
- غمز عبد السلام فاروق بإحدى عينه وقال :
- وماذا عن السادات .. ألم يتسرع ..
- نظرا إليه مستطعين ، فاستمر :
- تعجل في فك حصار باب المندب ..
- استرد حمدي نفسه ، وقال :
- آه .. عندك حق .. كان البحر الأحمر قد أصبح بحيرة عربية ..
- ومراكب إسرائيل ، محملة بالبضائع في المحيط . عاجزة عن الوصول إلى إيلات .
- عقب عبد السلام فاروق ، ضاحكاً :
- قصدك قرية أم الرشراش ..
- تطلعت العيون في تساؤل ، فاستمر :
- حتى بعد حرب 48 .
- حار صفوت في أمر حمدي .. ساعة ساداتي .. وساعة لا يعرف له ملة .
- كانوا يجلسون ساعتها في نادي الضباط بالإسماعيلية . فجأة هل عليهم شاب في منتصف العمر . رحب به عبد السلام فاروق مبالغاً ، وهو يقول :
- أقدم لكما كلم السادات .. ا

وبيتما يتقدم نحوهم ، فوق النجيلة ، حذره عبد السلام من الجنائني ،
لكن هذا لم يعبأ ، وأولاه ظهره ، فأنفع الماء من الباشبوري ، الذي كان
يعدله ، فوجد نفسه فجأة ، غارقاً بالماء ، وعلا صخبهم ضاحكين .

أخبر صفوت زميله في الصاعقة ، أنهم فوجئوا بثلاثة جنود يعبرون
معهم . كل منهم فوق « طرف » أسفله مضخة ، ومثبت بها ماسورة في
نهايتها باشبوري . وفي الضفة الشرقية ، سدّوا خراطيم من المياه القوية ،
أسفل السد الرملی فانهار كالخلاوة الطحينية ، كان أحد الضباط مهندساً
في السد العالي ، وتخلّفت عن العمل أكوام من الرمال والحجارة ، فوجد
أن أسهل وأسرع وسيلة لإزاحتها من الموقع ، استخدام الماء .

ولم تكد الفتحة تتم ، حتى توالى موجات من الجنود . ورغم رصاص
مدافع مزغل الحصون المنهمر كالمطر ، وقذائف الدبابات ، وقنابل الطائرات ،
استمر التدفق . وقطب الزميل جبينه واكتسبت عيناه حدة : كان لازم لرد شرفنا
بعدها حدث في 67 أن يعطيني العسكري الإسرائيلي ظهره ..
- أنت موعود .

قالها عبد السلام وهو يفسح لصديقه مكاناً ، ويهون عليه ، أن الهواء
لن يلبث أن يجفّف ملابسه ، واستطرد :
- رائد ناجي خضر ..

عقب حمدي :

- وكليم السادات ..

عادوا الضحك وألحّ أحدهم إلى تصريح بيريز زعيم حزب العمل
الإسرائيلي الذي سخر فيه من النبی موسی ، كليم الله ، « ما أعطي فرصة
للمعارضة الإسرائيلية لمهاجمته .

قال عبد السلام فاروق :

- ألسنا أولى بالدفاع عن النبي موسى .. على الأقل مصري ، ولد وتربي هنا .

سأل ناجي خضر :

- وماذا يبقى لليهود .. ؟!

قال حمدي :

- وهل تظن أن يهود إسرائيل ، أحفاد يهود النبي موسى .. هؤلاء ، أولاد ناس من إمارة الخرز الروسية ، اعتنق أميرهم اليهودية في القرن الماضي وتبعته رعيته .

قال عبد السلام مؤكداً :

- جاءكم كلامي .. نحن أولى بالدفاع عن موسى .

قال حمدي :

- على أية حال .. دعنا من هذا الآن .. خَلِّينا في كلِّيم السادات .

قال ناجي خضر :

- كنت أقود فصيلة مشاة في الغرب ، بالقرب في منطقة البحيرات ، وإذا بالتليفون يرن ، والمنحدر الرئيس السادات . طبعاً ارتبكت ، وأخبرته عن وضع المتسللين في الشجرة ، كيفما تبادر إلى ذهني وقتها . أعطاني تعليمات بكيفية مقاومتهم ، نفذتها على الفور ، واتصلت لأبلغ قائد المنطقة ، فوجدت الأمر صدر بنقله . وآخر من القاهرة على وصول . قلت في نفسي .. حتى يعرف القائد الجديد وضع القوات على الطبيعة يلزمه يومان على الأقل ، تكون قد حدثت فيهما أمور ، خاصة والوضع يتطور من دقيقة إلى أخرى . وتصرف كل منا على عهده .. وحين حضر

القائد الجديد ، كانت الأوضاع قد تغيرت ولم يستوعب الموقف ، فنقلوه ، وأصبحنا في انتظار آخر ، ونحن نعجب ، لماذا لا يعينون قائدا من هيئة العمليات عندنا ، على الأقل أصابعه في الصورة .
أحس صفوت بصداع شديد ، وأن رأسه ستفجر ، فانتبه إلى أن التليفزيون شغال فقام وأغلقه . اقترب موعده مع حمدي ، ولم يزل متردداً ..

لماذا يساعده الآن .. هل أدرك أن شقيقته متعلقة به ، ومن الصعب إبعادها عنه ، أم أنه لا يربط بين مساعدته ، ورغبته في الارتباط بحمدية .. هل هذا ممكن .. ربما بالنسبة لغريب .. أم هو .. لا يعتقد .. أم تراه يود مساعدة صديقه الزقازيقي؟

ارتدى ملابسه في تكاسل .. وغادر بيته في العرايشية ، يسير على مهل .. ليصل في موعد تحرك الباص إلى الزقازيق بالضبط ، حتى لا يضطر إلى الحديث معه .. دائماً رده حاضر .. عندما أبدى له مرة ، ملاحظة ، على استحياء بهذا الشأن ، هز كتفيه وقال :

- أبداً .. كثير من هذه المعلومات موجودة في الجرائد اليومية .
ابتاع جريدة ، يشغل نفسه بها في الباص ، فلا يضطر إلى الالتفات إليه . تعدي المحطة حيث الموعود ، وسار حتى عمارة ذات بواك ، أسفلها مقهى ، ليشرب فنجاناً من القهوة ، وطالعه على الحيطان ، صور لرضا لاعب النادي الإسماعيلي الشهير ، وضحك من عبارة تحت إحدى الصور : شهيد الكرة المصرية .

سأل عبد السلام فاروق ذات مرة :
-حقاً .. لماذا هذه الشعبية للاعب كرة القدم ..

ولم يكن الرد جاهزاً هذه المرة ، ذوي حمدي ما بين حاجبيه ، وقال
بتؤدة :

- يبدو لي .. والله أعلم .. لأن أغلب لاعبيها تربوا في الحارات
الشعبية .. حيث اللعب والشقاوة والترقيص بالكرة .. وحيث تصقل
مهارات الموهوب منهم .. وفجأة يجد اللاعب نفسه في التلفزيون
وصوره في الجرائد .. ويخطب وده أصحاب الحظوة والمال .. وعندما
يوجد أحد الفقراء في الضوء .. فكأنه يرد الاعتبار لأهله من الفقراء ،
فكيف لا تتحمس له الأحياء الشعبية .

ابتسم عبد السلام فاروق ، وقال :

- تحليل ماركسي ، لا يخر الماء .. !

ضحك حمدي وقال :

- أنتم تظلمون الماركسية .. ليست أكثر من منهج في التفكير ، أو
طريقة في النظر إلى الأمور .

بغثة ، بتنمر ، قال عبد السلام فاروق :

- وأين كان هذا المنهج يوم إعفاء الخبراء الروس .. ؟!

انتبه حمدي كمن فوجئ .. تريث وهو يشمل بعينه ، وقال :

- نعم .. كانت الإشارة واضحة .. لكننا لم نفهمها .. ففي الوقت الذي
كان السادات يريد لها معركة مصرية مئة في المئة .. اعتقدنا أنه يخرجه
الخبراء الروس من مصر ، يتخلى عن المعركة .

اعتدل عبد السلام في جلسته ، ووشي ألق عينيه ، أنه انتزع منه شيئاً ،

بينما استطرده حمدي :

- لم نكن وحدنا ..

- لا تتمحك في الناس .

ضحك حمدي وقال :

- هل نسيت النكتة الشهيرة .. ركب السادات الباص وسأل عن اتجاهه ،
وحين أخبروه : التحرير ، قفز مسرعاً وهو يقول إنه ذاهب إلى العتبة .
أكمل عبد السلام :

- ميدان العتبة .. ولم يقل العتبة البيضاء ، (عتبة البيت الأبيض في
واشنطن) كما أشعتم .

- وهل خاب حدسنا ..؟! ..

صمت عبد السلام ، فاستطرد حمدي :

- فعل هذا وكيسنجر يلهث بين السعودية والأردن .. خوفاً من فتح
الجبهة الأردنية، التي كانت تعني نهاية إسرائيل .. وكانت القوات السعودية
قد دخلت الأردن بالفعل والقوات العراقية في طريقها من الأردن للمحدود
السورية ..

وعلى فكرة نحن لم نعترض على خروج الخبراء ، ولكن على طريقة
إخراجهم ، التي بدت مهينة ، دون كلمة شكر .

وتذكر صفوت ما حدث في الجبهة في أواخر حرب الاستنزاف ، حين
زحف حائط الصواريخ .. ففي نهاية اليوم الثامن من الزحف ، دخلت
طائرات «الشبح» الإسرائيلية المعركة ، وأجهزة التشويش ، وفقدت
قوات الدفاع الجوي ربع رجالها تقريباً .. أسرعت القوات الروسية من
مشارف القاهرة وسدت بعض الثغرات ، حتى رجعت المبادرة إلى أيدي
قواتنا .

وسال ناجي خضر :

- وهل فهمت أمريكا بجلال قدرها .. ؟!

ضحك حمدي بطريقة صاخبة ، وهو يخطط المنضدة بيديه ، وهم يطلبون منه أن يهدي اللعب . قال من بين مهماته :

- بدل أن يتفهموا مغزى إنهاء مهمة الخبراء الروس ، طلع علينا كيسنجر ، وكان وقتها مستشاراً للأمن القومي ، بالإضافة إلى وزارة الخارجية ، مصرحاً :

لو كان السادات طلب ثمناً لإخراجهم لأعطيناه . وبدا سعيداً ، معتبراً أمريكا كسبت نقطة مجاناً في سباق النفوذ في منطقة الشرق الأوسط . . . وليس السادات مسوح الأخلاقيين ، ورد أنه تصرف من وحي مبادئه ، دون النظر إلى ثمن أو خلافه .

شرب صفوت قهوته ، ونهض في طريقه إلى محطة الباص . . . لاح في ذهنه مارده عبد السلام فاروق ، يوماً نقلاً عن اللواء جورج ، أنه لولا قاعدة برتغالية في جزر الأزور ، في آخر لحظة ، سمحت لطائرات أمريكا ، بالتزود بالوقود ، ما أمكن نجدة إسرائيل ، حيث كانت الطائرات تهبط مباشرة في مطار العريش ، على بعد قليل من الجبهة ، لتزودهم بالدبابات والعتاد الحربي . وتعليق حمدي ، مرة ، أنه يعتبر كسبنا لمعركة 73 ، تجربة (بروفة) لكسب الحرب وعودة فلسطين عربية . قالها بثقة أغاظت صفوت ، وتساءل :

من أين له هذا اليقين .. ؟!



حار سعد، كيف يسلك..؟!

خال ندا يود عقد القران فى العريش، وندا تود أن يتم ذلك فى قريتها بالوظة، إكرامًا لأهلها، ولأمها، التى لن تستطيع الحضور، لو عقدوا فى العريش. أسر بالموضوع إلى الباشمهندس حمدي، واقتراح أن يعقد فى العريش، وزف فى بالوظة:

ضحك حمدي، وقال:

- فرعون حضرتك.. تزف عبر سيناء..!

- حاولت إقناع الخال، للانتقال إلى بالوظة فرفض.

قال حمدي:

- الخال معذور.

أصبح تقليدًا، عقد القران، فى مسجد العباسي بسوق الخميس منذ الاحتلال الإسرائيلي. فحين تصدع الجامع، أعاد الأهالي بناء، ضد رغبة الإسرائيليين الذين كانوا يخشون من تجمع الناس فيه، وجعلوا.. كل زيجاتهم تتم فيه.

وكان الأهالي يسارعون، بتزويج من يبلغ مبلغ الشباب، خشية تعرضهم للغواية، فقد انتشرت أفلام الجنس، وانتشر الفيديو، ووصل إرسال التلفزيون الإسرائيلي إلى العريش، وكان ييثر فيلمًا جنسيًا ليلة الجمعة من كل أسبوع. أما البنات، فقد فرض عليهن الأهل الملابس السوداء التى تغطي البنت من أساسها إلى رأسها، حتى لا تتعرض لأية معاكسة من جنود الاحتلال.

سان سعد:

- ماذا أفعل لأرضي الطرفين .. ؟

تفكر حمدي برهة، وقال:

- وماذا عن ندا .. ؟

- اقترحت أن نقيم حفلاً للعرس في القرية، ونوزع «الشربات»، ولا

تتم الدخلة، وفي اليوم التالي، نحضر إلى العرش، ونعقد القران في المسجد العباسي، ومن استطاع من أهلها فليحضر.

- خير ما اقترحت ..

فل سعد على تقطية وجهه. قال حمدي:

- ماذا أيضاً ..

تردد سعد، وهذا يستوضحه، حتى انطلق البخار المحبوس، فدفع الغطاء، وانهاأت الكلمات:

- لا أريدها أن تعمل .. !

نظر إليه حمدي دهشاً، فاستمر:

- ألم تر كيف نظر لها مفتش الزراعة .. ؟!

- هل أكلها .. ؟

خفت درجة حرارة البخار، وقل اندفاعه:

- أنت يا باشمهندس ..

- هذه تعمل .. ومعرضة للحديث مع هذا ونظرات ذاك.

- ألم تلاحظ نظراته ... ؟

أخذ حمدي كفه اليسري في يمينه، وقال:

- لنفرض أنها لا تعمل .. ألا تسير في الشارع .. كيف ستمنع نظرات

الناس عنها ..

أطرق سعد، ولم يشأ أن يخبره بما دار بينهما، حين طلب منها ترك

العمل بعد الزواج، فنظرت إليه من فوق لتحت وقالت وهي تشهق: أهود

وفى معرض الحديث قالت: كنت أحس بالسأم. أنظر إلى القضاء حولي، أتنشق على قطرة ماء، أو قطعة أرض بها عشب. ساعات طوال أفقد فيها روحي، ولا أحس بنفسي، إلا بعد عودتي، والحديث مع أمي وأخي.

قال متحليًا بالصبر: يا بنت الحلال.. إذا لم أكفك مؤنتك لك الكلام.

قالت ليست الحكاية، مؤنا..

غرزت الجرافة. فرش حصيرًا لا يقل طوله عن اثني عشر مترًا. سارت الجرافة، واختلط عرقه بالرمل. مهدوا الطرق من مواقع الكتاب، إلى شاطئ القناة، من عشرين إلى أربعة وعشرين كيلو مترًا تقريبًا. ولم يشعر بالراحة إلا بعد انتهاء هذه المحاور، وعندما رأى الدبابات والعربات تسير عليها، زال تعبها.

فجأة جاءه أمر:

- خذ عربة وأحضر التعيين.

ربت بيديه على حديد «الجرافة»، وأحس بظهره ينقصف.

وثب قلبه وهو يمشي بها فوق المعبر، ولم يكن الجنود مصدقين، أنه يستطيع العبور إلى سيناء، استعبدل بالعجلتين الأماميتين، وجعلهما في الوسط، وجعل العجلات الأربعة في الخلف، تحف بالكاد، بجانب المعبر، ورفع سكين تسوية الأرض بميل خاص، خشية أن تصطدم بالمعبر، فيسبب مشكلًا لمن يعبر بعده.

ذهب إلى منطقة وعرة مطلوب تسويتها، أنزل المحراث في الأمام، بأسنانه الخمسة، وشرع في العمل.

سأل حمدي، إذا كان أحضر قش الأرز عندما كان في المنصورة، فأوماً بالإيجاب، عندئذ طلب من ندا وبعض العاملات، أن يضعنه حول

الشجيرات.

ابنسم سعد.. كان حمدي متوجساً بالأمس من ريح محملة بسف الرمل، وتساءل في استنكاره، إذا كانت رياح الخماسين أتت قبل الأوان، مشفقاً أن تقتلع الشجيرات التي زرعت مؤخراً.
وإزاء باله المشغول، لم يستطع أن يذكره بوعده بمكافأة إذا أحضر المطلوب.

خف قصف السويس، وبالقرب من الكيلو 101 وجد زميلين قديمين.
ما أن رأياه حتى انفجرا ضاحكين، وهما يشيران إلى قدميه.
خمن ما يدور في ذهنهما. من سائق دبابة في انتظار استعاضتها،
عندما عطبت، إلى سائق جرافة، عند الحاجة، إلى سائق عربة جيب،
لتلبية أي طلب، إلى سائر على قدميه. أشار إليهما، ليستأنفا المسير
معه إلى سيناء. طلبا منه أن يجلس معهما قليلاً، حتى يصطادوا عربة.
قال سعد فجأة:

- لماذا لم تركبا الباص. رد أحدهما:

- قال الله ولا فالك.

كان الإسرائيليون قد اصطادوا باصاً، أجلسوا فيه نفرين معهما بطاقتا
هوية مصريتين، أفلتا من الشرطة العسكرية، وأذاعا في مكبر للصوت
بالعربية في مدخل مدينة السويس.

- الجنود الذين يودون المغادرة، عليهم اللحاق بالباص.

ركب بعض الجنود، أخذوهم أسري.

استراحوا قليلاً.. وإذا بطائرات تناور.. تعلق وتنخفض.. وقذائف
تنطلق.. والطائرات تتفادها.. لبست قذيفة في طائرة، وتساعد دخان،
وقفز اثنان بالمظلة. جروا ليشاهدوا الطيارين.. ولأن الرؤية واضحة..
ظنوهما في مكان قريب.. جروا مدة طويلة.. وكلما ظنوا أنهم وصلوا..
عاودوا الجري.. كانوا يريدون مشاهدة عملية الأسر.. وفكرة تدور في

أذهانهم.. ربما لم يصل أحد قبلهم فيقومون بالأسر، ويحوزون شهرة، وربما مكافأة.

فوجئوا بجنود كثيرين، من وحدات مختلفة. لمست المظلتان الأرض. نظر سعد لزميليه وضحكوا. مظلتان مصريتان. أصيب الطياران ببعض رضوض وجروح. وسرعان ما اقتحمت سرية طبية المكان، وحملت المصابين. وحتى لا يخرجوا من المولد بلا حمص، أخذ كل منهم قطعة من حنجر المظلة كتذكّار، ولكم أدهشت سعد نعومتها الفاتكة.

تطلع سعد إلى ندا المنهمكة في العمل، يود انتهاز فرصة، ليومئ لها، ويخبرها أنه سيمر عليها عند خالها، بعد انتهاء العمل. لكنها لا تنظر ناحيته... طبعاً شائلة منه.. وظلت على عنادها حتى غادرها بالأسر.. كانت تضع حزاماً حول وسطها.. حاول مداعبتها، حتى يصرف عنها. مد يده ليجعلها تخلع الحزام، وكأنه يمد يده في حقل الغام، وكان الخال على وصول.

كانت غبشة آخر الليل في سبّاء، وسرية تزرع حقل الغام، وسعد يقف على مقربة من عربته، التي أقلتهم. شعاع خافت لاح كومضة خاطفة. تسمروا في أماكنهم، والتساؤل في عيونهم: هل هو أشعة تحت الحمراء. ارتجفت أجسادهم. لو حدد الإسرائيليون مكانهم، طلقة واحدة تفجر الموقع كله.

لم يشأ الإلحاح أكثر من ذلك. وهذه لدهشته خلعت الحزام، كان أحمر عريضاً. وبانت سفرة الصدر حمراء، بخطوط مستطيلة من زهرة الفل صفراء وسماوية. اقترب منها. تعبيرات وجهها جامدة. نهض متعشراً في خطواته، كأن بنظريته انزلت عنه.

بدا الأسير مذعوراً، مهذل الثياب، وقد انحسر بنظريته عن وسطه، يمسكه بإحدى يديه، حافياً، ذقنه نابته.

ظل صامتاً، رافضاً الإجابة عن أي سؤال. لم يسفر التفتيش الظاهري،

عن شيء يدل على حقيقته. لكن سحته ونظراته، جعلت قائدهم يشك أنه ضابط، وربما ضابط غير عادي. أمر بتفتيش ملابسه الداخلية.. عثروا معه على خريطة، عليها علامات وأسهم، وكلمات بالعبرية. حين انتزعوها منه، تخلي عن هدوئه، وقاوم معرضاً نفسه للقتل، وخطفها وكاد يأكلها، لولا تكاتفهم عليه، وانتزاعها منه.

أمر القائد سعداً بتجهيز عربة، لمهمة عاجلة، وعين اثنين لحراسة خاصة لهذا الأسير، وأمر بإطلاق الرصاص فوراً لو حاول الهرب. وكان بالوحدة أسيران آخران، جهز لهما عربة أخرى.

ونبه القائد، أن تسبق عربة سعد، العربة الأخرى بمسافة، حتى إذا تعرضوا للغارة الجوية، لا يضيع الصيد كله.

فجأة لمعت عينا القائد وهو يتأمل الخريطة ثانية. قال:
- هذا طيار.

أخذها منه رئيس العمليات، وتفحصها. قال:

- مواقع صواريخنا في الضفة الغربية.

في صباح السابع من أكتوبر، نشط الطيران الإسرائيلي. ولأول مرة يرى الجنود طائراتهم تنهاوى بتلك الأعداد الكبيرة. قبل ذلك، حين كانت تسقط طائرة، كانوا يهلمون، ويصيحون: إسرائيلية. وعندما يتعرفون على علاماتها، تغيم الفرحة، وقد رأوها ميج مصرية. الآن لا يرون العلامة بوضوح فقط، بل يرون قائدها أيضاً.

سلموا الأسري في مركز قيادة اللواء، وتكأوا قليلاً، ليعرفوا هويتهم. لكنهم في القيادة أسرعوا بهم إلى الخطوط الخلفية، ونهروهم لعدم إسراعهم في العودة إلى وحدتهم.

وكادوا ينسون الأمر، لولا أن القائد فاجأهم، فوق التبة التي يحتلونها، بإشارة شكر من قيادة الجيش. انضح أن الرجل طيار بالفعل. وأن ما ظنوه خريطة. كان بمثابة تعليمات بقصف مواقع صواريخ مصرية، ومطار

متقدم.

واتضح من استجواب الأسير، أن الأمر جزء من خطة إسرائيلية اسمها «الحزام الأسود» وتعني الاستيلاء على جنوب لبنان، وضم أراض أخرى من سوريا، وإنشاء خط حصين في سهل الأردن، طبعاً كانوا سيسمون خط ديان، أسوة بخط بارليف. والاستيلاء على الضفة الغربية لقناة السويس، وتشغيل القناة لحسابهم وتحويل سيناء إلى مركز للتجارب النووية. وكان توقيت القيام بهذه الضربة هو الثامن من أكتوبر عام 1973.

ضرب القائد كفا بكف، وقال:

- سبفناهم بيومين فقط...!!

تطلع سعد ناحية ندا، ما زالت على غيها.. فليتظاهر بعدم الاهتمام، لعله يجذب نظرها.

لم يلجأ قائد السرية إلى هذا، إلا بعد أن يش من قائد التبة، الرائد عبدالسلام فاروق. أنباء الاستطلاع أن الإسرائيليين ينوون شن هجوم مضاد في أول ضوء. ظهر هذا من احتشاد دباباتهم في الطريق القادمة من وسط سيناء، فهم، رغم فشل هجماتهم المضادة، لم يياسوا بعد. والحل هو الاستيلاء على الطريق المؤدية إلى وسط سيناء، واحتلال تباب أمامية، تمكن مدفعيتنا من إجهاض أي تجمع لشن هجمات مضادة؛ وبهذا يأمنون من الخطر تماماً. قال قائد السرية:

- يا سيادة الرائد.. الخطر أمام أعيننا.. والطريق تقع في قطاعي.

مال سعد على جندي الإشارة وهمس:

- متى ترفى

- بعد فتح القنطرة شرق.

أمهلهم قائد التبة، حتى يستأذن، فليست عنده أوامر. كانت حدود رأس كوبري الجيش مرتبطة بمدى بطاريات الدفاع الجوي غرب القناة. ولم

يسل لعاب القوات المصرية فى أى وقت أن تتقدم بضخ مئات من الأمتار،
لكي تستولي على هياث ذات أهمية مؤقتة، ربما تركها الإسرائيليون،
ليجروا أرجلهم.

زفر قائد السرية، وتمتم:

- رحم الله المقدم،. أكان هذا وقته...

ملمحا إلى استشهاد القائد السابق، عند اقتحامهم مركز قيادة،
أقامه الإسرائيليون خلف التبة، وكان من دورين ومجهز بكل الأسلحة
والمعدات الإلكترونية للاتصال بالنقط الحصينة. والتبة على ارتفاع أكثر
من سبعين متراً عن سطح البحر، وطولها يقرب من ألف وخمسمئة متر
وعرضها حوالي خمسمئة متر، وتبعد عن القناة تسعة كيلو مترات.

واتضح من تعبيرات جندي الإشارة، أن قائد التبة، لم يوفق بعد فى
الاتصال بقيادة اللواء. صرخ قائد السرية:

- يا أفندم التشكيل الإسرائيلي يقترب، أخذوا مواقع هجومية، وواضح
من ترتيب الدبابات أنهم يفكرون فى الصعود إلينا.
- لابد من الترخيص بالضرب.

- نكون الله يرحمنا.

والتفت إليهم ونادي:

- سعد

- أفندم

- استعد بالجرافة

فهم ما يعنيه. يتظاهر بإصلاح الطريق الصاعدة إلى التبة، فيتوهم
الإسرائيليون أنها غير صالحة للاستعمال، فيستديرون إلى الطريق الخلفية،
حيث الدبابات المصرية فى حفرها. وحيث تطولهم مدافع الجانبين.

قاد سعد الجرافة، وخلفه سارت ثلاث دبابات.

وتأكد أن الإسرائيليين شربوها، من ضرب مدافع دباباتهم العشوائى.

خمنوا إصابتهم بالدهشة، وقد رأوا الدبابات المصرية خلفهم، يساندتهم حملة الـ آر - ب - ج، من الجانب الآخر للطريق. وسرعان ما سيطروا على التباب الحاكمة، وصبت المدافع المصرية نيرانها من بعيد. وبات واضحا تعذر اقتراب الإسرائيليين من تبتهم العالية.

وهلل الجنود:

- الله أكبر. الله أكبر..

وقد رأوا الإسرائيليين يقفزون من فتحة البرج في الدبابات، وبعضهم يرفعون أيديهم استسلاما.

وجاء صوت قائد التبة، يُعلم قائد السرية، أن قيادة اللواء على الخط فماذا يقول:

- قل: أمنا الموقع، وتقدمت قواتنا إلى الأمام.

وبينما يتحفظون على الأمر، ويعدون عربة لنقلهم إلى الخلف، ويعينون الحراسة اللازمة، وصلت إشارة من قيادة اللواء، تشكر قائد التبة، على ما قامت به قواته من تأمين لحد اللواء الأيسر. نظر الجنود لبعضهم، وانفجروا ضاحكين.

ضبطها مثلبة بالنظر ناحيته. دارت ابتسامة والتفتت بسرعة.

بعد قليل، اقترب منها، وقد لحظ ابتعادها عن الزملاء والزميلات. تأمل وجهها بين الشجيرات.. وشيئا فشيئا، تخلى عنها حياها واستجابات لابتسامته، يتحفظ قال:

- سأمر بعد المغرب.

أومات بذقنها في تناقل إلى أسفل.

منوا النفس بقضاء، ليلة هادئة. لكن قائد التبة أعاد تنظيم الموقع. أمر بسحب الجرحي من أسفل التبة إلى أعلاها. وعزز المدافع في العالي بمدافع من الوحدة التي يحرسون جانبها الأيسر، حيث لم تتعرض لاشتباك مباشر حتى الآن.

وأمر بالانتباه طوال الليل، مذكراً إياهم، بمقدرة الإسرائيليين على شن هجوم ليلى، وتحديد أهدافهم بدقة، بالأشعة تحت الحمراء. وبالفعل عاود الإسرائيليون القصف، من مدافع بعيدة المدى، جانباً كبيراً من الليل. وبعد أن اتضح لهم، قدرهم، أن يظلوا فوق هذه التبة، إما أحياء يحتلوننها، أو أمواتاً يرحمهم الله، خلت تصرفاتهم من العصبية، وجنحت إلى الهدوء.

وأفاد جندي الإشارة، أنه ولف جهازه اللاسلكى على ترددات الإسرائيليين، والتقط بعض إشاراتهم. سجلها ولم يفهمها. ولما لم يكن معهم عامل شفرة، أمر قائد التبة أن يبرق بها إلى قيادة اللواء. بعدها، عمّ التبة والصحرَاء، سكون مريبص. ومر الضباط وضباط الصف على الجنود فى أماكنهم يطمثنون إلى يقظتهم. وأمر قائد التبة أن يأكلوا، وأن يشربوا من علب العصائر حتى لا يغفوا أحدهم. وحذر ألا ينخدع الجنود بهذا السكون الذي حظ فجأة، فربما يدبرون شيئاً، وزيادة فى الحيلة، دفع بجنديين من الاستطلاع، للنزول من التبة، والتقدم على المحور الأمامي، للتيقن من الأمر. فاجأ سعداً أحدهم، بكوب من الشاي الساخن. وقبل أن يعلق قائد السرية، أسرع صانع الشاي:

- ولا بصيص ضوء.

وأشار إلى حفرة سُدَّت فتحتها بغطاء من المشمع، أوقد فيها قرصاً أبيض من كحول جاف. قال القائد بصوت خفيض:

- خل بالك.

سمع جندي الإشارة إشارة تنبيه من جهازه، ترك كوب الشاي الذي لم يكد يصله، مسرعاً، وأسرع إليه. أصغى قليلاً، والتفت إلى قائد السرية:

- قيادة اللواء حلت الشفرة.
أبلغ قائد التبة الذي حضر مسرعاً.
قال جندي الإشارة:

- القائد الإسرائيلي المهاجم، طلب الإذن من قيادته بالكف عن
محاولة استرداد التبة، لأنهم - حسب قوله - يرقصون على وقع طبولنا.
احتضن قائد التبة قائد السرية، وأزاح الأخير جانباً من المشمع وقال
لمن في الحفرة:

- وزع شايا على الباقين.
لم يكذب على بها، حتى خيل إليهم، أنهم سمعوا حفيف جنازير دبابات.
أصغوا وقد امتنعوا عن أية حركة، وعلاهم الوجوم والترقب. قال الرائد
عبد السلام فاروق:

- مالكم.. فليحضروا..
وأشار إلى أماكن المدافع:
- عندنا الطبول.

ضحكوا بهدوء، ولم تزايلهم رهبة الموقف تماماً، إلا بعد أن أتى
جندي من الملاحظة، وأفاد أنها دبابات مصرية، تعزز الجانب الأيمن.
تنفسوا بارتياح. وأمر قائد التبة، أن ينام بعضهم، ليستربحوا قليلاً، قبل
طلوع الفجر، وشدد على يقظة الساهرين، حتى يستيقظ زملاؤهم.



طالع الإشارة بسرعة.

«يرجي الذهاب على وجه السرعة، ناحية قطاع رمانة بالوطة»..

عبر بعينه السطور بسرعة، وتوقف عند «يرفض السناوية زرع الأرض بشتلات الموالح». كرمش البرقية في راحة يمينه، وتنهد في راحة. ظن شيئاً حدث من مياه البئر، ناحيتهم، وسبق أن طمأنهم، بنتيجة تحليل مياهها. أرسل في طلب سعد.

هل يتصل بأُم سمية، ويعلمها بالوضع، اتقاءً لما قد يتفاقم إليه. نحى الفكرة جانباً. فالمرأة لم تصبح حماته بعد، ولا بود أن يشغلها بمشاكله منذ الآن، بل ولا داعي مستقبلاً، للاستعانة بما لها من اتصالات ومكانة، وعلى أية حال ليس من عاداته أن يشرك الآخرين فيما يعتريه. فأشراك أُم سمية، سوف يعني الإفادة، أيضاً، من نفوذ قبيلتها من الفواخرية، في سيناء. وتذكر مغالاتهم عند الخطبة. وأسف لأن سعداً، لن يستطيع، أن يرد له في وقت قريب قبضيته في الجمعية، ترى.. هل ستسهل له الأمر، كما فهم من تلميحاتها، وتتغاضى عن الهدايا والمجوهرات، أم هو كلام فض مجالس؟ عليه أن يسلك، كيفما اعتاد، فربما كان رافضو الزراعة، من قبيلة السواركة، المقاسمة لهم في النفوذ، فيتعقد المشكل.

لكنها ربما تزعل، لأنه لم يشركها، أو يعلمها. فلتزعل قليلاً.. وبعدها يكون الأمر واضحاً لها.

ونفسي خاطراً، أن تتزعزع ثقتها به.
بالأمس، ساعة العاصري، استأذنت لتلحق باجتماع فى المحافظة
وقالت ضاحكة:

- البيت بيتك.

كانا يجلسان متجاورين على الكنبه. تطلعت سمية إلى قدميها فى
خفر، وقالت بصوت هامس:

- دقيقة أعمل لك حاجة.

- أنت حاجتي.

ابتسمت، وكانت لم تنهض. مال رأسه على جبهتها، وانتظر.. تمازجت
الأنفاس، وقبلها.

أمسك يديها، وتطلع إلى عينيها. افتر ثغرها عن ابتسامة مشجعة.
وبان مقدم لسانها متألقا. لثم شفتيها، وأحس بشدييها فى صدره، طرين،
حانين، فمد إحدى يديه، وبالأخرى ضغط ظهرها.

رفرفت فراشات، وغردت طيور. استشعر نعومة نحرها، ولطشه عير
عرقها. ونبض الجسدان بالحنان، ووشت اللمسات بالموده والمحبة،
وازداد الالتصاق، وشم رائحة ماء الحياة فى أنفاسها، وشمته فى أنفاسه،
واختلط العرق، وتصاعدت الحرارة.

آلاف الابتسامات، والتخيلات، والرغبات المكبوتة، ورؤية الآخر،
وصحبة النساء، وصحبة الرجال، ولحظات التشوق، والتطلع، والفضول،
والانتظار، وكلاهما يتعاطى الآخر، والذرات تطمح إلى الاندماج،
والتداخل، كأنما لتفلت من المحدودية. وفي الصوت غنة، جعلت الطاقة
المبارة، تندفق، مزيلة الغربة فى الرجل وفي المرأة، ولتمسك بالنفسين
معاً، ومزاة حفل بها ريقها، فتشبت بها فى وله، وهي لا تفلته. ويتركز
كل شئ فى كل شئ، فى بؤرة شديدة الكثافة، كأنها الثقب الأسود فى

الفضاء الخارجي، ولا تتحمل البؤرة، ضغط الطاقة الهائلة، فتنفذ، مما يشبه عنق الزجاجة، وتنطلق فيما يشبه لحظة الانفجار العظيم في الكون، وقد ارتعش الجسدان، وارتجفا، وانبثقت النشوة.

كانت، لم تزل، في حضنه مستكنة، وسعادته غامرة، عندما تسللت العكارة.. انسلت، وجلست في جانب من الكنب، منتظرة.

لم بدر، كيف يتصرف. نهض كالمخدر، لا يعرف، هل ينمي نفسه أم يشفق عليها، أم على سمية، كل ما يعلمه، بعد أن هدأت نفسه، أنه لم يصل هكذا من قبل، وأن شوقه ازداد إليها. هل هو شوق إلى شخصها، أم لتذوق عسيلتها. وهل بعد أن علم ما علم، سيكون من الحرارة، بحيث ينعقد سكرها، وتنبثق مزارتها، التي تشبه مزازة المشمش، أو الخوخ، ومضى تنبثق مزازة الفاكهة، هل بعد أن تسلل الريح بحبوب الحب، وتطير الفراشات بحبوب الحب، وتغرد الطيور، فوق الزهور، مداعبة بمناقيرها، ناثرة حبوب الحب.

هل سيعبق عرق سمية، ثانية، بتلك الرائحة، التي شدته أكثر، وأيقظت ذكوره أكثر، فاحتضنها بصدق ورفق وهيام، ولا يدري إلا ومزازة من ريقها على لسانه وشفثيه، فزاد هياماً على هيام.

لقد ظن وقتها، وقت أن بلغ قمة النشوة، أنه بلغ نهاية المطاف، فما باله الآن، لايري إلا أن هذا هو بداية المطاف.

كان غريباً، أن صفيه، التي سبق لها الزواج، لم تمكنه منها، وسمية التي لم تتزوج تفعل. هل هذا ضد طبيعة الأشياء، أم أن هذا هو طبيعة الأشياء.

يحبس الآن بالآلم، كلما تذكر منظر سمية، ساعة أن تركها.

كانت نظرتها منكسرة، لا، ليست منكسرة، كانت مترقبة، وإن علق بها

ظل انكسار، فبسبب ما قد يظنه عنها، وهي تعرفه. ولم تكن فى نظرتها
شبهة ندم. كانت قوية، ومنتظرة.

أين كلامك يا بطل؟ كل إنسان حر فى أفعاله، مادام ليس مرتبطاً، ولا
يسىء لأحد، فلماذا تركتها دون كلمة؟

المفاجأة. شوشة الفكر لعدم التوقع. الرغبة فى التفكير بروية. لو كان
ما نقوله متأصلاً فى أعماقك، ماتشوشة.

كانت صريحة معك. لم تخذلك. كانت تستطيع الانتظار، حتى
تتزوجها، وتفاجأ أن هناك من سار على الدرب قبلك. أتراها أرادت أن
تعلمك، لتكون على بينة. أم ترى اللحظة أخذتها، فلم تملك نفسها،
وحدث ما حدث.

لا يعتقد، مع فتاة قوية مثلها، ذات نظرات صريحة، وبريئة، نعم هذا
ما يحسه، رغم كل شيء. فتاة كهذه، تستطيع أن تقف عند حد معين لو
أرادت.. وعلى أية حال من يدري..؟

بريئة.. هذا ما يحار منه.. وما يحار فيه أكثر، إحساسه أنه ارتبط بها،
ولا يدري كيف. وعصف به الألم، فهي تعرف، أنه علم عنها، ولا تعرف
ما يفكر فيه. فيم كان تمنعها فى السابق. هل لأنها لم تكن وثقت بحبه،
وبرغبته فى الاقتران بها؟

وهل تعلم أمها عنها، ولذلك باركت هذا الزواج، رغم فارق السن، أم
تراها لاتعلم؟

وجدت امرأتك، فمماذا تطمع أكثر من ذلك..؟

كان مارجرجس يستطيع أن يصبح أميراً، ويخلف أباه فى حكم
مقاطعة اللد بفلسطين، أو يصبح فارساً فى الجيش الرومانى، لماذا سلك
طريق العذاب، وكان يستطيع الزواج من عروس جميلة ويتمتع بثروة أمه
الفلسطينية..؟

أما لماذا فعلت، مع غيرك، أو كيف، فما أدراك بالظروف،

وكيف تحكم دون بينة، وهل من حَقك أن تدين ماضيًا، لم تكن موجوداً به..؟!

عجب من نفسه وقد أحس أنه يريدُها.

- نحن هنا.

نهض حمدي، كاد يتعثّر في سلك التليفون المدلي في جانب من مكتبه، تتمم في سره: السلك ورائي ورائي. ناول سعداً الإشارة. فردّها، ومر بعينه على مطورها. تطلع إلى حمدي الذي قال:

- سعيد طبعاً.

رد سعد:

- لا.. والله، كان عندي مثلك مشوار في رفع.

طالع الورقة ثانية، ليتيقن من المكان.. عند الطريق الفرعية النازلة إلى العمق، بعيداً عن الطريق الساحلية. أسرعاً خشية أن يصطدم عمال الزراعة بالأهالي.

طالعتهما بالوظة على البعد، تسبقها واحدة من الأشجار المورقة، وإلى يسارها طريق معبدة، غير مرصوفة، قال حمدي:

- أعتقد من هنا.

دون أن يرد، أدار مقود العربة، وأحسا بانحدارها في منزل. طالعتها أطلال حجرية، بقايا بيوت قديمة. وثمة ما يوحى ببوابة، خلفها كومة من الأحجار. لعلها قلعة تداعت. أتراها بقايا قلعة الفارما أيام الرومان. هل توقف عمرو هنا، وجاءه رسل قبط مصر، مرحبين بدخوله إليها؟

انطقي أيتها الأحجار.. هل دفعهم إلى ذلك عسف الرومان. لماذا لم تكن عندهم نزعة الاستقلال. هل لأنهم كانوا ممنوعين من حمل السلاح، أم أن قوانين الصراع في هذا العصر؟ حتمت أن تسيطر قوة على العالم القديم، فإذا تراجعت أو انهزمت، حلت محلها القوة البازغة. حانت منه

التفاتة إلى مرآة السائق العاكسة، وفزع.. صورتها لا تشي بحقيقته الداخلية التي يشعر بها.

خيوط معقودة وسط الجبهة، جفون ذابلة. شفته السفلى متدلّية وشيء ما يعتصر وجهه.

اقتربا من الأرض. رمال على مدى الشوف. شجيرات قزمة على جانبي الطريق. السيناوية في الأرض، وعمال الزراعة، وهم سيناوية أيضا على الطريق. أترامهم يوالون بعضهم بعضاً أماناً. تسابقوا وقد اختلطت الأصوات.

أشار حمدي إلى عماله أن اصمتوا. وجد من إلكياسة أن يسمع الآخرين أولاً. من جهة يرضيهم، ومن جهة يكسب ودهم. اقترب منه رجل ممصوص، أسمر، عيناه ذات جفون حمراء، تساقطت شعيرات من رموشها. وتغير بؤبؤا عينيه من اللون الأسود، إلى أزرق مغشوش. قال:

- خسارة.. الجعيثران.

لحظ حمدي، ولم يكن لفت انتباهه من قبل، نباتاً ارتفاعه شبر أو شبران عن الأرض، أوزاقه خشنة، كأنها مشرشرة. استمر الرجل:

- جادت الأرض.. نخرها.

اقترب حمدي من النبات، لحظ نباتاً آخر على حافة جرف. انحني والتقط ورقة منه، قربها من أنفه.

- قيسون..!

- قليل.

سبلت صفية عينيها، فارتج قلبه. ظن أنها خجلت منه، وأن التسبيل علامة الرضا. ويبدو أنها خمنت ما دار بخلده، فأخبرته أنها تشعر مع مطلع كل صيف بجفونها ذابلة، وتحس برغبة جارفة في حكها. باخت نفسه، واقترح عليها استخدام مرهم من مركبات المايسين، فقالت له إنها

عندما كانت فى الخارج حدثوها عن نبات القيسون، وأن كثيرين جربوه وأتى بنتائج مدهشة.

عندما حضر إلى سيناء سأل عن القيسون. أرشدوه إلى الغوالتى الصخرية وسط سيناء، وسيكون محظوظاً لو وجدته. أيام الاحتلال الإسرائيلى، أتى خواجات كثيرون، وكلما وجدوا نباتاً برياً، لم يتركوا منه نبتة واحدة. لانت تقاطيع وجه حمدي وابتسم، قال السيناوي الممصوص:

- لا تؤاخذنا يا باشمهندس..

واصطحبه إلى خصص، تظلمه أكياى مجدولة من أوراق البردي الجافة، ذات لون بني مصفر، بينما اتسعت ابتسامة حمدي. كان فى طريقه إلى رفح، للقاء أحد العمال الذين يعبرون إلى رفح فلسطين، حيث وعده بإحضار بعض من نبات القيسون، الذي ينمو بكثرة فوق رُبى فلسطين، خاصة عند المجدل، عندما جاءتة الإشارة.

أخذ الجميع يثرثرون، فى انتظار الشاي، وحمدي فى حيرة من أمره. السيناوية عندهم حق. النباتات الطبية، نادرة، وريحها مضمون، والأجانب يسمون إليها، ويصدرونها لنا مصنعة، على أساس أنها من اكتشافهم، وندفع فيها دم قلوبنا. هل ستفهم مديرية الزراعة ذلك. أبسط رد عند السيناوية: الأرض واسعة، اتكوا لنا هذه. المديرية ستقول هذه الأرض ضمن المنطقة المعدة لزراعة الموالح، وعلى السيناوية أن يقدموا طلباً للحصول على أرض أخرى، خاصة وهم يسهلون لهم شراء الأرض، بأسعار رخيصة، ويتقسيط محل.

- ماذا قلت يا باشمهندس.

وناوله كوب الشاي. أخذه بين راحتيه وقال:

- سنجد حلاً.

بالتأكيد. لا يوجد شيء مقدس. لابد أن تفهم الزراعة الوضع. الأرض التى جادت بخيرها دون جهد، نساعدنا على ذلك، بدلاً من نزع نباتها.

الأرض ضمن خطة الزراعة. نعدل الخطة. ونجعل السيناريو يقدمون طلبًا لاستغلالها. ألسنا نريدهم أن يستقروا، ها هي الفرصة، وليذهب تخطيطنا المسبق إلى جهنم.

نهض وسلم، وهم يرجونه أن ينتظر، فهذا موعد غداء، وهو يعظمهم، ويقول إن المرات القادمة كثيرة، أم هم لا يريدونه أن يحضر.

ركب العربى وقد أخذ ما أراه من القيسون والجعشران، معترماً أن يرسل القيسون إلى صفية. تتمحك ثانية. تفكر فى سمية ونهدي صفية. وهل محاولتي الوصال مع سمية، تمنع أن تكون صلتى جيدة بصفية.

سار بحذاء الأرض. يقدر مساحتها، وقد اعتزم كتابة مذكرة بالأمر، وضرورة إنشاء بنك للأصول الوراثية للنبات. ألمانيا قننت مئات التركيبات الدوائية من التراث النباتى العربى. ضحك من نفسه..

قال يعنى.. حللت مشكل الأرض.. فذهبت تبحث عن البنك وقلته. الأرض نما على حدودها نبات التين الشوكى الأحمر، أوراقه خضراء، شوكية، تشبه نبات الصبار. لشد مادمية يداي من هذا الشوك اللعين. كنا فى الساعات الأولى من حرب يونيو. انقطعت خطوط المواصلات السلكية. كلنى قائد الكتيبة مع نفرين آخرين للبحث عن الخطوط المقطوعة وإصلاحها.

لا دراية لي بهذه المهمة. زميلاي مشيا يتبعان الأسلاك المغروسة فى الرمال، وغارات طائرات المستير الإسرائيلية لا تنقطع، وأصوات رشقات الطلقات تسمع فى جنبات الصحراء. قلت لنفسى.. لماذا أموت فى مهمة لن أفعل فيها شيئاً. تباطأت حتى اختفيا عن ناظرى، وعدت إلى الكتيبة، لم نسمع عنهما شيئاً بعد ذلك. ما ضر لو ذهبت معهما.. ربما مددت يد المساعدة. نظر سعد إليه وقال:

- هل ما زال العزم موجوداً

- رفع

نظر إلى ساعته، وهو يردد في خاطره.. هل استطاع العامل أن يتقصي أمر الآبار عند المجدل كما طلب منه. قال:

- الوقت لا يسمح.

ومنى سيسمح الوقت، ليزور وسط سيناء، ويرى الفوالق الصخرية بنفسه. سمع عن نبات هناك، يصنع منه بروتين، تزيد حلاوته عن حلاوة السكر، ولا خوف على مريض السكر إذا تناوله. كم ستسعد أمه بذلك.

تري.. هل الفوالق وسط سيناء، امتداد للشرح في قاع خليج العقبة. تخيل الخريطة ونفي الأمر. لو قدر لهذا الشرح أن يستمر، سيشتط إسرائيل إلى نصفين طولياً ويعزل الساحل عن الداخل أم هذه أضغاث أحلام. الطبيعة فعلها ببطء. ومن يدريك. قاع البحر الأحمر غير مستقر، ومكمن للزلازل. في لحظة تجد العالي في الأسفل. ويتحول الإسرائيليون إلى نفاية وطعام للأسماك، وقد تحتفظ الصخور ببعضهم متحجراً، يقال أن الحيوانات تحس بالزلازل قبل وقوعه. سوف تكون علامة واضحة، عندما لا تحط الطيور المهاجرة من أوروبا على سواحلنا.



ظل حمدي يتعجل حضور سعد. ولما كان قلقاً، ولم يستقر على وضع، فقد ترجل حتى بيت سعد، في حارة متفرعة من الشارع الرئيسي بالعريش، على يمينه وهو آت من ناحية البحر. بيت من دور واحد. طرق بابه، ولما لم يرد أحد، دفع إحدى ضلعتيه برفق، وخطا إلى فناء واسع، اصطفت عدة حجرات على ثلاثة أضلاع منه، وظهرت من خلفها العمارات الحديثة. صفق يديه وهو يقول «يا ساتر»، أطل سعد من إحدى الحجرات، أشار له بإحدى يديه وأسرع إلى دورة مياه في زاوية بعيدة، ليفك ماءه. اقترح سعد أن يتناولوا فطورهما أولاً.

- لا وقت لدينا.

في نفاد صبر:

- إلى أين..

انفجر حمدي ضاحكاً، فهو لم يحدد وجهته بعد. تلقى مكالمات هاتفية في الصباح ليتوجه ناحية بحيرة البردويل، وكان يعتزم الذهاب إلى رفح وفاء لموعد مع صديقه العامل. إذا فرغ مواعده هذه المرة، فربما فقد ثقته به.

قال سعد وهو يدير محرك السيارة:

- اركب وفكر على مهلك.

خرجوا من الحارة إلى الشارع، أغلب بناياته عمارات حديثة مرتفعة، وفنادق سياحية، ومحال تجارية تزخر بمختلف المعروضات.. أقمشة مستوردة، وعطور بارسية، ومصنوعات جلدية إيطالية وإنجليزية.. بعضها مضروب ومصنع في هونج كونج وسنغافورة. ومحال تعرض إلى

جانب أحدث أنواع الشيكولاته، والفاكهة، اللوز السيناوي صغير الحجم، وزيت حبة البركة. وعربات يد محملة بينطلونات الجينز وقمصان حريمي من النايلون الأحمر الفاقع، وأدوات الزينة، وإعلانات النيون في الميدان، قد خبا ضوءها في شمس النهار.

دخل سعد حارة جانبية، خرج منها إلى الشارع الرئيسي القديم، وهو مواز للآخر. ورغم أنه يفتقر إلى المارة، فقد أحس حمدي بألفة.. ربما لسابق معرفته به حين عسكر مع وحدته بالقرب من المدينة عام 67. طالعتهم المقاهي البلدية، والعمال يحتسون الشاي ويدخنون البواري. وأمام واحدة، مقامة فوق مصطبة مثلثة، ركن سعد العريّة. لم يعترض حمدي ونزل بهدوء.

صعدا عدة درجات. وجلسا إلى ترابيزة، غير بعيد عنهما تليفزيون أبيض وأسود، يث أغنياته. تنبه حمدي إلى أن اليوم أحد، وأنهم يشون مبكرًا برامج اليوم المفتوح.

أحضر سعد لفتين من البسكوت. فك حمدي غلاف واحدة، وهو لم يحسم أمره بعد. نفخ في غبظ. حجزت الشرطة بعض عمال الزراعة. هل أفقنا من مشاكل الزراعة، حتى نواجه بمشاكل الصيادين. ترى ماذا هناك؟ هل الأمر المعتاد، صيادو دمياط وبورسعيد، خرجوا إلى البحر في مراكبهم، واقتربوا من البردويل، بصطادون أمهات السمك، أثناء خروجها أو إيابها إلى البحيرة. لا توجد عندهم رحمة.. يصطادون الأمهات، بشباك، من كفرهم، دققة الفتحات فتحصد معها الزريعة الصغيرة فيفسد موسم الصيد الغالي. فإن لم يكذبني حدسي بالنسبة للجو، فهذا موسم التكاثر، وفيه تنشط الهجرة والعودة، من وإلى البحيرة.

وصيادو سيناء يعرفون المواعيد. هل تجمهروا عند البحيرة، ووعدتهم الشرطة بالقيام بالواجب. أي واجب.. ومراكب البحر الكبيرة، لن يجدي معها إلا لنش كبير، وسريع، يمكنه المطاردة واللاحاق بها.

هل تأزم الموقف، وهم المعجربون لوعود حرس الحدود من قبل،
أطاحوا بهم، فاحتلوا بعمال الزراعة، وجاءت الشرطة فأخذت العاقل
مع الباطل. وما ذنبي أنا..!؟

- «ذنبي في حبك أني بحبك»

وهل أحببني صفية يوماً..!؟

نطلع إلى الشارع، حيث الميدان من بعيد، وشرطي ينظم حركة
المرور.. وغير بعيد منه مباني المصالح الحكومية ومبنى المحافظة..

فكر في العودة، ليتنسم خيراً جديداً، يساعده على اختيار وجهته. أم
يفادر إلى البردويل، ويتوكل على الله. وأخونا المنتظر في رفح..؟

ركبا العربية، وسعد يتطلع إليه، فأشار إلى منزل الشارع. في الأسفل،
إلى يمينه. وهما يفادران العريش، طالعت مصاطب المقابر، تنخفض
وترتفع حسب الباب الرملية. وقد نمت أعشاب قليلة، لم تطف على لون
الرمال، التي بدت مشبعة بنخلة رمادية، كأن طوايير نمل كثيرة، ترحف
ببطء.. وتعجب من كثرة المقابر.

وحين كان سعد على وشك الانحراف يساراً، إلى الطريق الساحلية،
قال حمدي:

- خذ يمينك..

تطلع إليه سعد، ويبدو أن عينيه فضحتاه. ما دام ينوي الذهاب إلى
رفح، فما الداعي لهذه اللفة، ألم يكن أوفر لهما أن يأخذوا الطريق الظرفية
شرق العريش، تحف بها أشجار الزيتون المورقة. كما أن بوسعهما الآن
الاتجاه، يميناً بعد الوصول للطريق الساحلية. أوفر وأسرع.
- الدنيا لن تنهد.. لو تأخرنا ساعة، أو بعض ساعة.

ضغط سعد دواسة الوقود، وانسابت العربية من الطريق الساحلية إلى
طريق ضيقة، ملتوية، فكان يضطر لتخفيف السرعة، وعلى مدي البصر من
الناحيتين، أرض رملية، مزروعة بأشجار اللوز الكستنائية، قصيرة القامة.

وأشجار المانجو عريضة الأوراق، يانعة الاخضرار، وتلوح أشجار
البرقوق على البعد، وتسيح الأراضي أسوجة قصيرة من نبات التين
الشوكي لا تكاد تلمح ثمره الأحمر، بين الأوراق الشوكية، وقد لظفت
المزروعات من هجير الصحراء.

تنفس حمدي بعمق.. كنا في عرض نسمة من هذا العبق في يونيو 67
ولما لم تعد تظالعهما أشجار الزيتون، أحس حمدي في داخله،
أنهما غادرا وادي العريش.. نزلت العربية، صعدت ثانية.. مبان على
الطريق.. مدرسة بحدائه.. امرأة أمام مبني من طابق واحد.. وغير بعيد
منها أطفال..

آه.. كنا في عرض صريخ ابن يومين..

فجأة غمرت الأرض مزروعات كثيفة.. من المانجو والخوخ،
وصنعت الطبيعة أغواراً متسعة بين التلال الرملية تتسامر فيها أشجار
اليوسفي والبرقوق والخوخ.
قالا في نفس واحد:
- الوادي الأخضر..

بما يعني أنهما على وشك الوصول. وكلما صافحت عينا حمدي
أوراق الأشجار البانعة، تأكدت له عذوبة المياه الجوفية، رغم القرب من
البحر المالح، واطمأنت نفسه.

خرجوا من الطريق الجانبية إلى مفترق، تتعامد عليه الطريق الرئيسية.
عرجا شمالا في الطريق إلى رفح.. طالعتهما لافتة كبيرة تعلن عن فيلم في
قصر ثقافة العريش، وامرأة ترتدي فستانا بفتحة أعلى الساق، وقد اتكأت
بكوعها على حشية مستديرة، ويدها الأخرى تهم بوضع سيجارة بمبسم
طويل، في قمها.

والله أوحشتنا يا «ترسو» سينما عدن على بابها مكتوب بخط
رديء «العمريطي مستعد للشكل»، وكنت دائما أتساءل هل هو من

«العمارطة».. تجار الحلوي المشهورين في المنصورة، أم هو من فرع فقير. كانت تذكرة الدخول باثنين وعشرين مليماً.. لماذا ليست بعشرين.. أو بخمسة وعشرين.. المليمان.. لم يكونا متوافرين دائماً.. نعطى الرجل قرشين ونصفاً، فيعطينا بالباقي صورة ملونة لأحد الممثلين أو المطربين.. وأحياناً كتيبات بها أغان للكحلاوي وشكوكو ويلي مراد.. وأحياناً كتيبات بها قصص الحمال والسبع بنات، وأبى زيد الهلالي، وفاطمة بنت بري. مرة فوجئت بالرجل يعطيني صورة بها ضباط، ومكتوب أسفلها بخط عريض: «مجلس قيادة ثورة يوليو 1952».

نظرت له فضحك وقال:

- ستة ملوك بثلاثة مليمات..!٤

وجد العامل في انتظاره بالمقهى، في الشارع المؤدي إلى بوابة الحدود. اعتذر له عن تأخره، حيث لم يسلك الطريق الساحلية المباشرة، ليطمئن على الزراعة في بعض الأغوار.

أنبأه العامل، أنهم يحفرون آباراً أعمق من المعتاد. قطب حمدي جيبته، ومط شفثيه. قال العامل:

- لاحظ أن أرضهم في العالي.

رد حمدي

- لا يمنع..

وبعد أن تبادلوا الحديث بعض الوقت نهض حمدي، وهو يشكره، ونادي ليدفع الحساب، فزام العامل وأصر على أنهما ضيفاه. ركبا العربة، وحمدي يطلب من سعد أن يسرع..

تري هل انتهي الأمر على خير.. أم احتجزوا عمال الزراعة، حتى يحضر، ليعرضهم، ويكتب تعهداً بعدم عودتهم لذلك مستقبلاً. وهل يستطيع أن يقف حائلاً بين سيناوي وآخر. يضحكون علينا أم على أنفسهم. هذا هو المطلوب.. أم فلا داعي للفلسفة. ألا تكفي البورسعيدية والدمايطة الأسماك جهتهم.. أم

هنا الأنواع أفضل.. لعلهم سمعوا عما فعله الإسرائيليون عندما كانوا هنا. كانت طائرات «الشارتر» تحمل يوميا أسماك الدنيس طازجة إلى مطاعم إيطاليا وفرنسا بـ 6 ملايين الدولارات سنوياً. وليتهم يحضرون في موسم الصيد. وبالتأكيد اهتبل صيادو عزبة البرج الفرصة وحضروا بمراكبهم الصغيرة، لعلهم يصيهم من الحب جانب.

حل النحس بأهل العزبة، بعد أن كان رزقهم وقيراً من السردين الذي كانت تجذبه رائحة طمى النيل عند المصب، وعندما امتنع بعد حجز الماء في أسوان وترسبه خلف السد العالي، كانوا يرحلون إلى السواحل التركية والليبية، وأحياناً اليمنية. وكثيراً ما نشرت الجرائد أخبار القبض عليهم. فجأة انطلق حمدي ضاحكاً. التفت إليه سعد.. وعاود النظر إلى الطريق.

- تراهنى..؟! -

لفت وجهه بسرعة متسائلاً.

- سنجد المراكب الكبيرة أقلعت، وقبضوا على صيادي عزبة البرج. ضحك سعد بتؤدة، كأنه يتلع شيئاً بين الضحكة والأخري. وتناوب الخبط بيديه على عجلة القيادة. التقط حمدي جريدة، ابتاعها من رفح، مضى على صدورها عدة أيام، مر بسرعة على عناوين الصفحة الأولى، وقلب الصفحات.

«القبض على رئيس نقابة العاملين بالإدارة المحلية»

عدة سطور ورفع رأسه..

محام ويختلس، ويتنزه في أوروبا مع سكرتير النقابة، وعلى حساب العمال..!

أعاد رأسه للجريدة، وقد استوقفه اسم المحامي.

يا خبر.. الذي جمعنا عنده في مكتبه بالمنصورة، لنسافر إلى بورسعيد أيام حرب 56، وننضم إلى الفدائيين.

لماذا أنت خائف من حل التنظيم. الناس موجودة. ماذا سيجري لها. نظرت إلى صديقي القيادي، وكان أديباً أحبته، وتعجبت للثقة والمرح في حديثه. ووشت رنة صوته بالفرح لأنه التحق بالتنظيم الطليعي. ولم أستطع أن أفهم، كيف يكون عبد الناصر في السلطة وينشئ تنظيمًا سرّيًا. وأعلن خلفه الرئيس السادات أنه سيمشي على خطى عبد الناصر. ومشى عليها فعلاً، ولكن بأستىكة.

فرمل سعد فجأة، فاندفع حمدي بجسده إلى الأمام، حتى كادت رأسه تصطدم بزجاج العربة. لمح قطة تقفز بسرعة إلى جانب، فكظم غضبه. جاء صوت سعد هادئاً:

- اقترينا

نظر حمدي له بغيظ. وانصرف فكره لما هو مقبل عليه. لا بد مما ليس منه بد. وأخذ يهون على نفسه لقائه مع الشرطة، ومع خفر السواحل وما ينبغي أن يقال.. راجياً ألا يكون الأمر قد تعقد.. جاءني موظف الأمن في مديرية الزراعة بالعريش وقت العصاري.. عزم نفسه على كوب من الشاي. يا مرحباً. وعند الغروب صعدنا إلى السطح.. ننظر إلى البحر.. ونغسل وجهينا في أشعة الشمس. لمح الموظف في جانب من السطح، ما يشبه المهّاد من خرق قديمة، صتعه قطة تتردد على البيت. ولست أدري ما الذي استفزه من ذلك.. فجأة حمّله وألقى به من فوق السطح.

نظرت إليه متعجباً.. فردد ببرود أنها بيئة صالحة لاجتذاب الحشرات. أردت أن أصرخ.. ما شأنك.. ساعة وتنصرف، فلماذا تفسد على أمري. ومن فرط غيظي لم أستطع التفوه بكلمة. نزلنا وقد حُرمت متعة استنشاق بعض الهواء النقي. سرعان ما حط الظلام. سمعنا حركة على السلاّم. صحننا في نفس واحد: القطة. عاودت القطة الصعود والهبوط، وأخذت تموء مواءً ممطوطاً، غاضباً. نظر إلى موظف الأمن وقال: تشمتني.

ترجل حمدي في الطريق الساحلية. فندق سياحي عن يمينه، وشمسيات متناثرة قرب الشاطئ الفسيح. والكراسي خالية، إلا من نفر قليل يسرحون في الملكوت، في سرعات ما قبل الغروب. وبيوت متناثرة، غافية، بين أشجار النخيل، على الجانب الآخر من الطريق. والعريش بيوتها القصيرة خلفه، وزهنة ما زال يلوك ما حدث من عدة أيام. هل يتحدث مع الصيادين، لينشئوا جمعية، تتولي شراء لنش سريع، يمكنه حراسة البحيرة من تعدي صيادي دمياط وبور سعيد. سيتحرون، وإذا عرفوا أنه وراء المشروع، سينقل من هنا، وعلى مشروع الخوخ العفاء. فليكن بشكل غير مباشر. يتحدث مع من يثق به من عمال الزراعة، وهم يتولون الأمر.

استعاد في ذهنه بعض النقاط التي تتردد على السنة الصيادين.. تتولي شرطة المسطحات المائية الأمر بدلاً من سلاح الحدود. قد يتعلمون بالأمن القومي أو ما شابه، دحك من هذه النقطة. السماح للمراكب الكبيرة بالصيد في أعالي البحار، ويسمحون للصيادين باستخدام محركات عالية. من أين المال.. من أرباح جمعية يساهم فيها الصيادون. آه.. رجعنا للجمعية ثانية. تمثيل الصيادين في مجلس إدارة البحيرة. سينظرون لك شذراً. فليظنوا. قوة دفع مناسبة للمياه من البحر إلى البحيرة للحفاظ على نسبة الملوحة المطلوبة. ممكن. مد الرصيف الغربي من البوغاز الشرقي إلى داخل البحر، وإغلاق الفتحة خلف الرصيف التي أحدثها

التحر. عليك وعلى المحافظة.

كان وقت الضحى، وهو يسير عند أطراف بحيرة البردويل، عندما قالوا له:

- أنت أهل لها يا باشمهندس
مشيرين إلى صلته بالمحافظة بحكم عمله.
- ربنا يسهل

وواصل سيره، يتأمل صفحة الماء الرائق، تداعبه مويجات هينة.
غصت صفحة الماء قرب الشاطئ بالمراكب في حرب يونيو.
وقام الصيادون بتحميلها بالجنود المشردين في الصحراء، غير مباليين
بتحذيرات الإسرائيليين. وطلقات مدافع الفيكروز التي تلاحقهم.

شق صفحة الماء لشان سريعان، أحدهما معلق في مقدمته مكبر
صوت، يذيع تسجيلاً لطلقات رصاص. والثاني معلق في أحد جنيبه مكبر
صوت يذيع تسجيلاً لاستغاثة طائر عجاج مصاب. وطيور العجاج عاجزة
عن تكوين جدارية، تقتحم بها الماء. طارت فرادي، مضطربة.. بعد قليل
لمت شملها في بقعة من الأفق، وإذا ببالونات على هيئة طيور جارحة
تلاحقها، ففرت مذعورة إلى عرض البحر.

وضحك حمدي.. لن تستطيع الطيور أن تحط على الشاطئ، أو
بالقرب من الملاحات، فقد وضعوا لها مواد حريفة. وبدت طيور
البشاروش، وخلفها طيور العجاج، كأنها اتشحت بالسواد، تتماوج على
غير هدي، وقد غادرتها النشوة، التي كانت تلوح منها، وهي تنقض على
أسماك الدنيس الفاخرة. وتهادت على صفحة الماء مراكب الصيادين،
بلون واحد. كانت جمعيات تجار الأسماك، قد حددت لوناً لمراكب
العرايشية، وآخر لمراكب البدو. فكثيراً ما وقعت بينهما المشاجرات.
تري.. هل هذا مسبب ترقيته المفاجأة؟ أخبره صديق بمديرية الزراعة

بالدقهلية، أنه مرشح لتولي منصب مدير إدارة، وكل ما عليه أن يقدم طلباً لإلغاء انتدابه والحضور فوراً. لماذا الآن.. وقد اشتكى مراراً بأحقية بالمنصب، منذ حصل على الدرجة الأولى من عدة سنوات. وحدث لون المراكب، وغداً تنشي جمعية لثلاثة آلاف صياد، يملكون ثمانى مائة مركب، يبرطعون فوق بحيرة مساحتها ما يقرب من مئة وسبعين ألف فدان.

- يا ليل ويا لا ويا لا لا.

تطلع إلى المركب المقرب، وتتم في نفسه: من السواركة. لماذا لا يغني الفواخرية نفس الأغنية..؟! حانت نظرة منه نحو البيوت المتناثرة، وتساءل عن بيت محمد عايش. زادت كثافة النخيل بالقرب من الطريق، وخلقها الرمال مترامية، حافلة بالتياب والمهاد. وقد نمت في غير مكان نباتات وحشاش برية. عبقت أنفاسه بأريج. إذا لم تخنه الذاكرة، فهو الجعيران.

فكر أن يعود، ليتكلم مع خال ندا عن تدابير الخطوبة وعقد القران. لم يشعر بميل إلى ذلك. كان الكدر ما زال عالقاً بنفسه من حمأة سعد، كان العابدي بين المقبوض عليهم، وأجلوا الإفراج عنه لمزيد من التحريات كما قالوا. لم يسترح لنظرات سعد متهما إياه بالتقصير ورده عليه حين علق:

- كان مستريحاً في المقهى، ما الذي أتى به..؟

- أنت الذي تقول ذلك..؟!!

وماذا عليه لو أخذ بعضاً من زهور الجعيران لأم سمية، التي تشكو من مفص في أحد جنيها، وتخشي أن تصاب بفشل كلوي.

وبأي وجه يقابل سمية..؟!!

كان قد ألمح لها أنه متضايق، من حملقة الرواد في جسدها، ومن نظراتهم غير المريحة.

- وافقت على خطبتي وأنت تعرف طبيعة عملي.

لم يجد في نفسه الجراءة، لأن يطلب منها التخلي عنه، ومن مدة وجيزة تألفت عينها بالفرح وهي تخبره بترقيتها إلى رتبة قسم الاستقبال، وأنها اختارت زميلات للعمل معها ترتاح لهن، وحدثتهن بضرورة معاملة المصريين المترددين، نفس معاملة الأجانب الباشة والودودة.

في البداية ظن أن العبور وشيك وأحس بالخطر على نفسه وعلى زرعه، ولما طال الأمر، انتقل بزرعته إلى الصالحية. وبعد أن ترعرعت، أخذ من نتاجها شتلات جديدة، واقترب ثانية من شط القناة، حيث البيئة مناسبة، رملية، وليس بها شيء من طمي النيل. بعد الحرب طالت المفاوضات، وحين استردت مصر سيناء، كانت الشتلات التي استتبها فيها، من الناتج الثالث. ورغم اطمئنانه، كان متوجساً ألا تصبح التوليفة في التربة الجديدة. وعندما صحت.. شعشت أعطافه.

هل لهذا فزع عندما رأى وجهه في مرآة السيارة، لا يعبر عما يمر بداخله.

وأخذته الحمية، ونوى عمل بحث عن الأصول الوراثية للنبات. مقاومة الأمراض، تحمل الجفاف، والملوحة، ورصد صفات الخوخ الثمرية ومواعيد نضجها.

واكتشف أن المحلي من أنواع السلطاني والفرك والحجازي والمادوي والشامي والتيلي، يفوق الأجنبي من حيث النكهة والمذاق.

واقترحت سمية عمل جدول بالأنواع مبكرة النضج ومتوسطة النضج، وأضاف هو: ورصد تنوع اللب من برنقالي إلى أبيض وأحمر، وعلاقة ذلك، إذا كانت هناك علاقة بقوة نمو الشجرة، ونتاجها العالي. وسمي لها ثلاثة عشر نوعاً تعتبر من أجودها وأنه لابد من تطعيمها على أصل التيماجارد والأوكيناوا.

لفتت سمية نظره أنه لابد من زرعها كأهات. و لم يملك نفسه من

الضحك وهو يسمعها تقول:

- ومتابعة نموها الخضري والزهرى.

وأضاف:

- وعمل بصمات وراثية لهذه السلالات.

طبع قبلة على شفيتها، استسلمت فضغط بشدة. فلفصت محتجة:

- ماذا؟

- بصمة.

انحنى يقطف بعض زهور الجعشران. لو قابله سمية بوجه مريد. سيزعم أنه لم يأت من أجلها. جاء ليرى ماذا صنعت أمها فيما أثاره معها بشأن تصاريح الصيد من البحيرة، حيث يؤجر الواحد بأربعة آلاف جنيه وبيعاً بثمانية وعشرين ألف جنيه.. هذا فى الوقت الذي يتم فيه تحصيل رسوم عن كل كيلو سمك يستخرج من البحيرة.. وتساءل.. كيف زادت الديون على الصيادين من خمسة آلاف جنيه غداة الاحتلال الإسرائيلي.. إلى أربعين ألف جنيه الآن؟ ولماذا انخفض نتاج البحيرة للتصدير إلى ما قيمته ثلاثون مليون دولار سنوياً، أقل مما كان يصدر الإسرائيليون بعشرة ملايين على الأقل؟

تطلعت إليه أم سمية، وقالت:

- كان الإسرائيليون ينزحون البحيرة.

فكر أن يسأل أم سمية مساعدته فى الحصول على شقة فى المساكن الشعبية بالمساعد، لكنه نحى الفكرة جانباً، خشية أن تظنه يحاول الابتعاد عنها من أولها. وعجب من نفسه لماذا لم يفكر فى هذا من قبل، وكانت العمارات، خالية لا تجد من يسكنها، والآن بعد أن نهته حمدية، رجا أن يكون الحظ من نصيبه.

ومع أن حمدية اقترحت ذلك، فقد رفضت، أن تنتقل مع أمها للعيش

معه فى العريش، إذا تأزم الموقف بالنسبة لشقتيهما.
تركها حزينا، كاسف البال، وقد تفهم تلميحات حميدة عن الأم،
رجلها والقبر، وما يعنيه ذلك من مشقة لروقي قضيت بعيداً عن المنصورة.
مشى فى شارع بورسعيد، والمساء على وصول.. دار ابن لقمان
إلى يساره.. أزعجه ازدحام الشارع المؤدى إلى كوبري طلخا الجديد..
كان فى المدرسة الابتدائية عند بناء الكوبري.. لم يكن الشارع مفتوحاً،
كانت مدرسة التربية النسوية أمام موقع الكوبري.. وكان ما يسير فيه الآن
شارعاً جانبياً، تحيط به البيوت القديمة ذات الأبواب الخشبية الكبيرة.
دار القاضي ابن لقمان.. هدموا الصف المواجه لها لتصبح الطريق ذات
اتجاهين.. وهدمت المدرسة لينساب المرور إلى الكوبري..

وقامت فى باقى دار القاضي، عمارة كبيرة، جاورتها أخريات، ذخرت
بمحال بيع الأدوات الصحية والأحذية والمشمعات والأقمشة، ولم
يحفظوا إلا بالحجرة، التى يحضر السياح من فرنسا لمشاهدتها، الأمر
الذى أثار دهشته وهو صغير، فليس فى الحجرة التى قضى فيها لوليس
ملكهم، فترة أسره، سوي كنبه عادية، كان ينام عليها، وخزانة خشبية
مثبتة فى أحد الحيطان، ليس لها عمق، وبها ضلفتان جوارتان، وثمة
شباك صغير يطل على فسحة صغيرة بعد مدخل البيت، تغلقه عصفورة
خشبية، وباب الحجرة أصغر من باب البيت، الخشبي الكبير، ويغلق مثله
بمصاريح خشبية. وللحجرة شباك يطل على الشارع، مكون من مربعات
خشبية، كعقالات القصب، قصيرة، ملفوفة، تصل العقلة بالأخرى كرات
خشبية، وخلفها ضلفتان مغلقتان. وتظهر عروق السقف الخشبية، ذات
اللون البني الغامق، تتدلى من وسطها مشكاة. وتصعد إلى الحجرة، بسلم
خشبي، لا يتجاوز اثنتى عشرة سلمة، إلى جانب منه على الأرض قدر
رخامي أبيض مجزع بخطوط سوداء خفيفة، لا يتجاوز ارتفاعه نصف

متر، لشرب الماء، وتحت قاعدة رخامية مجوفة، للاغتسال.
وأطيح بمئذنة جامع الموافي المجاور، وكانت قصيرة، ومن نفس
العصر، وغيروا بعض حيطان الجامع، وفي النهاية أجهزوا عليه، وأقاموا
آخر ذا طراز مختلف.

واقطعت قطعة أرض من باحة أمامه، وأصبح متعذرًا الدخول من
بابه الرئيسي الذي كان ينبسط أمامه ميدان الموافي. دخل نصف الميدان
فى الشارع. ونصفه الآخر قامت به محال خردوات، وازدحمت الأرض
بعربات بيع مناديل الرأس الملونة والمزدانة بالترتر، والجوارب والرفائع
النسائية، وأدوات الزينة.

وشق الشارع سوق التجار، الشهير بسوق الخواجات إلى نصفين. وإذا
أردت دخول الجامع من باب الخلفي، عليك أن تعرج من سوق التجار
الشرقي، حيث محال بيع الأقمشة والخردوات على جنبه، وسقفه مغطي
بأقمشة قديمة، لا تسمح بسقوط الشمس والمطر، ويحتك المارة ببعضهم
من الضيق والتعرج، ومن تفاديهم للملابس المعلقة على شمعاعات فى
مقدمة المحال. وتدخل يمينًا فى إحدى الحارات المبلطة بمربعات من
حجارة البازلت القمحية، تلك التى جعلت سنابك خيل فرسان لويس
تتزللق، ويحاول راكبوها الهرب، فيجدون الحارات مسدودة، وسرعان
ما تنهال عليهم النساء والأطفال والشيوخ والرجال، بمخارط الملوخية
وأغطية الحلل النحاسية، وأيدي الهاونات، وسكاكين الجزارين، وكل ما
تطوله أيديهم.

وفى هذه الحارة، ستعوقك عن السير، بضاعة التجار المرصومة،
تزحم الطريق.

عرج يسارًا فى شارع السكة الجديدة، ليلتقط عربة أجرة، تذهب به
إلى محطة الباص إلى العريش. خلفه مسجد الصالح أيوب، بخطوطه

العريضة، بعرض حيطانه، طوية ويضاء كالحلة. وقامت خلف مئذنته،
عمارة كبيرة، ذات شبابيك زرقاء، فأصبحت تبيينها بصعوبة، وكنت تراها
سامقةً من أول السكة الجديدة، من ناحية المحطة، والسماء خلفها، بلونها
اللبني الخفيف، تسبح فيها نتف قطنية، ترقى وتتشرب، وكلما اقتربت،
لاحت لك المئذنة بحجارتها الجيرية متماسة دون مونة وظهرت شرفاتها
الثلاثة. الأولي، مقسمة إلى شريفات وهمية، بين واحدة وأخرى ما
يقرب من متر ونصف، وفي عتق المئذنة مقرنصات محفورة في الحجر،
تعلوها الشرفتان الأخريان، كل منهما مسورة بخطين من الحجارة، بينهما
زخارف من الحجارة نفسها في الفراغ، ويسمى عامود المئذنة، متوجاً
بمسلة صغيرة، مخروطية، فوقها هلال، وكلاهما أخضر داكن.

ركب عربة، استجاب سائقها لإشارته، وأخذ يردد في خاطره، بيت
الشعر الذي طالعه مراراً عندما كان يزور بيت القاضي، وهو صغير..

دار ابن لقمان على حالها.. والقيد باق والطواشي صبيح
ترك الطريق، وعرج يساراً. انحنى على النبات، مرر أوراقه المشرشرة
بين راحتيه. عيدانه تشبه عيدان البازلاء. وأخذ يتشمم النبات. الجعيثران
بالتأكيد، أو ابن عم له. عل أية حال زهرته ليست غريبة عليه.

رفع رأسه، لاح له البيت على البعد.. محمد عايش.. لماذا لم يفكر
فيه وهو سيناوي مثلهم، وسيتفهم الموقف بسرعة، والأهم ثقته به. وهل
سيفوت الجهات الأمنية الربط بينهما، لو شمت خبراً بما قد يحدث.
انتفض فجأة، وقد سمع حفيفاً. لمع ما يقلت سريعاً بين عيدان النيات،
المنتشر على الرمال الرطبة.

تمتم، غير مصدق:

- أبو مريّة..؟!

بالتأكيد هو، فظهره مرصع بخطوط سوداء عريضة، بينها خط برتقالي،

وبطنه الزاحفة تظهر حوافها الصفراء. قدر طوله بما يزيد على نصف متر، وهو لا يخفي إعجابه بجماله. لكن آه.. من هذا الجمال. مد يده محاذراً، من لدغته، التي لا علاج لها في هذا الهو، ليأخذ بعض الزهرات لأم سمية. مرر زهرة على خده، مستريحاً لملمسها وقال في نفسه: جمال مؤذ وجمال شاف. ترى.. هل علم محمد عايش بما حدث، فيوفر عليه نصف الطريق.. أم يتعين عليه أن يخبره عن تجمهر الصيادين؟ كانوا يتصايحون؟ ومكبرات الصوت تحثهم على الانصراف، مع وعد بالإفراج حالاً، عن المحتجزين. وأن مشكلهم في طريقه للحل.

استمرت مكبرات الصوت تزعق دون ملل، واشتد القبط والغبط. ظل الإسرائيليون يذيعون دون ملل «أنت تذيع بياناً ونحن نذيع بياناً أن الطائرات الأمريكية ضربت طائرتنا على الأرض صباح الخامس من يونيو» حتى تعبت أعصابنا.

وهل هذا حقاً صوت ناصر يحدث الملك حسين «وإذا لم يكن فكيف نشكك في صحة التسجيل، ونسأل.. أمكنهم توليفه». ومع استمرار الإذاعة، غادرتنا عصبيتنا، وأخذ كل منا، عندما يقابل زميلاً، يبادره: - أنت تذيع بياناً، وأنا أذيع بياناً..

ثم ننطلق ضاحكين، وقد غابت نظراتنا في المجهول. سمع الحفيف ثانية، وكان يسير بين النخيل، والأرض معشوشبة. اللعين.. يبحث عن مكان رطب بالقرب من جذور نخلة.. أم هو يجد في أثري..

بالقرب منه مدق مرتفع عن الأرض، أسلم له أن يمشي عليه. أغلب الفطن كان شريط السكة الحديدية للعريش يمر فوقه. عندما رأيناه، تجمعننا حوله في دهشة، وقد أعلنت للتو دولة إسرائيل في فلسطين.

كان أبيض البشرة، فارعاً، عيناه ضيقتان وفي اخضرار الفيروز. يضع

حملة من الأقمشة عن كتفيه، أمام عتبة أحد البيوت، وتتجمع النسوة حوله. وباله طويل، سواء في تعريفهن بنوعية ومثانة أقمشته، أو في مداعبتنا وعدم نهرنا، عندما نلتف حوله، وأحياناً نتبعه ونشاكسه.

وكنا عندما نراه قادماً، نسرع لإخبار أمهاتنا بوصول «سمعان كتف» كما أطلقنا عليه.. هل سخرية منه أم من أمهاتنا اللاتي فضلنه عن صاحب محل الأقمشة الشهير سماعيل صيدناوي.

ولمخ السؤال على وجوهنا: لماذا لم يسافر.

جلس وقد غادرته بشاشته، وبدأ نافذ الصبر، وقال:

- لم تكن القدس بعيدة عني.. آخذ قطار العاشرة إلا رباعاً من محطة

القاهرة.

ترك المدق، وخطا على الأرض المعشوشبة، في الطريق إلى بيت محمد عايش، وبالمرة يكلمه في أمر سمية. الحفيف ثانية. كان المظنون أن أبا مريرة اختفي، وأنه لا يظهر إلا في فلسطين.. لكن ها هو يعاود الظهور. ربما كثرة الحركة وإعداد الأرض للزراعة، تقضيان عليه. أم أن الرطوبة التي كسبتها الأرض من الزراعة، ومساحات الظل الناتجة عن التشجير، تجعلانه يلبد هنا.

تابعه بناظريه، يظهر ويختفي، ثم توارى وراء جذع نخلة مبتورة.



- ما قولك يا بنت الحلال..

...

- لا يصح تركه وحيدا يوم فرجه

- أمى مريضة ولا تتحمل مشاق السفر

- عربة ستأخذها، من الباب للباب

- الطريق طويلة

- نستريح قليلا فى الإسماعيلية

زامت حمدية، تبحث عما تقوله، قال صفوت:

- وبالمرة تشجعين صفية على الحضور

عادت تعافر ثانية:

- لن نأخذ راحتنا عند أناس أغراب

- أصبحوا أهلنا الآن..

وأشار إلى باب الشرفة، مستئذنا ليفتحه.

- الشمس

تركته لتعد الشاي، نهض لمواربته، ملتمسا نسمة هواء. عشت عينيه

أشعة الشمس، كأن القرص متربص خلف الباب.

اعترض حمدي على موعد تطوير الهجوم. قال عبد السلام فاروق:

- لم يكن هناك خيار أمامنا، أوقف الإسرائيليون اندفاع السوريين فى

المرتفعات السورية المحتلة، وكان لابد من التخفيف عنهم، خاصة ونحن

نشعر بالامتنان لهم. ففي الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر،

كانت الشمس فى عين العدو الإسرائيلي، أمامنا وكانت فى عين السوريين

أيضاً، تحملوا، لتكون جبال سيناء مكشوفة أمامنا، حيث فى الصباح يفرق الضباب كل شىء.

قال حمدي:

- لكن تطوير الهجوم ممكن الإسرائيليين من التسلل إلى الغرب، بعد دفع قواتنا الاحتياطية من الغرب إلى الشرق.

ضحك عبد السلام فاروق وقال:

- أثير هذا الكلام مرة فى حضور اللواء جورج، فقال أن الأمر ليس هكذا بالضبط..

لقد قامت الطائرات الأمريكية من طراز س 7 على ارتفاع وصل إلى خمسة وعشرين كيلو متراً، وبسرعة وصلت إلى ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، بثلاث طلعات، آخرها بعد ظهر السبت الثالث عشر من أكتوبر، وقدمت صورة كاملة لأوضاع القوات المصرية ثلاث مرات. وليس هذا فقط. وأخرج قصاصة من أحد جيوبه.. قامت أمريكا بعمل جسر جوي من 228 طائرة نفذت 569 طلعة ونقلت 22497 ألف طن من الأسلحة والذخيرة والمعدات خلال الفترة من الثالث عشر إلى الرابع والعشرين من أكتوبر، وهي الفترة التى حدث فيها التسلل.

وفي بداية إقامة الجسر، تمسك جيمس شليزنجر وزير الدفاع الأمريكي، بضرورة أن تصل الطائرات إلى إسرائيل فى الظلام، وأن تفرغ حمولتها قبل طلوع النهار. والتزم السفير الإسرائيلي فى واشنطن سمحا ديتتر بذلك. وفي الساعات الأولى من صباح أول يوم بعد الاتفاق تحركت الطائرات الأمريكية شرقاً. لكن عاصفة أدت إلى تأخير الطائرات، وهبوطها، فى صباح اليوم التالي، وعليها علامات الجيش الأمريكي. ولم يستطع الأمريكيون أن ينكروا أنهم شاركوا فيما حدث. ففرحة الإسرائيليين بوصول الإمدادات، والتى جعلت نصف سكان تل أفيف (أييب) يلتفون حول مكان هبوطها ويصفقون، لم تمكنهم من ذلك.

ضحك حمدي.. فعاجله عبد السلام:

- ماذا..؟

- تذكرت تصريح السادات: نحن لا نحارب إسرائيل.. بل نحارب أمريكا

- وفيم الضحك؟

- لأنه صرح مرة: أنا لن أحارب أمريكا

وعاود تساؤله:

- ألم يكن ممكنا تحريك حائط الصواريخ إلى سيناء؟

- أنشئ فعلا مقر لقيادة الصواريخ في الشرق، وسرعان ما تم تدميره

بصواريخ ليست في حوزة الجيش الإسرائيلي، ولم يزود بها الجيش الأمريكي، وبعد الحرب قال الأمريكيون للمصريين في أحد اللقاءات: في صفوف القوات الإسرائيلية يهود أمريكيون، ويعرفون تقنية هذه الصواريخ.

- ولماذا لم يستخدموا الصواريخ التي في حوزتهم..؟

ضحك عبد السلام فاروق، وقال:

- اخترعنا طريقة جديدة لصيدها.. نضع في مجالها جريد النخل،

وأحيانا نشعل النار.. فتنجذب.. كما تنجذب لعادم الطائرات.. وعلى أية حال لم يقيدوا كثيرا من تسللهم.

- يا شيخ..!

- اللهم إلا أخذهم فلاحى الجنائين أسري.. ليبادلوهم بأسراهم

لدينا.

استمر الفلاحون تحت القصف اليومي، وفي مرمى الأسلحة الخفيفة

يزرعون منطقة الجنائين والشط. كفر عامر، الدفرسوار، أبو خليفة، وحتى

الكاب والتينة شمالا، وكان الإسرائيليون مفتاظين منهم.. فالجنود الذين

مكثوا في الجبهة ما يقرب من ست سنوات، عندما يرون من يزرع ويقلع

جوارهم.. تطمئن نفوسهم.. لذلك ساقوا الفلاحين إلى عربات نقل، وهم يضربونهم..

نظر إليه حمدي، دهشاً، فأمن على دهشته بقوله:
- يعني سيادتك كنت معرضاً..

شرب الشاي، اقترب منها، وقد جلست غير بعيدة عنه، وأذناه تحاولان التقاط أية حركة للأم. مد إحدى يديه، ليحيط خصرها. انفلتت في خفة تحمل الصينية.

إلام ستظل حصينة..!؟

كانت الملاجئ حديدية، مكسوة بخرسانة مسلحة، تعلوها طبقات من قضبان السكك الحديدية، بالتبادل مع فلنكات خشبية وشكائر رملية، ثم طبقات من الحجارة الجيرية، أو الصخرية، متخذة شكلاً هرمياً، داخل شبكة من سلك حظائر الأرانب القوي وضعت ضمن الكسوة. كل ذلك بغرض امتصاص الموجات الانفجارية لجميع أنواع القنابل، حتى زنة ألف رطل، ولضمان انفجار الطابات ذات التأخير قبل أن تصل إلى الكسوة الرئيسية للملجأ. وتصل بين الملاجئ ومرابض النيران طرقات مكسية بأنواع من صاج متعرج وزوايا حديدية، وشكائر رملية. ودشم النيران من الخرسانة المسلحة بسمك يصل إلى نصف متر، وبها مزاغل تسمح بتغطية جميع الاتجاهات بنيران متشابكة، تحقق التعاون بين الدشم. والملاجئ مزودة بالمطابخ وأدوات الترفيه من تليفزيون وفيديو..

وقال صفوت في نفسه.. اثنان وعشرون موقعاً.. احتوت واحداً وثلاثين نقطة.. بعمق وصل إلى ثلاثمئة متر، تسيطر على المحاور الرئيسية بطول قناة السويس. وأبراج مزودة بأجهزة استطلاع إلكترونية للرؤية الليلية وأجهزة لإدارة نيران المدفعية وتوجيه الطائرات..

من أقام خط بارليف.. لم يكن يفكر في دفاع مؤقت عن أرض احتلها،

وسوف يتركها ذات يوم، ولكنه فكر أنه سيبقي إلى الأبد، يرجح ذلك تجهيزهم حجارة تعادل حجارة الهرم الأكبر، ألقيوها في البحيرات المرة، وتسلبوا فوقها.. فهل كان إحضار هذه الحجارة، من أجل التسلل في حالة الزنقة، كما حدث، أم من أجل العبور في حالة تنفيذ خطة الحزام الأسود..؟! وطلعت في ذهنه مقولة لضابط التوجيه المعنوي.. كان تحتبس الثالث يضع مجموعة من المراكب فوق عربات تجرها الثيران لاستخدامها في عبور المجاري المائية التي ستقابه في الشام.. وتذكر قول كليم السادات:

حين ذهبت للعبور، وجدت اثني عشر قارباً من اثني وثمانين قارباً، المفروض أن أعبر بهم.

الجنود المجدفون تحمسوا، وانضموا للمقاتلين، وتركوا القوارب. ماذا أفعل.. لا بد أن ألحق بالنسق الأول بأسلحتي الثقيلة. المشاية التي تم نصبها لا تتحمل الدبابات الثقيلة. لا بد من فرد الكباري. نزلت إلى الماء أتدبر وسيلة. وجدت سائقاً من شركة قناة السويس يسير بقاطرة بحرية، ذاهباً إلى السويس. استنجدت به. عاونني الرجل في فرد الكباري وغم الطائرات الإسرائيلية المحومة. وحتى لا أخل برنامج العبور، دفعت بعربات برمائية وعوامات عليها جنود معهم صواريخ «ستريلا» المحمولة على الكتف، لتملأ السماء كطيور شيطانية جارحة، ومدافع «شيلكا» 23 مللي تبصق النار في خرطوم طويل رهيب بسرعة أربع آلاف طلقة في الدقيقة. وبالفعل نجحت في تعطيل الدبابات الإسرائيلية عدة ساعات حتى تم فرد الكوبري. وحين عبرت دباباتنا ومدفعيتنا المضادة للدبابات، سمحت للرجل بالانصراف وهو يتصيب عرقاً.

وتنفست في راحة، وقد انتظم طابور الدبابات. وإذا بواحدة تسقط في الماء. لو انتظرنا النجدة، سيموتون داخلها من الاختناق. أحضر أحد الضباط خرطوم هواء من عربة «زل» وأوصله بفتحة الدبابة، وظل يدفع الهواء إلى

داخلها، حتى لا يتسرب الماء فيغرقون. ولما كانوا تحت سطح الماء بعدة أمتار، فلن يستطيعوا دفع غطاء البرج لأن ضغط الماء شديد. وتما لكنا أنفسنا ثانية، حين أبصرنا دبابات النجدة ومعها ونش، وانتشلت الدبابة. أطلت حمدي برأسها وقالت:

- تنغدي معنا اليوم..

لم يشأ أن تعاود غضبها، فأوما برأسه موافقًا. وسرعان ما صكت مسامعها،

أصوات تحليق طائرات، تطلع إليها.

- من مطار شاة القريب.

- محمومة..

- ربما غارات إسرائيلية على جنوب لبنان.. أو اصطدام بالفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

عملت الطائرات المصرية مظلة دائمة فوق مطاراتنا، وكانت أطقم إصلاح المطارات جاهزة لأي عمل. وفي أيام الثالث والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين من سبتمبر عام ثلاثة وسبعين، قامت الطائرات المصرية بطلعات بأعداد كبيرة في الجو. وأخرجت إسرائيل كل طائراتها، خوفا من المفاجأة. وعندما انطلقت طائراتنا في الثانية وخمس دقائق يوم السادس من أكتوبر لتدمير مراكز القيادة الإسرائيلية في سيناء، لم تحرك طائرة إسرائيلية واحدة.

أغلقت الباب، وجلست بالقرب منه.

- ماما.

- نائمة

وغابا في قبلة طال إليها الشوق.

نقرات على الباب.. انتفضت في حضنه. وجاء صوت الأم:

- ألن تحضري الغداء..

تبادلا النظرات.. قامت على مضض.. ووشت نظراته برغبته فيها وليس في أي غداء. وقفزت إلى ذهنه ذكرى أول مرة تلامسا فيها في آخر مكان يتوقع أن يلامس فيه فتاة. في حصن الرصيف.. حيث مدفع أبي جاموس.. الحصن محاط بالماء من ثلاث جهات ولا يربطه بالبر سوى رصيف صغير.. ومن هنا استمد اسمه. نأى بها عن الرحلة في ممر جانبي.. ولم يكذب يحيطها بذراعيه حتى انسلت هاربة. لكنه كان قد أحس ليونة جسدها وحرارته.. ومن لحظتها عشت إحساسه بها في كيانه.

ضابط إسرائيلي، يرتدي نظارة سوداء، لف العلم الإسرائيلي وسلمه لضابط مصري، ثم قدم التحية وسلم نفسه ومن معه من جنود للوحدة المصرية. نجحت نصف كتية من الصاعقة في عبور الموانع المائية، وظهر الثلاثاء التاسع من أكتوبر، كان العشرات من جنودها يربطون فوق الحصن، يغنون ويرقصون، في انتظار استسلام الجنود الإسرائيليين الذين احتجزوا به، وقد أغلقوا أبوابه الحصينة.

ووضع من الإشارات التي أرسلها قائد الحصن لقيادته، والتفتها المصريون، نفاذ الذخيرة لديه والطعام والدواء. ووعدته فيادته بإرسال طائرات لفك الحصار. وضعك المصريون وهم يعلمون استحالة اقتراب الطائرات الإسرائيلية من خط القناة، وكانت القيادة الإسرائيلية قد أرسلت تحذيرا في وقت سابق لطائراتها بعدم الاقتراب من القناة لمسافة خمسة عشر كيلو مترا.

لحظ المصريون زورقين من زوارق التطويريد من الفرقة 707، قادمين لإنقاذ الحصن. وعندما تأكدوا من سيطرة قواتنا على المنطقة، عادا ووقفا جنوب رأس سدر.

وسرعان ما جاءت أربعة زوارق مطاطية، تحمل جنودا من نفس الفرقة، في اتجاه الحصن بمحاذاة الشاطئ. وأثناء اتصال قائدهم برئيس المخابرات البحرية الإسرائيلية يخبره عن سير العملية، التفت المصريون الإشارة،

لسيطر تهم على إدارات المنطقة، وانتظرهم رجال الصاعقة أمام الحصن. ولم تكذ الزوارق تقترب، حتى انهال الرصاص من كل جانب. ابتعدت القوارب قليلاً، ظناً أنها طلاقات عابرة. وعندما اشتدت، وأصبحت أكثر تحديداً، أدرك القائد الإسرائيلي، أن المصريين كشفوا العملية. عاد فوراً من حيث أتى وأرسل رئيس المخابرات البحرية رسالة لقائد حصن الرصيف:

«استسلم فوراً للمصريين، وسنخطر الصليب الأحمر ليشرف على عملية سقوط الحصن».

وضحك صفوت في خاطره.. آخر شخص توقعت أن يأتيني بعمل هو حمدي.. لم تبقى إلا الشقة.. فمن أية جهة لا أترقبها سوف تأتي.. وأحس الآن.. وقد فارقه حمدي منذ لحظة.. تاركة الباب موارباً، أنه يريد أن يركب أكثر من أي وقت مضى.. لكن يا تري.. هل ستوافق.. لو عثر على شقة في الزقازيق أو الإسماعيلية، وتنقل عملها.. وهي المعترزة بالمنصورة. واستعداد حماتها.. عندما مروا بالقرب من المعبر الذي استشهد عنده أحمد حمدي.. لم يكذب يذكر اسمه.. حتى سارعت وبعض زملاء الرحلة، قائلين في زهو:

- من المنصورة.

أتم الضباط المهندسين أحمد حمدي مد المعبر.. لحظ عبوات في الماء، في الطريق إليه. ركب طوقاً وأسرع لإبطال مفعولها. جاءت الطائرات محمية لقصف المعبر.

حذره الضباط والجنود دون جدوى. انفجرت عبوة، وأصابته شظية. طالبهم بإخلاء المعبر، حتى تهدأ الغارات.

- الجنود وضباط الصف أولاً، يليهم صغار الضباط، ثم القادة. اشتدت عليه الإصابات، فأسرع أحد الجنود لنجدته. اعترضه أحد القادة، وصمم في حزم على منع باقي الضباط، وتقدم غير مبال بالشيران.. حملة، وهو بلفظ الروح، وتردد برهة.. هل يذهب ناحية الغرب، أم ناحية

الشرق. لم يطل ترده، وذهب إلى الشرق.
ونجح طيار مصري في إصابة إحدى طائرات الشبح المغمرة، ورأوا قائدها يقفز بالمظلة، قبل أن تنفجر، وبعد لحظات قفز الطيار المصري لتفاد الوقود. التفتي الاثنان على الأرض. حمي الطيار المصري الإسرائيلي من غضب من أحاطوا بهما. وسرعان ما حضرت هليكوبتر مصرية نقلتهما إلى المستشفى.

دخلت الأم، حتى لا تتركه وحيداً، لحين انتهاء حمديّة، ولم يكن في حالة نفسية، تسمح له بالتبسط في الحديث مع امرأة عجوز. قالت الأم:
- فتحوا باب التقديم في المساكن الشعبية، كثفت قريبا لي يعمل في مجلس المدينة باستخراج ورقة أن البيت آيل للسقوط، فقد أخبروني أن نسبة كبيرة مخصصة لهذه الحالات.
- هكذا.

واستمرت الأم:

- حمديّة بسلامتها مكسوفة، تروح تستلم الورقة من الإدارة الهندسية.

عصته الكلمات. تطلع إلى وجهها وود لو يقبلها في جبتها.
خيل إليه أنه سمع تزييقا.. نظر إلى السقف.. عروق خشبية مقوسة إلى أسفل.. لو كان السقف من الأسمنت لانهار من زمن..
انتبه إلى ضحكة حمديّة وقد وارت الباب، مشيرة له أن انطعام سيكون جاهزا بعد قليل..

حدث عطل في ياي الحركة في المدفع.. أبلغ الورشة وقائد الفصيلة..
لكنه لم يستطع أن ينام.. ربما طلبوا منه التحرك.. فكيف يعمل بهذا المدفع.. كان الوقت ليلا.. أحضر المدفع، ورغم عدم خبرته، فك الجزء الخاص باليأي، ومد يده ليكشف سر عدم رجوع اليأي. عامود طويل في أسطوانة، تحبك عليه. خلعه وأحضر مبردا وبرده.. ما زال يعاكس. خلعه

ثانية، وبرده، حتى سهل حركته. جرب المدفع، وأعطى تمامًا لضابط
الفصيلة، الذي أبدي دهشته.

- حتى لا يكون موتي مجاناً.

كانوا وقتها في تدريب على الماء في بحيرة الفيوم. يأخذونهم من
الجهة للراحة. لم يكونوا يريدون هذه الراحة التي تعني مشروعات.
محاضرات نظرية، وسحب على الماء.. أحياناً إلى حوالي خمسة وعشرين
كيلو متراً. ويأتي محكمون من الجيش لمشاهدة التجربة على الطبيعة.
مرة في منطقة سحب إلى أسفل غرزت دبابة. تركوها وأنجزوا المهمة.
أحضروا دبابة جر فغرزت هي الأخرى. معهم في الدبابات ألواح سميكة
من شجر الكافور، وضعوها تحت الجنزير، وأحضروا من بعض الدبابات
حبالاً من الصلب كانت معهم. طول كل حبل حوالي ستة أمتار، أوصلوها
ببعضها بعضاً. أوقفوا دبابة ثقيلة على الطريق أوصلوها بها الحبل. قامت
على السرعة الأولى، ثم نقلت بسرعة إلى الثانية. قفز لوح خشب بقوة
تزيد على خمسمئة حصان، اصطدم بحبل الصلب فقطعه، وكاد أن يهوي
عليهم، لولا تحركهم بسرعة.

كان المحكمون يشنون عليهم، ويطلبون المزيد، وأعلموهم أن
الإسرائيليين يقومون بتدريبات لصد الهجوم في بحيرة طبرية.
وقفت حمدية بالباب، تشير له أن ينهض، فأوماً لها أن تأتي..
ظن بحصوله على العمل أن مشاكله انتهت وإذا بها تبدأ. وضحك من
نفسه، حين ظن أن الحرب انتهت بالنسبة له فور انتهاء مهمتهم في مضيق
سدر، وإذا بها تبدأ، وتنهال التكاليفات عليهم في طريق العودة.
ضحكت حمدية، وفتحت الباب على اتساعه.



ذهب حمدي إلى سعد في شقته الجديدة بحي المساعيد ليبارك له حصوله عليها. وجد ندا هناك، وقد فرشت على كنبه في المدخل، ملابس مطرزة باليد، وشيلانا وأغطية. تناول قطعة من الملابس. أخذته دقة التطريز، منمنمة بالخرز والخيط الملونين.

قالت ندا:

- أمي تجهز هذه الملابس، منذ طفولتي.

- تعيشين وتُدوين.

وهما يغادران، قال سعد:

- يعني لو كنت قدمت معي على شقة

- حمار.

ضحك سعد، وأردف:

- ملحوقة.

وهما في الطريق، ظل حمدي صامتًا.

-- وراءك شيء.

- لمحت ذبابة فاكهة.

- رشة من رشك

- لو أفلتت واحدة، سوف تقرفنا بعد ذلك. خطرها في تعدد أجيالها،

وما تسببه من وخزات للثمر، تؤدي إلى تلفه، وسقوطه. وتنمو الفطريات

مسببة العفن، ولم نكد نبدأ.

قال سعد ضاحكًا:

- اعمل محطة إنذار مبكر.

- ويشغلها الأمريكان..

اكتشف القمر الصناعي الأمريكي، تحركات غير عادية على الجبهة المصرية، قبل الحرب بيومين، وأندروا الإسرائيليين. ونفذ ديان خطة التعبئة. وكان يجمع عشرين ألف جندي كل عدة ساعات، عن طريق نداء، بالشفرة في الإذاعة والتليفزيون ومكبرات الصوت في الميادين العامة: 92 - 107 115 - 124 - 125 146.

ومع ذلك، وثب الجيش المصري وثبة هائلة بطول قناة السويس، وتثبت بالأرض.

ولم يأخذ السوريون برأي الفريق أحمد إسماعيل، وزير الدفاع المصري، بالوثب والتثبت، وعندما يستقر الوضع، يقومون بوثبة أخرى، وهكذا. واندفعوا في المرتفعات السورية المحتلة، ليصلوا بسرعة إلى بحيرة طبرية، حيث السهل القريب، وحيث عرض إسرائيل لا يتجاوز ثلاثين كيلو مترا، ويمكن فصل شمالها عن جنوبها، ولو بطلقات المدافع. وأثناء اندفاعهم تركوا جيوبا خلفهم، لم يُصَفَوْها. وحين أوقف اندفاعهم، تعبتهم هذه الجيوب أيما تعب.

نظر إليه حمدي، وقال متنهدا:

- من الآن فصاعدا، علينا ألا نخفل لحظة واحدة.

وقال سعد:

- تقابلني عربات الأمريكيين انعاملين في المحطة، بسرعة ملعونة على الطريق، ولو لا يقظتى لدهمتنى.

ابسم حمدي، وقد طن في رأسه الحوار الذي كان يدور عبر القناة.

- يا ديدي.

- نعم.

- ملعون أبوك.

تكرر يومياً، إلى أن صحا ديدى مرة مبكراً:

- يا جمعة

- من بنادي

- ديدى

- ملعون أبوك

وفي صباح السادس من أكتوبر، نوي جمعة أن يهنئ ديدى بعيد كيور، وهو عيد التكفير عن سيئاتهم، قبل استقبال العام الجديد. لكن الأوامر صدرت في الصباح بالترام الصمت. وبدا جمعة متضايقا. ولما دوت المدافع المصرية بعد الظهر، استعاد مرجه وقال:

- كفرنا عن سيئاتهم.

كان الوقت بعد العصر، وقبل أن يدلقا إلى المقهي، اقترح حمدي أن يذهبا إلى المخزن ليتفقدوا رشاشات المييد.

- لن نجد أحدا الآن.

- تول ذلك غداً، مبكراً.

- هل نسيت الإشارة، بتوصيل بعثة حاخامات غداً إلى وسط سيناء، للبحث عن قتلاهم.

- البحث سيعطلنا.

- لا أفهم اهتمامهم الزائد بأناس شبعوا موتاً.

- يعتقد اليهود أنهم لن يعيشوا، ما لم تنقل رفاتهم إلى مقابرهم وتلي عليها الصلوات.

ضحك سعد، وقال:

- ولماذا نساعد على بعثهم.

رد حمدي بسرعة:

- ليقرفونا في الآخرة.

ضايقتهم الطائرات الإسرائيلية كثيراً، في مواقعهم بالقرب من القناة. في التاسع والعشرين من يونيو عام 70 بدأ زحف كمائن الصواريخ. قامت مجموعة بأعمال المناورة المكانية، تغير مواقعها كل يوم. وقامت مجموعة على حافة منطقة الأمان حول القاهرة في خط مواز لقناة السويس. بعد تثبيت هذا الخط، تقدمت المجموعة الثانية حوالي عشرين كيلو متراً باتجاه الجبهة، وفي نهاية اليوم التالي، فككت المجموعة الأولى معدات محطاتها، وتقدمت بعد المجموعة الثانية بعشرين كيلو متراً، وهكذا تبادلياً، حتى اقتربت من حافة القناة.

وبعد حلول مساء السابع من يوليو، مر قائد قوات الدفاع الجوي، ليتفقد القوات، وأحوال التشغيل، وليفزع الروح المعنوية. قال له نقيب: - لا يمكن لعدد من أطقم انصواريخ القليلة، أن تقابل طائرات إسرائيل كلها، ومن ورائها الإمدادات الأمريكية من سلاح وتكنولوجيا وطيارين وفنيين.. إن القتال في هذه الحالة انتحار.

بعد عدة أيام حاولت إسرائيل، نطح جدار الصواريخ، فتساقطت طائراتها.

ومع أن حرب أكتوبر بدأت وخلف الجيش المصري خطان فقط من الأسلحة والذخيرة، بينما كانت خلف الجيش الإسرائيلي ستة خطوط من الأسلحة والذخيرة، إلا أنه وقت «الثغرة» كان لدى القوات الإسرائيلية المتسللة أربع مئة دبابة ولدينا ثمان مئة دبابة، تحاصرها، وعندنا صاروخ ونصف لكل دبابة.

وقال الرئيس السادات لكسينجر:

- ليس أمامي قناة السويس لأعبرها، ولا خط بارليف لأنسفه (تكلف خمسة مليارات دولار، وشارك في إنشائه خبراء أمريكيون وألمان). أنا عبرت ونسفت. أمامي التسلل، وسأصفيه في لمح البصر.
رد كسينجر:

- ساعته سيضربك البتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية).

وقال حمدي:

- أخشى إن وجدنا رشاشات صالحة ألا نجد المبيد اللازم. وليس هذا ما يقلقني على أية حال. ما يقلقني تلويث التربة، وأخشى على النحل. كان حمدي قد أحضر طردا من النحل، ليساعد في تلقيح زهور الفواكه، وأخبره اختصاصي نحل أنهم أحضروا ملكات نحل أمريكية، نتاجها عال.

راقب حمدي النحل وهم يشم رائحة العشب وشجر الفاكهة، ليرى مدي تألفه معها. وحين لاحظ كثرة أعداد النحل، خمن أن من خرج للاستكشاف، والتعرف على معالم البيئة قد سمح للشعالات بالخروج للعمل.

ونصحه الاختصاصي أن يكون النحل يتيمًا، فإذا لم يكن، عليه أن يتيمه من ملكته، حتى يتقبل الملكة الجديدة.

وضع حمدي الملكة الأمريكية في قفص صغير، بالقرب من الخلية لتعتادها النحل قبل أن تدخل إلى الخلية، وراعى أن يكون النحل مشغولاً، ليتقبلها حتى ينهي عمله.

- بنا نرى النحل.

اقتربا من غور قريب، بين أشجاره خلية النحل.

رفع حمدي الغطاء. تأمل الخلية والتفت إلى سعد دهشاً.

- ماذا؟

- تجاهل النحل الملكة الجديدة، وخرجت ملكة من أحد أفراص الشمع، تقود الخلية، والجميع في طاعتها.



لاحت العريش، بمبانيها ذات الدور والدورين، كعلب بيضاء، متأثرة بين أشجار النخيل، وقد تمايل جريدها. تراءت ندا للسعد، فتغلغلّت نسمة رقيقة بين حناياه، وتلهف لإخبارها أنه أحضر القطن، وبعض الملاءات وأغطية الفراش، من نسيج المحلة الكبرى. والعربة نصف النقل تنزل الطريق، والسائق يهدئ السرعة، أفلتت من سعد:

- آخ..!

- خير..

- نسيت حافظة الأوراق في المحطة..

- بها شيء مهم

تفكر سعد قليلاً..

- أبدأ.. باستثناء البطاقة..

حين عودتي، سأوصي عامل المقصف أن يحفظها لك، إذا كان قد عثر عليها. فكر سعد أن يعود مع السائق، بعد إفراغ حمولته، لكن إحساسه بالإرهاق، جعله يعدل عن الفكرة.

كان عائداً للخلف في مأمورية، يوم 22 أكتوبر، وهو يوم لا ينساه. قالوا: وقف إطلاق نار. واستمر الإطلاق بقوة، أكثر من ذي قبل، كان كل جانب يفعل ما في وسعه، قبل أن يتوقف فعلاً. طلب منه الجنود أن يحمل رسائلهم، وأعطوه ثمن تسجيلها بعد أن جمعوهم ممن معهم، فلم يكن تبقي مع أغلبهم نقود، فقبل العمليات توقف صرف المراتب، حتى لا يستغلها الإسرائيليون، إذا ما عثروا عليها في ملابس أحد الموتى، في التسلسل بين

هل ينجح فى الوصول إلى السويس؟

تسلل الإسرائيليون من الثغرة، وساروا فى طريق الجنانين. كان يتقدمهم بمسافة بسيطة، وأخبره جنودنا فى بعض المواقع التى مر بها، أن قوة إسرائيلية تسللت من الجنوب عند السخنة، وهدفهم أن تتقابل القوتان، فيتم عزل السويس عن قوات الجيش الثالث فى سيناء.

غذا السير بالعربة، حتى يتمكن من تسجيل الرسائل وقضاء مأموريته فى توصيل مظروف خاص، منلق بالشمع الأحمر، لمركز تابع لقيادة الجيش الثالث، بالمدينة.

اقترب من السواتر الترابية على شاطئ القناة فى مواجهة السويس. كان جنود من الجيش الثالث، ينشئون سواتر جديدة لتعزيز الموجودة، بعد أن احتلوها. وتنفس سعد براحة، عندما انطلقت مدافع الجيش الثالث، موقفةً تلاقى القوتين الإسرائيليتين، لتحفظ بممر يصل السويس بسيناء، وسط حوض الدرس.

سلم المظروف، وسجل الرسائل، وأسرع عائداً. أشار له طيب ضابط، فأركبه معه.

أثناء السير، تعرف على جندي من وحدته. ناداه، فرفض أن يركب. هدا.. سعد.. جموع كثيرة من الأهالي تهول.. وسمعوا حركة دبابات.. وحومت الطائرات المغيرة. قفز الجندي من العربة، وسعد يلاحقه: - عيب يا دفعة.

وإلى العربة فى منطقة الجنانين، وساراً بحذاء القناة، سعد يود الوصول إلى وحدته فى سيناء، والطبيب يود الوصول إلى كبريت.

كان سعد قد أحضر جوالين، بهما فلفل وطماطم، فأكهة الجنود الذين ملأوا التعيين الجاف، وبعض الخبز، فقد عافت نفوسهم البسكوت. أنزلهما من العربة، هو جوال، والطبيب جوال. لبدا بجوار ترعة فى جانب من الطريق. مرت بهما عربة مسرعة، بها نساء وأطفال، فعرفا أن الإسرائيليين

قريبون. عادا إلى السويس، وقد تخليا عن الجوالين. عبرا خطوط السكة الحديدية، ودلفا إلى حي الأربعين. قابلا جنوداً كثيرين، أغلب الظن كانوا في مهام وقُطعت عليهم الطريق. انضموا إليهم. كانت معهم أسلحة خفيفة وقنابل يدوية. انبطحوا في أجناب الشوارع، وقذفوا الدبابات الإسرائيلية بالقنابل. وتسببت غارات الطائرات في وقوع المساكن القديمة فوقهم. بحث بعضهم عن الشوارع الضيقة، التي لا تستطيع الدبابات أن تمر منها، وتمرسوا مطلين على الشوارع الواسعة. جاءهم بعض الجنود ممن عطلت دباباتهم ومعداتهم، وأخبروا أن الإسرائيليين قطعوا طريق السويس القاهرة، قبل هجومهم على السويس، فحمدوا الله على ذلك، فلو تركت الطريق مفتوحة، ما انضم إليهم هؤلاء الجنود. انطلقت دبابة إسرائيلية في الشارع وعادت بسرعة. وسرعان ما بدأ القصف.

وعندما هداً فوجئوا بالبقر تجري في شوارع السويس. ضحكوا رغم إجهادهم، وقد خمنوا أن الإسرائيليين خشوا استخدامها، مخافة أن يكون المصريون قد حقنوها بمادة سامة. ساقوها من الجنائن حتي وصلت إلى أبواب السويس. وكانت فرصة لهم، عاشوا على لحمها أياماً. توقف تقدم الدبابات الإسرائيلية، استدارت إلى الخلف، بعد تدمير بعضها، عطلت الطريق في مدخل المدينة.

وبينما يستعدون لاستقبال موجة جديدة من الدبابات الإسرائيلية، بعد أن سحبوا دباباتهم المعطلة، فوجئوا بوجود عربات صواريخ أرسلها الجيش الثالث. صاح الناس في الشوارع:

- الله أكبر.. الله أكبر..

ولاحت الفرحة في العيون، وقد أدركوا أن الجيش الثالث احتفظ بالمر بينه وبين المدينة. كف الإسرائيليون عن محاولاتهم دخول المدينة.

نام سعد يومها على بسطة سلم، مع أكثر من عشرة أشخاص، غير راغبين في اقتحام البيت، خوفاً عليه من السرقة، ومراعاةً لحرمة.

وتسلل بعض الجنود إلى خطوط الإسرائيليين، وكانوا يحضرونهم
أحياء. مرة أحضروا، حدثاً، وقال له جندي معهم يتحدث الإنجليزية:
- يا بني.. لا نتعامل مع أطفال.

واستطاع بعضهم إحضار أجولة من الدقيق.. كيف أفلتت رغم شدة
القصف. هل تركوا هذا المخزن عمداً، ليستنفدوا الماء القليل، الباقي
معهم في عجنه..

سحابة من القلق غشت الوجوه.. الخبز مقدور عليه.. أما الماء.. وإذا
بموجات من الأهالي، تجوب الشوارع، وهنأاتهم تتعالى:
- الله أكبر.. الله أكبر.

استطلع سعد الخبر، فرد عليهم بعضهم بسرعة:
- بئر الأربعين.

ولما كان غريباً عن المدينة، فلم يفهم. عرج إلى أحد المقاهي. وجد
صاحبه مستبشراً، يصنع الشاي، ويوزعه على رواده مجاناً. لمح الجندي
الذي تحدث بالإنجليزية، سأله، فرد بسؤال:
- الدفعة من أين..؟

- من الصعيد

- غريبة..

نظر إليه مستطعاً، فقال:

- أربعون صعيدياً، فروا من الفرنسيين عندما غزوا مصر بقيادة نابليون،
وجاءوا إلى هنا. وجدوا الفرنسيين يحاصرون بئر عجروود، وكانت تشرب
منها السويس وقتها. اشتركوا مع الأهالي في فك الحصار عنها، وها هي
نفس البئر تعود. حين هدا الجوّ، شرع سعد في العودة إلى سيناء. سمعوا
زيطة بالقرب من القناة. كويتي من لواء اليرموك ألقى بنفسه في الماء،
يسبح باتجاه البحيرات المرة، لينال من الإسرائيليين، قفز وراعه بعض
المصريين. أخرجه وهدأوه.

وصلت قوة من الكويت، لتحل محل قوتهم، التي كان مقرراً عودتها على دفعات. وسأل هذا الجندي زميلاً له إذا كان يود أن يبلغ أهله بشيء لأنه سيغادر في اليوم التالي. شنت الطائرات الإسرائيلية غارة على الموقع. وتم ترحيله في اليوم التالي، لكن في تابوت.

أوقف عربية بها بعض الجنود، ودلهم على طريق أسفلتى، كانوا قد غطوه بالرمال، حتى لا يستخدمه الإسرائيليون. كان نصيب الفرد كوب ماء وكوب دقيق، يجتمعون معاً، كل خمسة أو ستة أفراد، يحضرون إحدى فلنكات المسكة الحديدية، من أحد حصون خط بارليف، يكسرونها، ويشعلونها، ويضعون فوقها قطعة من الصاج، لإنضاج الخبز، وتسخين ما معهم من معلبات الأرز والخضراوات باللحم. وعندما كانوا يقرفون من المعلبات، يشككون في رواية سعد عن جوال الخضراوات، ويتهمون به ببيعها للإسرائيليين.

ورغم الهدوء الظاهري في الجبهة، كان التوتر يشملهم، متوقعين، أن يندلع القتال بين لحظة وأخرى، لتصفية قوات الثغرة.

سافر الرئيس الجزائري هواري بومدين إلى موسكو، وعقد صفقة بتمويل من السعودية، لشراء خمسمئة دبابة، سرعان ما دعمت حصار القوات الإسرائيلية في الغرب، دون الحاجة إلى سحب دبابات مصرية من الشرق. ووضعت الخطة لتصفية الثغرة، ولم يبق إلا صدور الأمر بذلك، وغلق الفجوة بين الجيشين الثاني والثالث قبالة البحيرات المرة، التي عبروا منها، وهي لا تتعدى أربعة عشر كيلو متراً، مما يقطع خطوط مواصلاتهم وتموينهم الطويلة عبر سيناء إلى قواتهم في الغرب، ويحكم الحصار حولهم.

وبينما هم في انتظار الأمر بذلك، وصل هنري كيسنجر مساءً إلى إسرائيل قادماً من مصر، ومعه مسودة اتفاق فك الاشتباك، وطلب ديان وزير الدفاع الإسرائيلي، مهلة، وأن يعدل فقرة، كي يبدو الأمر أن مجلس

الوزراء الإسرائيلي، اجتمع وناقش، أفهمه كيسنجر أنه يود الانتهاء من هذه الإتفاقية بسرعة. طلب ديان الانتظار حتى الصباح، كي يبدو منظرهم مقبولا أمام الناس في إسرائيل، فكان له ما أراد.

وقفت العربية أمام بيت ندا. عزم سعد علي السائق بشدة، أن يستريح، ويتناول لقمة، لكنه اعتذر بضيق وقته، ونظرا للإلحاح، اكتفى بكوب من الشاي. وعند انصرافه، ذكره سعد بالحافضة، وهو يعجب: كيف نسيها.

كانا في العربية، في انتظار العبارة، لتقلهما إلى الضفة الشرقية، وأمامهما صف كبير من العربات عند المعبر، بالقرب من الصالحية. وحتى يلحق بهما الدور في العبور، ذهبا إلى مقصف المعبر، ليرطبا حلقيهما بمشروب مثليج، فجأة تجمع رواد المقصف، من راكبي عربات الأجرة والمخافة، حول بعض السياح الإسرائيليين، وأحد المصريين يصيح غاضبا.

عندما صعد السياح إلى الباص، احتل صبي إسرائيلي مقعد صبي مصري. حاول هذا أن يجلس في مقعده دون فائدة. دفع الصبي المصري الإسرائيلي، وجلس. زاحمه الإسرائيلي، دون جدوي، فقد تريس المصري ولم يتزحزح.

صاح الصبي الإسرائيلي مغبطا:

- خمسة يونيو.

رد الصبي المصري:

- ستة أكتوبر.

بكى الصبي الإسرائيلي.

وبدلا، أن يجلس أهل الصبي الإسرائيلي، الولد معهم، كما كان قبل الترقف، نزلوا إلى المقصف، وطلبوا الشرطة ليأخذوا المقعد من الصبي المصري.

رفض الصبي، ورفض أبواه، وسبوا السياح الإسرائيليين، وهاجوا على الشرطي، الذي أراد مراضاة الإسرائيليين. وحين وجد الشرطي الدفة دارت ناحيته، أراد أن يقصر الموضوع، فصاح في المصريين:

- خلاص.. قال خمسة يونيو.. ورد عليه ستة أكتوبر.. انتهينا.
-لم ننته..

أطلقت العبارة صفاراتها بتنغيم، أسرعوا جميعًا إلى العربات، للحاق
بها. كرر سائق العبارة تنغيمه. وتجاوب معه سائقو العربات:
- ستة أك.. توبر.. ستة أك.. توبر..

انزلقت العبارة على سطح الماء، وقد اندمجت أبواق العربات في
إيقاع واحد:
- ستة أك.. توبر.

وتذكر سعد، ما سمعه من الباشمهندس حمدي، أن سائقى العربات
في صفره، كانوا ينغمون بأبواقها: يحيا النحاس.. باشا.
أبطأت السفن المارة في قناة السويس، من جنسيات مختلفة، من
سرعتها، لتسمح للعبارة بالمرور، وهى تطلق صفاراتها بالتحية، بينما
انتظم الإيقاع:
- ستة أك.. توبر.





هذه الرواية..

نقدم بإعزاز هذه الرواية التي ينتظرها العرب.. كل العرب منذ عدة عقود لنعيش من خلالها معجزة النصر في السادس من أكتوبر 1973.

إنها أكبر عمل قصصي إنساني شائق يربط بين الحروب السابقة وأعاصير اليوم للروائي الكبير فؤاد حجازي، وهو مشارك وشاهد عيان، مارس نار الحرب، وعمرس بوهج الكلمة.

الرقص على طبول مصرية تغوص في وعي الإنسان وتستجلي خوافيه، وهي قفزة نوعية في رواية الحرب الإنسانية.

الناشر

Bibliotheca Alexandrina



1103018



0113900000040535

الرقص على طبول مصرية ج ٢

ISBN 978-977-277-652-3



62220084907134